الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه تخصص الدراسات الأدبية والحضارة الإسلامية بعنوان:

صورة الجزائر في عيون الرحالة

إعداد الطالبة:

جبور يامنة

إشراف الأستاذ الدكتور:

بن عزة عبد القادر

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د أحمد دكار	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د بن عزة عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د بن عمر محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
د. حطاب طانيا	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة مستغانم	عضوا مناقشا
د. صباح لخضاري	أستاذة محاضرة"أ"	جامعة النعامة	عضوا مناقشا
د. ليلى رحماني	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:1439/1438هـ الموافق 2018/2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـر وعرفـــــان

إلى كل من له الفضل في مساعدتي في إنجاز هذا البحث المتواضع، أرفع شكري الجزيل، وبالأخص إلى أستاذي المحترم"عبد القادر بن عزة" الذي كان نعم المعين والسند وعلى صبره الجميل.

إهـــــــــداء

إلى التي احترقت كالشمعة لتنير دربي، إلى أمي الحبيبة.

إلى روح أبي الطاهرة أسكنه الله فسيح جنانه.

إلى زوجي ، وإلى كتكوتي الجميل مهدي.

إلى إخوتي وكل عائلتي

أهدي ثمرة جهدي

لكل بلد خصائصه ومميزاته، سواء تعلق الأمر بما هو هبة من الله عز وجلّ، كالموقع الجغرافي والمناخ الطبيعي، والتضاريس، أو بما هو متعلق بما صنعته يد الإنسان من تاريخ، وبنايات، وآثار كونت حضارات، والجزائر بفضل موقعها المتميز، ومساحتها الشاسعة، وانفرادها بمقومات طبيعية وجغرافية، كل ذلك جعلها محطّ الأنظار، ومحل اهتمام الباحثين، والرحالة العرب، والأجانب على السواء، بحيث سحرهم جمالها، فوصفوها وصفا جامعا يشوق النفوس إلى زيارتها حتى ترتاح المشاعر وتتمتّع العيون، فأفردوا لها كتبا ومجلات في وصفها، وأفاضوا فيها ، وأطنبوا في إظهار جمالها الطبيعي وروعة بنيانها، ممّا دفع إلى القول فيها:" إنّها فسيفساء حضاري، وثقافي وتحفة ناذرة." ولذلك فكلّ من اطّلع على ما كتب عمّا تزخر به الجزائر، استهوته، ودفعه حبّ الاطّلاع إلى زيارتها واكتشاف معالمها، حتى أنّه لا يملّ من إعادة قراءة ما قيل فيها، وتصفح الصفحات دون كلل أو ملل، وكانت لهذه الرؤية الأولية دوافع لطرح الإشكالات الآتية:

. كيف نظر الرّحّالة العرب، والأجانب إلى الجزائر؟ وما دوافعهم للكتابة عنها؟

. ما هي أوجه التشابه، والاختلاف بين كتابات الرحالة العرب، وكتابات الرحالة الأجانب؟

. ما الهدف من الكتابة عن الجزائر سواء بالنسبة للعرب، أو الأجانب؟

لهذه التساؤلات مجتمعة، كانت الدوافع تملي خطوط، وعناصر هذا البحث، والتي جاءت على الشكل التالي: مدخل، وثلاثة فصول بعد مقدمة، حيث تضمن المدخل الوقوف عند المفاهيم المشكلة للبحث، عند الرحلة مفهومها لغة واصطلاحا، مع ذكر العلاقة التي تربط الرحلة بالأدب، أو بما اصطلح عليه " أدبية الرحلة " من حيث هي علاقة اتصال، وانفصال، وكما تعرّضت إلى دلالة الرحلة من حيث المفاهيم.

أمّا الفصل الأول، فقد تتبعت في ثناياه موضوع الجزائر في عيون الرحالة العرب، وذلك من خلال ثلاثة مباحث:

. المبحث الأوّل: الرحالة الجزائريون، ووصفهم لبلدان أخرى غير بلدهم مترجمين شوقهم للديار وحنينهم للأهل والأحبّة.

. المبحث الثاني: الرحالة العرب، ووصفهم منبعثا من اندهاشهم بما احتوته أرض الجزائر.

. المبحث الثالث: الرحالة المسلمون، وإعجابهم بأرض الجزائر، وروائع ما احتوته، وافتخرت به.

أمّا الفصل الثاني: فجاء متابعة لما كتبه الرحالة الأجانب عن هذه الأرض، وقد اندرجت تحته خمسة مباحث.

. المبحث الأول: تطرق إلى صورة الجزائر في عيون الرحالة الفرنسيين، وقسم على الشكل الآتي:

. وصف المكان والموقع الجغرافي: وإبداء إعجابهم، واندهاشهم بالطبيعة الخلابة.

. وصف المساحات الدينية: ويشمل المساجد، وما احتوته من زخارف هندسية وعبادات، وطقوس دينية، بما فيها تناقضات بين المعاملات الدينية، والامتثال للشعائر والتعاليم الإسلامية، وبين تلك العادات الخارجة عن الدين.

. وصف الحياة العامة: وتشمل تلك الانشغالات التي يقوم بها سكان الجزائر وسط أسواقهم بين بضائعهم، وحالهم حتى وسط مقاهيهم، ومحلاتهم التجارية.

. خصوصية المرأة: نظرا لدورها الفعال الذي تقوم به داخل الأسرة باعتبارها الركيزة الأساسية التي تبنى عليها، بالتطرق إلى لباسها، وهندامها، وزينتها، بالإضافة إلى تربية الأطفال والقيام بشئون البيت.

أمّا المبحث الثاني: فقد خصصته لتدوينات الرّحالة الألمان للحديث عمّا دونه هؤلاء الرحالة بشأن الجزائر، وقسّم إلى أجزاء أبرزها:

. الموقع الجغرافي، والمنظر الطبيعية.

. المساحات الدينية.

. الحياة العامة.

. خصوصية المرأة.

أمّا المبحث الثالث: فجاء لتوصيف الرحالة الإنجليز لمدن الجزائر، وهو بدوره مقسّم إلى أجزاء وهي:

. الموقع الجغرافي، والمناظر الطبيعية.

. المساحات الدينية.

. الحياة العامة.

. خصوصية المرأة.

أمّا المبحث الرابع: فذكر فيه إشارات الرّحّالة الأمريكيين، واقتصر على جانب واحد، وهو أعمال الحرب، والجنود، والسجن.

وأخيرا الفصل الثالث: واقتصر التطرق إلى عيون هؤلاء الرحالة العرب والأجانب، فقد تم اختياري لثلاث مدن جزائرية، خصّها هؤلاء الرحالة بالوصف المستفيض، وهي قسنطينة، والجزائر العاصمة وتلمسان وقسم إلى ثلاثة مباحث:

. المبحث الأوّل: خصصته لكتابات الرحالة عن مدينة قسنطينة، وقسّم إلى أجزاء:

. تاريخها وموقعها الجغرافي.

. معالمها الأثرية، والحياة الاجتماعية لسكانها.

. صورة المدينة في عيون الرحالة العرب.

. صورتها في عيون الرحالة الأجانب.

. المبحث الثاني: عنونته بصورة الجزائر العاصمة في عيون الرحالة، فتتبعت الخطوات التالية:

. تاريخها وموقعها الجغرافي.

. عمرانها ومساحتها الدينية.

. أسواقها والحياة العامة فيها.

. صورة العاصمة في عيون الرحالة العرب.

. صورتها في عيون الرحالة الأجانب.

. المبحث الثالث: تعرضت فيه إلى مدينة تلمسان في عيون الرحالة، حيث توصلت إلى الوقوف على:

. تاريخ المدينة، وأسماؤها، وجغرافيتها.

. الحياة الدينية فيها، وأبرز أعلامها.

. ما كتبه الشعراء عن مدينة تلمسان.

. صورة تلمسان في عيون الرحالة العرب.

. صورتها في عيون الرحالة الأجانب.

وقد ذيلت بحثي بخاتمة أجملت فيها أهمّ النتائج المستخلصة مع بعض من التوصيات فيما يتعلّق بفن الرحلة في الجزائر علّها تجد الصدر الرحب، والفضاء الواسع لتكون الأبحاث فيها مكثفة حتى يستفيد الجميع.

ونظرا لتعدد جوانب الموضوع، إذ يجمع بفن الرحلة مفهوما وفنا لا يزال يحتاج إلى الكثير في الجزائر، ولا تزال الأبحاث متواصلة إن شاء الله لنكشف خبايا ما دوّنه خاصة الأجانب عن أرض المليون والنّصف مليون من الشهداء بشكل من الدّقة والموضوعية، فكلّ ذلك فرض امتطاء آلية المنهج

التّاريخي المعتمدة على الشّرح، والتّحليل والانثربولوجي والمقارن والوصف في أحايين كثيرة لما اقتضته طبيعة البحث، فكلّ رحالة إلاّ ودون ما رآه في الجزائر حسب ميوله ، وحسب دوافعه، وأسبابه وحسب أهدافه المنشودة.

وفي رحلة البحث هذه شاركتني بعض المصادر، والمراجع أخالها أساسيّة لتغطية فصول هذا العمل البحثيّ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: كتابات الرّحّالة العرب كالعياشيّة، والمغربيّة وقبل ذلك رحلات جزائرية داخل الوطن، وخارجه، وقبل ذلك كلّه معاجم لغوية للتفصيل في مفهوم الرّحلة، وغير ذلك من المراجع التي رأيت أنّها تخدم الموضوع من قريب أو من بعيد.

إلاّ أنّ الطّريق لم يكن سهلا، حيث اعترضت سبيلي بعض الصّعوبات منها: صعوبة الحصول على المخطوطات التي تفي بالغرض، فمثلا رحلة ابن حماد وش الجزائري وجد الجزء الثاني منها في غياب الجزء الأوّل، وما كتبه الرّحّالة الألمان عن الجزائر إلّا ما ترجمه الدّكتور أبو العيد دودو، ومع كل ذلك فقد وجدت نكهة البحث العلمي، وتذوقت في حلاوة ومتعة لم أعهدها من قبل في أثناء إنجاز مذكرتي الليسانس، والماستير، فقد تعلّمت أنّ العلم يؤخذ غلابا.

وفي الأخير لا يسعني إلاّ أن أرفع شكري الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور :"عبد القادر بن عزّة" الّذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته البحثية السّديدة، ومساعداته، وإرشاده إلى كل ما يدفع بالبحث إلى الأمام، بالرغم من انشغالاته الكثيرة، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

تلمسان في: 2018/02/12 الطالبة: يامنة جبور

مدخـــــــــــل

إن كانت الرحلة عموما تعني التّنقل والتّرحال وعدم المكوث والبقاء في مكان واحد مهما كانت الأسباب والدّوافع والأهداف المرجوّة، سواء تمّ تحقيقها، أو عاد الرّحّالة خائبا يجرّ أ ذيال الفشل، فإنّ المثل يقول: " تعدّدت الأسباب والموت واحد " فكذلك يمكن أن يسير المثل على الرّحلة فيمكن القول:" تعدّدت القواميس والمعاجم واللّفظ واحد" فقبل كل معجم هناك المعجم الرّبّاني السّماوي. القرآن الكريم. فقد وردت كلمة رحلة في الكتاب العزيز في سورة قريش:"﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ " [1]

أمّا ابن منظور في لسانه فقد فصّل في مفهوم كلمة رحلة فجاء فيه: رحل: الرّحل، مركب البعير والنّاقة وجمعه أرحل ورحال.

وقال طرفة بن العبد:

جَازَتْ الْبِيدُ إِلَى أَرْحُلِنَا آخِرَ اللَّيْلِ بِيَعْفُورِ حَذِرِ

والرّحالة: نحوه، كلّ ذلك من مراكب النّساء.

وأنكر الزّهري ذلك قال: الرّحل في كلام العرب على وجوه، ويقولون لا عواد للرّحل بغير أداة رحل ومنها ناقة رحيلة، أي شديدة قويّة على السّير، ثم جرى ذلك على المنطق، حتّى قيل: ارتحل القوم ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل وهو راحل من قوم رحّل، انتقل.

والرّحل والارتحال: الانتقال، وهو الرّحلة والرُّحلة والرَّحلة اسم للارتحال للسّير. [2]

وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي قال:" مضى القوم من المكان، أي عبروا وانتقلوا، وكلمة رحلة مصدر اشتقّ من الفعل رحل، ومنه الارتحال بضمّ الوجه الّذي يقصده السّفرية الواحدة، يقال راحله أي عاونه على راحلته،أي استرحله، سأل أن يرحل له، ومنه هذا رحل الرّجل، أي منزله ومأواه، فهو

[1]. سورة قريش. الآيتان: 1. 2.برواية حفص.

[2]. ابن منظور. لسان العرب. دار صادر بيروت. المجلد 10. (مادة ر ح ل).

من هذا لأنّ ذلك يقال في السّفر لأسبابه الّتي إذا سافرت كانت معه يرتحل بها عند النّزول وهو الأصل." [1]

وتطلق كذلك على الدّابّة إذا سمنت فأرحلت بعد هزال فأطاقت الرّحلة" [2] لقول الشّاعر:

وَمُصَابِ غَادِيَّة لِحَانَ تُجَّارِهَا نَشَرَتْ عَلَيْهِ بُرُودُهَا وَرِحَالِهَا [3]

أمّا في المعاجم الأجنبيّة، الفرنسية خاصّة تقابل كلمة سفر ورحلة المعنى نفسهVoyage وسافر ورحل تعني Voyager [4]والفاعل مسافر ورحلاتي Voyageur ويطلق أيضا على شخص رحلاتي، ومنظم رحلة، ومن يقوم بالعديد من الرّحلات بالمفهوم المعاصر Voyagiste [5] بالإضافة إلى مدلول آخر مرتبط بالعقيدة، أي السّقوط والموت[6]، فقولنا سافر فلان أي مات.

من خلال ما سبق يتّضح أن وقوف المعاجم العربيّة والفرنسيّة على المعنى اللّغوي وكلّها تصب في قالب واحد، وتتحد على معنى واحد ومفهوم واحد، أنّ الرّحلة تعني السّفر والارتحال والانتقال من مكان إلى آخر سواء كان عن رغبة أو عن إكراه.

[1] . الفيروز أبادي محمد بن يعقوب . القاموس المحيط . دار الجيل ط 3 بدون سنة . ص 309

[2] . أبو الحسن أحمد بن فارس الرازي . مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام بن هارون . دار الجيل . بيروت بدون سنة . ص 497.

[3] . الأعشى . الديوان . دار بيروت للطباعة والنشر . د ط بيروت د تا . ص 137.

[4] . Larousse : Le dictionnaire de français _ oméga international _ SARL Ed spéciale p 453 Algérie 2001 (Voyager)

[5] . blot le dictionnaire olfaraid arabe / français Ed oriental bibliothèque catholique 21 Beyrouth p 240.

[6] . سهيل إدريس . قاموس عربي . دار الآداب ط1 . بيروت 2007 . ص 128.

أمّا مفهومها اصطلاحا فهي لون من التّأليف الّذي يجمع بين الدّافع العميق والتّأمّل الدّقيق في رصد المشاهدات والظّواهر بأناة دقيقة والبحث عن الأسباب والنّتائج ببصيرة واعيّة." [1]

كما يذكر محمد الفاسي:" أنّ الأساس في هذا النّوع هو شخص المؤلّف ووصفه ما يعرض له في سفره، ويذكر الإحساسات الّتي يشعر بها أمام المناطق الّتي يمرّ بها مع اطلاعنا على أحوال البلاد الّتي يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم، وأفكارهم وهو في هذا يعبّر عن نفسه، وعن عواطفه ووجهة نظره الخاصّة في كلّ مسألة"[2]

فهذه المفاهيم توضّح لنا أن الرّحّالة لا بدّ له أن يجمع في أثناء تدوين رحلته بين إحساساته العميقة وبين تأمّلاته الدّقيقة مضيفا إبداء دوافعه للرّحلة ونتائجها وأهدافها، حتّى يتمكن من أن ينقل للقارئ كلّ ما شاهدته بصدق وموضوعية عن أفكار وعوائد وتقاليد وأخلاق تلك المجتمعات الّتي قام بزيارتها معبّرا عن نفسه وعواطفه ووجهة نظره في كلّ ما يعرض له.

فالرّحلات تختلف باختلاف الأهداف المنشودة، والّتي يمكن تحقيقها من وراء قيام الرّحّالين بزيارات لمختلف البلدان والبقاع،بحيث تكون استكشافية كما يقول الدّكتور شعيب حليفي:" قد تكون الرّحلات لغير البلدان الأصلية مختلفة الأهداف، وقد تكون منطلقها أساسيا ذا منحى تقريري يشمل معرفة المجتمعات، وهي نصوص استكشافية تعلن عن قصصها الاستكشافي منذ البداية."[3]

وعليه يشترط في الرحالة أن يكون دقيق الملاحظة، واسع الإطلاع ، عارفا بلغات الأقوام التي ينزل عندهم، متطلعا على تاريخهم ومعتقداتهم، وجغرافية بلادهم، حتى يتمكن من تصنيف رحلته في أيّ باب لتكون جغرافية، أو علمية، أو تاريخية، فيجيء تدوينه للرحلة بأسلوب شيق ومشوق، فيه الكثير

[1] . محمد بن عثمان المكناسي . الإكسير في فكاك الأسير . تحقيق وتعليق علي الفاسي . المركز الجامعي للبحث العلمي د ط . الرباط 1965 ص 01 من المقدمة.

[2] . حسين فهيم . أدب الرحلات . عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ع 138 يونيو 1989 . الكويت ص 13

[3] . شعيب حليفي . الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آلية الكتابة، خطاب المتخيل . دار الرؤية للنشر والتوزيع . المغرب 2006 . ص 154.

من الإثارة بألفاظ عذبة منمقة، موحية ومعبرة ومؤثرة في النفوس البشرية حتى يمكنها من الرغبة في زيارة تلك البلدان التي زارها الرحالة، وأبلغ عندها بإبداع تصوير ودقة وصف.

وفي الأدب العربي الكثير من تلك الرحلات ذات الخيال الواسع التي تحمل في طياتها الكثير من القصص الخرافية الأسطورية، مثل رحلة " السّندباد البحري" وقد يذهب الرّحّالة بكتاباته بعيدا فيصور بإبداعاته على شكل نظم، كما كان في أغلب قصائد الجاهلية التي تفتح عادة بالبكاء على الأطلال حتى أصبحت تلك عاداتهم التي لا ينبغي الحياد عنها، وغالبا ما تكون رحلة الشاعر على ظهر ناقته، أما واصفا لما رآه، وما وجده في الديار التي غادرها، ثم عاد إليها من جديد ليجدها خرابا، أو واصفا معاناته بسبب فراق الأهل والأحبة ولذلك يقول الدكتور شوقي ضيف: " فالإنسان ولد رحّالا، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال"[1]

يتضح من القول : إنّ الإنسان دائم الترحال والتنقل، لأنّ الرحلة تساعد على اكتشاف موطن الإنسان، أي كوكبه الأرضي كما تؤدي بالإنسان إلى أن يدرك مدى انتشاره في بقاع الأرض، وأنّ البشر قد سلكوا مناحي مختلفة ، وتعددت ألسنتهم إلى جانب طرائق حياتهم، ومن هنا فإنّ الرحلة هي الانتقال من مكان إلى آخر، إما طلبا للرزق أو التجارة.

وهذا يعني أنّ الرحلة قديمة قدم الإنسان نفسه، فهو دائم الترحال والتنقل يجوب الأقطار شمالا وجنوبا وشرقا، وغربا، يسطّر لخطّ رحلته مسارا يسير وفقه، وينشد لنفسه أهدافا يرغب في تحقيقها بالرّغم من المشّاق، والمتاعب التي تعترض سبيله، ومهما كلّفه الأمر، وإن عجز أن يقوم بالرّحلة ابتدع واخترع لنفسه رحلات من صنع خياله، مدونا إيّاها حتى تشهد على براعته في التّصوير والوصف وحتى يسجّل اسمه ضمن قائمة الصّنوف الأدبية المتنوعة، جاعلا لكتاباته اسما وعنوانا هو أدب الرحلات.

[1] . عبد الله بن آل حمادي . رسالة ماجستير . أدب الرحلة في المملكة السعودية . جامعة أم القرى . السعودية 1997 ص 10

وإما لطلب العلم والتّفقه في الدّين، وإما لزيارة الأماكن المقدّسة، وإما لغرض السّياحة والتّرفيه عن النّفس، وإما مبعوثا للسّفارة لهدف سياسي، وبالتّالي تختلف طرائق تدوين هذه الرّحلة فمنها ما يدونها صاحبها في أثناء الرّحلة تماشيا ومسار تنقله، وفق زمن حدوثها ومكانها كما فعل العبد ري في رحلته والدّليل قوله حين التقى ابن دقيق العيد في القاهرة وحصل منه على الإجازة: " ووقف على ما تفيد من هذه الرحلة واستحسنه، وأفادني فيها أشياء، وقيد منها الشّقراطيسي صاحب القصيدة الشّقراطسية حسبما تقيدت في موضعها"[1].

أو تقييد الأمور المهمة يتخذها الرحالة محطات في تنقله ، يعتمد عليها في تدوين رحلته بعد العودة إلى دياره بعد قد تطول أو تقصر ، كمثال التجيني في" مستفاد الرحلة والاغتراب" والتي كانت سنة 696 هـ. 1297 م ودونها سنة 704 هـ. 1304 م ، وهناك طريقة ثالثة لتدوين الرحلة وتكون بالاستناد على الذاكرة، وتكون بعد العودة من الرحلة بحيث يسترجع الرحالة كل ما رأت عيناه، أو سمعت أذنه، وبالتالي يدوّن كل ذلك إما بخط يده أو إملاء من ذاكرته دون الاعتماد على أصول أو ملاحظات دوّنها في أثناء رحلته كما فعل ابن بطوطة الذي قام بتدوين رحلته ابن جزي بتكليف من أبي عنان المريني ت (759 هـ. 1358 م) إعجابا بأخبارها وعجائبها.....[2]

لقد ازدهر أدب الرحلة ازدهارا منقطع النظير لعوامل عدة منها:

. تأمين الطرق ويكون ذلك للقضاء على قطّاع الطّرق ، والمفسدين الذين كانوا يتربّصون للرّحالة ويعترضون سبيلهم ويعيثون فسادا، وإنشاء مراكز ومحطّات يستريح فيها الرّحالة وتموينهم بما يلزمهم وإرشادهم إلى أقرب الطّرق وأسلمها.

. حماية الرّحالة داخل حدود كلّ دولة تكون معبرا له إلى حين خروجه منها ودخوله في حدود دولة أخرى.

[1] . علي ابراهيم الكردي . أدب الرحل في المغرب والأندلس . مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب . سنة 2013 ص 15

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

. انتشار الزوايا في كل الطرق لتهيئ للرحالة كثيرا من متطلباته، وبهذا كان للزوايا دور الضيافة بالمجان للجميع، تقوم بإكرام الضيف وتأمين له سبل الرّاحة إلى أن يغادرها قاصدا وجهته.

. إسقاط المكوس على الرّحّالة، وأوّل من قام بذلك القائد صلاح الدّين الأيوبي، أدّى ذلك إلى مدحه من قبل الرّحالة ابن جبير بقوله:

رَفَعْتَ مَغَارِمَ أَرْضِ الْحِجَازِ بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْغَامِرِ

وَأَمَّنْتَ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى الْعَابِرِ [1]

وهكذا كان للرّحّالة الأوفر من العلم يأخذه عن العلماء دون دفع أجر، فنمت ثقافته، وتنوعت معارفه، واختلفت ثمار جنيه للعلم والمعرفة، فكم من رحالة بلغ مرتبة عالية من العلم بسبب الرّحلة في طلب العلم والتزوّد بالمعرفة ، ولقاء الأساتذة مزيد كمال في التّعلّم، فالرّحلة لا بدّ منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال.."[2]

ويواصل الرّحالة جولته في البلدان متّسما بدقّة الملاحظة، والوصف، والتّقصّي في تسجيل مشاهداته بأمانة وصدق في المعاينة الشّخصية عن كافة الأحوال المحيطة بأهل المنطقة المزارة ، سياسية كانت، أو اجتماعية، أو ثقافية للبلدان التي زاروها، أو أقاموا فيها، وعن طبائع أهلها، ومعالم حضارتهم بالإضافة إلى أماكن تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من انطباعات شخصية، أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه، أو سمعوا عنه.

إذن فالرّحالة ينقل لنا مشاهد حيّة، وصادقة عن المدن، والمجتمعات، وعن عادات السكـان والتقاليد، ونظمهم الاجتماعية، وأحوالهم النفسية مع ذكر تاريخ الأحداث، والأماكن، وتحديد الفترة الزمنية التي جرت فيها الرّحلة، ويكون ذلك إمّا إعجابا، واندهاشا، وإمّا تأثيرا وتأثرا.

[1] . العبدري . رحلة العبدري . دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع . سوريا. ط 2 سنة 2005 . ص 218

[2] . ابن خلدون . المقدمة . دار الكتب العلمية ط1 . بيروت 1993 . ص 86.

وانطلاقا من كلّ ما قيل: يمكن أن نضيف أنّ الرّحلة تعتبر عقدا تزاحمت حباته لتؤلفه وحبّات الرحلة أبعادها أيّا كان نوعها، سياحية، أو علمية، أو تاريخية، أو سفارية، أو دينية.

1 . **البعد الجغرافي:**

لعلّ عنوان كتاب الأستاذ صلاح الشامي : " الرحلة عين الجغرافيا المبصرة " لأصدق تعبير عن علاقة الرّحلة بالمعلومات الجغرافية، فلكلّ رحلة بعدها الجغرافي حيث يقصد بجغرافية بلد ما حيزها الذي يشغله، أو موقعه الذي يقعه، وما البلدان المحيطة به؟ وما المناخ الذي يسوده، وما هي مكوناته الطبيعيّة؟، وما ظواهره؟ من جبال، وسهول، وهضاب، ووديان، ومرتفعات.

أمّا بالنّسبة لكلمة جغرافيا، وكما جاء في بعض المصادر أنّها ليست عربية " لفظة جغرافيا، بحدّ ذاتها كافية للدّلالة على أنّ نبعة هذا الفنّ ليست عربية، فكلّ ما ذكر للعرب، قبل نقل الجغرافية إلى العربيّة، وصف الطرق والبلاد والمدن."[1]

أمّا البعد الجغرافي للرّحلة فهو ما يدونه الرّحالة عن هذا البلد من معلومات جغرافية مهمّة، من وصف للمسالك، والطرق، والبلدان، والآثار المختلفة، بالإضافة إلى ما يصفه من مظاهر طبيعية، وبشرية واقتصادية.

يعني ذلك أنّ المسؤولية، والمهمّة تقع على عاتق الرّحّالة، فيتحتّم عليه أن يرمي بنفسه متنقّلا بين الغابات، والصّحاري، وفي الأودية، والمرتفعات، ومقيما فترات طويلة في بعض أقطار الشّمال، والجنوب وبلاد الشرق، والغرب، هدفه في ذلك أن يتمّ التواصل بين الماضي، والحاضر، والمستقبل.

وعلى الرّحّالة أن يخرج بالرؤية الجغرافية إلى مرحلة علمية ميدانية، بغية تحقيق أهداف معينة في مجال البيئة الطبيعية والبشرية، ومن هذا المنطلق يدون الرحالة مذكراته وفقا لاهتماماته بعلم تقويم البلدان، ويكون

[1] . جورج غريب . أدب الرحلة تاريخه وأعلامه . دار الثقافة . بيروت لبنان . ص 25.

ذلك وفق خط حقيقي للجغرافيا الوصفية، هو خط المسالك والممالك، وهذه الدراسة تكون مبنية على المعاينة ومساءلة الخبراء من أهل البلد لضبط المعلومات، وإزالة الالتباس حول الإفادات.

هكذا يكون على الرّحّالة تدوين كلّ ما رأت عيناه، أو كلّ ما روي له، فيرسم لنا لوحة فنّيّة في شكل كتابة رحلية بدقّة فيها المسار، أو الطريق التي سلكها بمفرده كان ، أو مع من اتّخذهم رفقاء دربه، ورحلته سواء كان برّا أو بحرا كما عليه تحديد أهمّ المراكز التي وطئتها قدماه، وكانت موضعا للاستراحة، كما يعدّد المناهل والمنابع التي توقف عندها للتزوّد بالماء مثلا.

ولقد ازدهر الفكر الجغرافي في ظل الرحلات التي قام بها المسلكيون والجغرافيون المسلمون، وجابوا خلالها العالم القديم ، والأمصار الإسلامية على السواء، فلما أوضحوا جغرافية العالم الإسلامي، وأوضحوا أيضا جغرافية بلاد الصين والهند وأوروبا، ولم يتحيز الرّحّالة الأوائل على معرفة العالم الإسلامي دون سواه كما يدّعي البعض بقصد أو بدون قصد، ولذلك فقد أسهمت رحلات الجغرافيين المسلمين إلى الآتي:

.كشف الأغلب الأعم من معالم وأعلام العالم القديم، فأخرج الجغرافيون صورة الأرض بطريقة إبداعية جسدها بصورة جيدة كالشريف الإدريسي في خريطة العالم لتكون مفخرة للمسلمين والعرب مع الأمم والشعوب على مر العصور، ولا زالت الكرة المجسدة بمتحف أوروبا حتى الآن.

2 . **البعد الاجتماعي:**

يقصد بالحياة الاجتماعية الأنماط المعيشية، أو الأحوال الاجتماعية السائدة في ذلك البلد مثل نشاطاتهم اليومية، أو زيّ لباسهم، أو حرفهم لكسب قوتهم، أو مجموعة الظروف والمشاكل التي يعاني منها كالفقر والجهل، والظلم والحرمان وغيرها من الأحوال الاجتماعية المزرية التي يعيشها أفراد أيّ مجتمع.

أمّا البعد الاجتماعي للرّحلة فيكون من خلال مجالسة الرّحّالة لمختلف أفراد المجتمع على اختلاف درجاتهم العلمية، أو فروق طبقاتهم الاجتماعية، أو تنوّع مهنهم الحرفية، أو تشعب نشاطاتهم القائمة على

سد حاجاتهم اليومية، فكما يجلس الرّحّالة إلى العالم ذا الشّأن العظيم في محيطه، عليه أن يجلس إلى الفرد ذي العلم المحدود، وكما يجلس إلى الشّيخ ، عليه أن يجلس إلى الشّاب والطّفل، وكما يجلس إلى المثقّف عليه أن يجلس إلى الجاهل، وكما يجلس إلى المرأة باعتبارها فردا في المجتمع له دوره الفعّال في تحريك عجلة الحياة اليومية للمجتمع، وتسيير شئون البيت، ورعاية مصالح الزّوج والقيام بتربية الأبناء، والعمل داخل المنزل وخارجه، أي خلاصة باعتبارها العمود الذي تستند عليه الأسرة، والركيزة التي تشد أركن البيت، يجلس إلى الرجل باعتباره السلطة التشريعية فيه، وإليه يرجع الأمر كله،إن كان بالمشورة، أو بفرض الرأي كله.

وهكذا يتمكّن الرحالة من معرفة آمال وطموحات كل فرد على حدا، كما يتعرف على اهتمامات وانشغالات كل فئة في المجتمع، من خلال الحديث معهم، والاستماع إلى انشغالاتهم، وأحوالهم الاجتماعية،كما على الرّحّالة أن يعدّد الظواهر الاجتماعية للحياة اليومية عند بعض الشعوب مثلما يتّصل بالبيئة ، ويصف الملبس، والمأكل، وأنواع الحرف التي يمتهنها أفراد المجتمع، ومدى مزاولتهم لها وكذلك عليه أن يتقرّب من نسوة ذلك المجتمع لتتعرفّ على مختلف النشاطات التي تقوم بها باعتبارها الخلية النشطة في بناء المجتمع بوقوفها إلى جانب أخيها الرجل لتسير القافلة الاجتماعية ، وبذلك يكون الرّحّالة قد نقل إلى القارئ مشاهد حيّة مصوّرا إيّاها أروع تصوير بشكل من الدّقة ، والإبداع حتّى يجعله يتخيّل تلك الظواهر الرائعة وتنطبع تلك الصور في ذهنه.

فعلى سبيل المثال لا الحصر كما تسدل نساء بعض المجتمعات خرقة على وجوههنّ تسمى البرقع وهي تتخلّل الممّرات والشّوارع وسط النّاس مكشوفة الرّأس لا يهمّها في ذلك سوى ستر الوجه، هناك أخريات في مجتمعات أخرى من يغطّين الوجه على غرار تغطية الجسد كلّه لا يظهر منه أيّ شيء.

وقد يتعرّض الرّحّالة إلى بعض الظّواهر الاجتماعية كالعلم، والتفقّه في الدين، أو الفقر، والغنى في بعض المناطق على حساب مناطق أخرى، أو إيواء أهل المجتمع للغريب، وحسن ضيافته، وقد يتحدّث الرّحّالة عن بعض البدع، وشدّة تعلّق الأهالي بها.

3 . البعد الثقافي:

وهو رصد لبعض جوانب حياة النّاس اليوميّة في مجتمع معيّن خلال فترة زمنية محددة لذا تعدّ الرّحلات أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراء لفكره، وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، إذن الرّحلة قديمة قدم الإنسان نفسه، إذ عرفها منذ العصور الغابرة، وإن اختلفت الدّوافع ، وتباينت الوسائل، وتنوّعت التّوجّهات الرّحلية مع اختلاف الشّخصيات من أجل وصف ثقافات المجتمعات، وأحوال الأشخاص الّذين اختلط بهم الرّحّالة لأنّ الرّحلة اختلاط، واكتشاف، وتعليم، وأخذ عبر، فيقول الفيلسوف الانجليزي " **فرانسيس بيكون** " في مقال له بعنوان السّفر: " إنّ السّفر تعليم للصّغير، وخبرة للكبير "[1]

ويقول الإمام الشيخّ " **حسن العطّار** " : " إنّ السّفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التّجارب." [2]

انطلاقا من كلّ ما قيل : فإنّ البعد الثّقافي للرّحلة هو عنوان لما يصفه الرّحّالة من ثقافات المجتمعات التي يزورها، ورصد لأحوال الأشخاص، وما يندرج تحت الأحوال اختلاف الأجناس والفئات لأن يجلس معهم ويحاول الكشف عن أسرارهم بدقّة ملاحظاته، وحنكة تأملاته.

4 . البعد الاثنوغرافي:

ويقصد به العادات والتقاليد والأعراف والمأثورات الشعبية لكل مجتمع من المجتمعات التي تحكم أفراده، ويقعون أسرى لها، لأنّهم يجدونها شيئا مقدّسا، على الفرد الالتزام بها، دون أن يناقش، أو يحاول الخروج عنها، إذن بما أنّها أعراف مجتمعه منذ أن فتح عينيه على الدّنيا، فرضت عليه، فعليه أن يمتثل لها، وينفّذها بحذافيرها، و يقوم بها على أكمل وجه.

وهذه الأمور يجدها الرّحّالة في المجتمعات الصّغير ة النّائية خاصة القبيلة، ولكون الفرد يتشكل عامة في إطار معيّن من التّقاليد، والعادات، والمأثورات الشّعبية الّتي ينشأ عليها، ويألفها ويتربى فيها، ويواظب

[1] . حسين فهيم . أدب الرحلات . عالم المعرفة . الكويت 1987 . ص 15

[2] . المرجع نفسه . الصفحة ذاتها.

عليها بشكل محتوم، تصبح بالنّسبة إليه ملازما لا يفارقه أبدا ، يحتاج إليها ليعيش حياته وتستمر، احتياجه للأكل والشّرب، إن لم أقل احتياجه للهواء الّذي يتنفّسه ليبقى حيّا على وجه الأرض، وهي بدوها أي هذه العادات تحتاج إليه حتى لا تندثر وتتلاشى ، وينقطع حبل ودّها، وتصبح كأنّها لم توجد من قبل.

فقد يسخر المرء من أسر وتكبيل بعض العادات والتّقاليد لمجتمع غير مجتمعه لأفراده دون أن يعلم أنّه قد أصابه ذلك أيضا فوقع أسيرا هو بدوره لعادات وتقاليد لا تقل عنها غرابة، وشذوذا عن تلك التي سخر منها، وتلك الأمور التي تسود حياة الآخرين، كما تدخل في نطاق اثنوغرافيا البلدان ، الاحتفالات والمناسبات، وما تقوم به أفراد ذلك المجتمع من تصرفات ومحادثات، حتى الأهازيج والأغاني ، التي يردّدها أصحابها، أنواع الموسيقى التي تعزف من أجل ذلك الاحتفال المقام، بالإضافة إلى ذكر الطّرائق الصّوفية كالقادرية والعيسوية، كلّ طريقة على حدا، وأبناء هذه الطّريقة يسمون العشيرة لها شيخها، والرّئيس المطاع يلجئون إليه في حلّ مشاكلهم، فيصلح بين الأزواج والمتخاصمين عامّة بإصدار أحكام نافذة لا رجعة فيها كما جاء ذلك في رحلة ابن بطوطة: " للعشيرة شيخ يصلح بين الأزواج ويعني بتزويج اليتيمات ".[1]

5 . البعد الانثربولوجي:

يعدّ الإنسان النّواة الحيّة لبناء المجتمع، والمحرّك الذي تدور حوله عجلة الحياة داخل المجتمع وهو المكوّن لأيّ مجتمع كان فبدونه لا يكون هناك ما يسمى بالمجتمع، لذلك على الرّحّالة أن يعتني به ويوليه كامل اهتمامه فعليه يعتمد ليجسد كل أبعاد رحلته، فيكوّن إلى جانب ذلك بعدا آخر جديرا بالمعاينة، ألا وهو البعد الانثربولوجي.

ونعني به وضع الإنسان وسط مجتمعه، وبين إخوانه، وخاصة مكانة المرأة، وكيف ينظر إليها الرّحّالة وكيف يصوّرها، وهي منشغلة بمستلزماتها داخل أسرتها، وما الظّروف المحيطة بها حتى تستطيع التّأقلم معها لتحافظ على بناء أسرتها، وتسيير أمور بيتها رفقة زوجها وأبنائها مع تأدية واجبها، والسّهر على راحتهم

[1] . حسين فهيم . أدب الرحلات . عالم المعرفة . الكويت . 1987 ص 24.

وبذلك يحدث الرّحّالة كشفا عظيما، أو دفعة قوية نحو نظرة الإنسان لذاته، ولغيره، كأن يتحدث الرّحّالة عن قاضي البلدة، أو إمامها، وعن الأعمال الموكلة إليه، وأهّم الانشغالات الّتي تحرّكه، فيصبح مهوسا بها لا ينام ليلا، ولا يهنأ نهارا إلا متى اهتدى إلى حل يرضي أفراد أمّته، شأنه شأن العسكري في الحرب الذي تلقى على عاتقه مهمة الحفاظ على أمن البلد، فيؤرّقه ذلك، والنّاس نيام مادام هو السّاهر على راحتهم وأمنهم.

وفي كل ذلك نظرة مستحبّة للإنسان، فيها الكثير من الاعتداء بالنفس والاعتزاز بها، والثّقة الكاملة بصورته، وأهميته، ودوره الكبير في العالم، والوجود، فالإنسان على اختلاف مستواه العلمي ودرجاته في التّحصيل المعرفي، والتّفكير الثّقافي، يمكنه أن يكون فنّانا، أو أديبا، أو شاعرا، أو إنسانا بسيطا ذو معرفة بسيطة بأمور الدّنيا فهو على كلّ عاشق للجمال أينما وجد سواء على مستوى الرّوح، أو على مستوى الجسد، يشترط في ذلك التّمسك بالمبادئ والقيم الفاضلة، والأخلاق الحميدة، والنّبيلة، يدفعه إلى بذل الجهد لإيجاد الخير ونشره بين النّاس دون تفرقة بين فقير وغني، وبالتّالي يكون ذلك الشّهادة الخالصة على بيان قيمة ذلك الإنسان، والبصمة الخالدة على إثبات وجوده، وتحقيق ذاته داخل ذلك المجتمع الذي ينتمي إليه، إذ هو النّواة المكوّنة والأساسية في بنائه، وإعلان شهرته بين الأقوام المجاورة.

6 . البعد النقدي:

نعني بذلك النّظرة المتأمّلة لما يجري داخل المجتمع، والمتمعّنة والمتفحّصة لأحوال أفراده، إما بالتّأييد حينا، أو بالمعارضة أحيانا، أو بالمحايدة أحيانا أخرى، فقد نجد الموافقة على ما نراه مناسبا لنا ومتماشيا مع أهوائنا ورغباتنا، وقد نجد المعارضة لما وجدناه مخالفا لما اكتسبناه من مجتمعنا.

وانطلاقا مما ذكر، فإنّ الرّحّالة يقف يشاهد، ويسمع، ويحسّ بالمختلف والغريب عن بيئته، فيصنّفه ضمن دائرة العجائبية، لأنّ واجبه يفرض عليه أن ينقل إلى القارئ ذلك المختلف الغريب، ويلزمه بإيصال الحقائق إليه مع توخي الحذر في إطلاق العنان لخياله فيضيف ما هو غير موجود، وإنما يكون ذلك من نسج خياله وعواطفه، وإنما لا يكون ذلك النّقل لمجرد النّقل فقط، بل عليه أن يتعرض إلى الاصطدام مع الواقع

فيندهش له، حينها يستوجب عليه المعارضة لأن ما صادفه غريب عن بيئته رآه لأول مرّة في حياته وإمّا بالموافقة لأنّ ما وجده يوافق ميوله ومبادئه وقيمه لا وجه للاختلاف بين ما ألّفه وما حصل عليه في أثناء رحلته عندها على كاتب الرحلة أن يرسم للمتلقي صورا من هذا الاتفاق والاختلاف معا، فهو يقف ناقدا ومنكرا لما يتعارض وثوابته لتي حصل عليها، أو منصفا ومؤيدا لما يتفق معها، فيما يتميز الآخر يدعوه ذلك إلى الثناء والإعجاب، فهنا يكمن دور الرّحّالة بشكل مهم ومهم جدا فيكون ذلك من خلال الدّفاع عن الذّات، أو نقد الآخر، فيصبح في مهمّة حضارية تحتاج إلى أديب ذي حسّ مرهف يختار عبارات كتاباته الرّحلية للتّأثير في النّفوس البشرية القارئة لها طبعا، ومتسما بموضوعية جادة مستوفية جميع نقاط شروط الكاتب الحق.

وخلاصة القول عن أبعاد الرّحلة، كما قال الدّكتور فؤاد قنديل:" فإنّ الرّحّالة قد جابوا كل الأرض المعمورة، في أزمانهم، ودونوا ملامحها الإنسانية، والاقتصادية، والمعمارية، والثّقافية، والجغرافية، وخدموا العلم كما خدموا الفتوحات الإسلامية خدمات جليلة، وحفزوا الخيال، وأعانوا الحكام، وفتحوا أمام طلاب العلوم والمعرفة آفاقا رحبة."[1]

الرّحلة جنس أدبي:

إنّ أدب الرِّحلات أو السّفرنامة كما سميت، نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتُعدّ كتب الرّحلات من أهمّ المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحيّة والتّصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية، ممتعة ومسلية. عدد كبير من الرّوايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمّى أدب الرّحلات، ذلك اللّون الأدبي الشّيّق، الذي يعدّ لونا فريدا من نوعه، جمع بعض خصائص القصّة والرواية والسّيرة الذّاتية، ويفيد من أدوات فنية كالصّورة، والقصّة مما يجعله ميدانا فنيّا ثريّا وغنيّا بكلّ ما تطمح له العين، وينشرح له الصّدر، بفضل ما غذّوها به أصحابها بروح الدّعابة والفكاهة، بحيث لا يمل القارئ لها عدّة مرّات متكرّرة.

[1] . فؤاد قنديل . أدب الرحلة في التراث العربي . مكتبة الدار العربية . القاهرة 1993 . ص 06.

والعائد إلى العصور الغابرة، والعميقة في أعماق التّاريخي الإنساني ، وكما تشير المصادر أنّ أول مصنّف هو "مصنّف إغريقي (هيرودوت) Hero Dotus قبل المسيح عليه السّلام الذي زار مصر وقبرص وفينيقيا، وأودع مشاهداته في هذه الرّحلات تاريخه الكبير." [1] وثاني مدون عن الرّحلات أو سفرنامة هند كما قيل: للرّحّالة الإغريقي ميكس تهنير سنة 330 قبل ميلاد المسيح عليه السّلام ويعد كتابه من الكتب الوثائقية المعتمدة لتاريخ وثقافة الهند في عصره." [2]

وفي القرن السابع الميلادي أوجد لنا الرّحّالة الصيني (هيون سانك) الذي قضى عمره الفترة الممتدة بين 630م إلى 645م في الهند وارتحل إلى أرجاء الهند، ثم دون مشاهداته.[3]

ونلتقي في القرن الثّاني للميلاد ببطليموس الإسكندري، وهو إغريقي الأصل، وقد ترك كتابين في الجغرافية والفلك، ونراه يدون وصفا مفصلا للبلدان والأماكن في عصره ذاكرا أطوالها وعروضها، ومبيّنا بالرّسم مواقعها.

ونلتقي في القرن السابع الميلادي بالرّحالة الصّيني (هيون سانگ) ، الّذي قضى من عمره الفترة الممتدة من 630م إلى 645م في الهند، وارتحل إلى أرجاء الهند، ثم دون مشاهداته في كتابه.

نشأة أدب الرّحلة في التراث العربي:

وأما نشأة أدب الرحلة في التّراث العربي فالباحث يجده مبثوثا غير مدون في أشعار العرب الجاهلية، يبين الرّحّالة فيه بعض المعلومات الثّقافية، ويُظهر مشاعر تختلج في قلبه بمشاهداته في أثناء الرّحلة.

وأجدر أن يعد في أدب الرّحلة ما روي في كتب الأحاديث عن هجرة النّبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، وهجرة أصحابه عليه الصّلاة والسّلام إلى الحبشة، وبعثاته صلى الله عليه

[1] . محمد رضي الرحمان القاسمي . مقال عن الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية) ـ مجلة الداعي الشهرية عن دار العلوم ـ أبريل 2013 . العدد 6 . 7.

[2] . المرجع نفسه. العدد نفسه

[3] . المرجع نفسه . العدد نفسه

وسلم إلى الملوك والسّلاطين. لأن المرويّ عن هذه تكشف لنا المعلومات الثّقافية والجغرافية والدّينية وغيرها.

ومن أدب الرّحلة في فجر الإسلام ما روي عن تميم الدّاري رضي الله عنه وهو والي رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض بالقرب من الخليل أحد أقاليم فلسطين، ويتحدث تميم عن رحلة له ببحر الشام، حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة مهجورة، رأوا فيها رأي العين المسيح الدّجال.

والباحث يجد مزيدا في التّراث العربي في ذلك العصر مثل هذه النّماذج لأدب الرّحلة مما روي في رحلة عثمان بن العاص الثّقفي إلى تهانه مومبائي، وفي رحلة العلاء الحضرمي إلى اصطخر .

العصر الوسيط (من القرن الثالث الهجري «القرن التاسع الميلادي» إلى بداية النهضة العربية)

هذا هو عصر النّضج والازدهار في أدب الرّحلة بشكل عام ولاسيّما في أدب الرّحلات العربي، وإسهامات المسلمين في هذا العصر في حقل أدب الرّحلات أكثر من غيرهم على الإطلاق.

ومن أشهر الكتب في أدب الرحلات العربي في هذا العصر:

القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)

كتاب الأقاليم، والبلدان الكبير، والبلدان الصغير، وأنساب البلدان: للغوي المؤرخ هشام الكلبي(ت حوالي 206هـ).

سلسلة التواريخ لسليمان التاجر، قام برحلات عبر المحيط الهندي و المحيط الهادي إلي بلاد الصين رجاء أن ينقل عروض الهند و الصين إلي البلاد العربية.

القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي

رحلة ابن فضلان: لأحمد بن فضلان، إن ملك البلغار طلب من الخليفة المقتدر بعثة، فترتّب عليه أن أرسل الخليفة سنة 309هـ/921م بعثة، جعل رياستها لابن فضلان. فقام بمهمته بشكل جيّد.

صور الأقاليم لأحمد بن سهل، أبو زيد البلخي(235 - 322هـ/849-934م)

كتاب البلدان: لقدامة بن جعفر

صورة الأرض: لمحمد أبو القاسم بن حوقل(ت 367 هـ/977م)[1]

عجائب البلدان: لمسعر بن مهلهل أبي دلف

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)

ـ تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني (ت 440هـ).

في منتصف القرن الخامس الهجري شهد أدب الرّحلة افتتاح صفحة جديدة من صفحات ذلك الكتاب الفريد، حيث احتل هذه الصفحة بعض رحالة وجغرافيي المغرب الإسلامي، إذ شرعوا في الدخول إلى هذا العالم، منهم أحمد بن عمر العذري، خلف لنا كتابا، سماه «نظام المرجان في المسالك والممالك»، وأكبر رحالة الأندلس في هذا القرن أبو عبيد عبد الله البكري (487هـ) وله كتابان: المسالك والممالك، و معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع.

القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

[1] محمد رضي الرحمان القاسمي . مقال عن الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية). مجلة الداعي الشهرية عن دار العلوم . أبريل 2013 . العدد 6 . 1.

يكاد هذا القرن ينافس القرن الرابع في حجم الإنجاز الكبير على صعيد الجغرافيا وأدب الرّحلة، وإذا كان القرن الرابع قد تميز بعدد الرّحّالة الكبير، فقد تميز القرن السّادس بقوة هؤلاء الرّحّالة وأهمية الآثار التي خلّفوها، والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات.

ومن أهم آثار هذا القرن:

ـ تحفة الألباب ونخبة الأعجاب لأبي حامد الغرناطي.

ـ المغرب عن بعض عجائب المغرب لأبي حامد الغرناطي.

ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي (560هـ) هو الذي وضع الخرائط لجميع أنحاء العالم المعمور آنذاك، وصمّم كرة من الفضّة صورة كافة تضاريس العالم.

. ترتيب الرحلات لأبي بكر العربي (ت 543هـ) الذي كان أول من استخدم لفظ «رحلة» في عنوان مؤلف، ويعتبر بهذا أول من وضع أساس أدب الرّحلات بالصّورة الفنية المأمولة.

ـ رحلة ابن جبير لأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت 614هـ) هو الذي اكتملت على يديه ملامح أساسية لأدب الرحلة العربي، حيث حرص على تدوين مذكراته ومشاهداته يوما بيوم، وتجنب ذكر الغرائب والعجائب التي يميل غيره إليها.[1]

ـ الاعتبار للأمير المجاهد أسامة بن المنقذ (ت 584هـ) رزقه الله عمرا فوق التسعين، وقضى كل عمره في السفر والحرب، وكان صديقا للقائد العظيم الأيوبي.

القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)

من أهم إنجازات رحالة هذا القرن:

[1] محمد رضي الرحمان القاسمي. مقال عن الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية). مجلة الداعي الشهرية عن دار العلوم. أبريل 2013. العدد 6. 7

. معجم البلدان (7 مجلدات ضخمة) لياقوت الحموي (ت 626هـ) هذا الكتاب منقطع النظير، ولا يزال من أهم المعاجم الجغرافية، التي يركن إليها.

. تاريخ المستبصر ليوسف بن يعقوب الدمشقي الشهير بابن المجاور (ت 569هـ)

. الرحلة المغربية لمحمد العبدري ،هذا الكتاب اشتمل على أدق وصف لبلاد الشمال الإفريقي.

القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)

من أهم كتابات أدب الرحلة في هذا القرن:

. مختصر تاريخ البشر لأبي الفداء (ت 732هـ)

. تقويم البلدان لأبي الفداء (ت 732هـ)، قد حظي الكتابان باهتمام خاص لدى مؤرخي العلم في أوروبا.

. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (ذروة أدب الرحلة العربي) لأبي عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، يعد كتابه أكثر كتب الرحلة إمتاعا وجاذبية، فضلا عن احتوائه على كم هائل من المادة الأدبية والجغرافية والاثنوجرافية.

. التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808م) كان تركيزه الأكبر على استعراض سيرة حياته، بينما شغلت رحلته المحل الثاني في الأهمية، مع ذلك فالكتاب يتضمن نصا جيدا في أدب الرحلة العربية، إذ وتنوعت وكثرت مخاطرها.

القرون إلى بداية النهضة العربية

(من القرن التاسع للهجرة إلي بداية النهضة العربية):

يمكن أن تسمي هذه الحقب من الزمان بعصر المفازة في مجال أدب الرحلة علي وجه الإطلاق بالنسبة إلي القرون المارة عليها منذ النشأة إلي نهاية القرن الثامن للهجرة.

و مرجعه إلي أن أوضاع العرب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية كلها كانت علي وشك التدمير و الضياع. بل تردت كلها من أوج المجد إلي حضيض الذل بشكل عام.

لهذا قلّت الرحلات طبيعيا غير أنها لم يركد معينها؛ بل جري جريانا كمثل دءوب حلزون. وظلت هذه الحالة مستمرة إلي عصر النهضة العربية.

أما من قام برحلات إلي الأمصار و البلدان في هذه الحالة المريضة فمن أشهرهم : عبد الغني النابلسي (ت 1143هـ/1731م) من فقهاء دمشق الحنفية. كان له يد بيضاء في النظم والنثر فضلا عن علوم الدين. له مؤلفات عديدة. أما كتابه في الرحلة فهو «الرحلة الحجازية». بالإضافة إلى ذلك هناك عدد قليل من الرّحّالة الّذين تعاطوا أدب الرّحلة حينئذ.[1]

العصر الحديث من بداية النهضة العربية إلى الآن (من مطلع القرن الثالث عشر للهجرة «التاسع عشر الميلادي» حتى الآن)

عادت الرّحلات العربية إلى البزوغ والازدهار من جديد في ثوب مختلف مع مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر الميلادي)

فا تصل العالم الغربي بالعالم العربي من جديد، وأخذ يتزايد مبلغ بعثات علمية من قبل العرب إلي العالم الغربي كثيرا.

توجهت رحلات العرب آنذاك إلي أورب ا بشكل خاص و عنيت كتبهم بوصف مناظر بلدان أوربة الطبيعية و ما ش كّل ذلك. ثم أعار العرب الاهتمام برحلات نحو الولاية المتحدة الأمريكية بشاطريه١، على جانب آخر ألقي بعض الرحالة العرب بالهم إلى التجوال في وسط أفريقيا و جنوبيها. هذا و قد اعتدوا بتطويف في الهند، والصين حتى لم يتركوا أي منطقة إلا وقد رحلوا إليها ووصفوها.

[1] محمد رضي الرحمان القاسمي . مقال عن الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية).مجلة الداعي الشهرية عن دارالعلوم أبريل 2013 العدد 6. 7

فأول من قام من العرب برحلة بالمعني الحقيقي للكلمة في هذا العصر الحديث محمد عمر التونسي سنة 1903م و ألف كتابا في رحلته عنوانه «شحذ الأذهان».

و أيضا اشتهر حينئذ فيما يخص الرحلة الطهطاوي. و كتابه في هذا المجال هو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

فمن أشهر الرحالة في العصر الحديث محمد فريد الذي سافر إلى الجزائر و تونس و فرنسا كتابه في هذا المجال هو «من مصر إلى مصر».

و عبد العزيز الثعالبي الذي رحل إلى العالم الإسلامي كله طوال ثلاثين عاما. وذكر مشاهداته ومشاعره في «مذكراته» ، وهناك نوع آخر من الرحلات، خصصها أصحابها لزيارة بيت الله الحرام فحظيت بعناية خاصة بالغة الأهمية من قبل العلماء والرحالة والمؤرخين عبر مراحل التاريخ الإسلامي ولقد تجلى ذلك في كثرة ما دار حولها من المؤلفات منذ وقت مبكر إلى وقتنا هذا ولا مراء في أن موضوع رحلة الحج في كتابات وعيون الرحالة والمؤرخين شاسع وواسع ومتعدد الجوانب حيث تمثل رحلة الحج حجر الزاوية.

ومن الكتب التي دونت وصنفت ضمن باب الرحلات بعضها كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط، وبعضها كتاب رحلة عامَّة ضمَّنها مؤلفها حديثاً عن رحلته إلى الحج والحجاز.

1- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار لابن جبير (كتاب رحلة عامَّة ضمَّنها مؤلفها حديثاً عن رحلته إلى الحج والحجاز.) قد قام برحلته إلى الحجاز 579هـ.

هي رحلة جليلة، فيها لمسات أدبية جميلة، وليس في رحلته إلا مؤاخذات خفيفة، كعده أنه لا إسلام صحيحا إلا في المغرب.

2- ملء الغيبة بما جمع بطول الغيبة للشيخ ابن رُشيد الفهري (كتاب رحلة عامَّة ضمَّنها مؤلفها حديثاً عن رحلته إلى الحج والحجاز). قد قام برحلته إلى الحجاز 684هـ..

رحلته جميلة جليلة، فيها عدد من المسائل الفقهية، وفيها وصف للحرمين جميل لطيف،وفيها اعتناء بمسائل الأدب، وفيها تراجم لجمع غفير من أهل العلم.

3- مستفاد الرحلة والاغتراب للشيخ قاسم بن يوسف التُجيبي (كتاب رحلة عامَّة ضمَّنها مؤلفها حديثاً عن رحلته إلى الحج والحجاز). قد قام برحلته إلى الحجاز 696هـ..

وهي جليلة أيضا، من أهم ما جاء في هذه الرحلة إظهارها بوضوح مدى الصعاب الجسيمة التي يتجشمها راكب البحر في ذلك العصر. فيها الكثير من القصص، وشيء يسير من التصوف.

4- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة (كتاب رحلة عامَّة ضمَّنها مؤلفها حديثاً عن رحلته إلى الحج والحجاز) قد قام برحلته إلى الحجاز 726هـ.

رحلته أشهر الرحلات مطلقا، وأسلوبه معروف، فهو يكثر من سوق الحكايات ويتوسع في ذكر التراجم.

5- ماء الموائد للعياشي (كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط.) قد قام برحلته إلى الحجاز 1072هـ..[1]

هي رحلة مفيدة شاملة لكثير من تفاصيل الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية في الحجاز، ويعدها بعض المعاصرين أوفى الرحلات وأكثرها فائدة على الإطلاق.

6- الرحلة الحجازية للشيخ عثمان بن إبراهيم السنوسي، قد قام برحلته إلى الحجاز 1299هـ..

هي جزء من رحلة طويلة، زار أثناءها المصنف بعض دول أوربا، فيها تفصيلات عن وضع الحجاز العلمي والديني والسياسي، وللمصنف إلمام حسن بعلم التاريخ، وهو متمكن من ناحيتي الفقه والأدب.

[1] محمد رضي الرحمان القاسمي . مقال عن الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية). مجلة الداعي الشهرية عن دار العلوم أبريل 2013 العدد 6. 7

7- مرآة الحرمين للواء إبراهيم رفعت باشا: (كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط).

قد حج المصنف أربع مرات، فجعل رحلته الأولى سنة 1318هـ. أصلا، ثم أضاف إليها معلومات مهمة، استقاها من رحلاته الثلاث التي قام بها بعد ذلك.

هي رحلة ضخمة من أهم الرحلات، ولقد زاد في قيمتها احتوائها مئات الصور الشمسية لجدة ومكة والمدينة والمشاعر، وفي الكتاب تفصيل واف كاف عن كل ما يتعلق بالمناسك تاريخا وواقعا، وفيه وصف كامل لمكة والمدينة، وفيه مسائل فقهية وتاريخية كثيرة، وكل ذلك في ثوب أدبي ممتع.

8- الرحلة الحجازية للأستاذ محمد لبيب البتنوني (كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط). قد قام برحلته إلى الحجاز 1327هـ..

في الرحلة حديث مطول عن الحرمين تاريخا وفقها وسياسة واقتصادا، وفيها حديث عن تاريخ الحج في الإسلام وعند غيره من الديانات والشعب.

9- ما رأيت وما سمعت لخير الدين الزركلي (كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط). قد قام برحلته إلى الحجاز 1339هـ..[1]

هذه الرّحلة على قمة البلاغة والقوة الأدبية، وزار المصنف الطائف. فوصفها وبواديها وبساتينها وأهلها وصفا مفصلا شاملا.

10- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف للأمير شكيب أرسلان (كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط). قد قام برحلته إلى الحجاز 1348هـ.

ذكر في هذا الكتاب جوانب تاريخ مهمة عن الجزيرة العربية، وذكر طرقها ومعادنها وهوائها وزار الطائف، فوصفها وصفا مفصلا شاملا.

[1] . محمد رضي الرحمان القاسمي . مقال عن الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية). مجلة الداعي الشهرية عن دار العلوم أبريل 2013 العدد 6. 7

وكتب هذه الرحلة بأسلوب بليغ جزل رصين، أتى فيه أحيانا بكلمات غريبة جريا على عادته.

11- في منزل الوحي للدكتور محمد حسين هيكل (كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط). قد قام برحلته إلى الحجاز 1355هـ..

هي من أطول الرحلات وأكثرها فائدة، فقد جمعت تقريبا كل الفوائد التي ذكرت في الرحلات السابقة، وهذا الحج يعد تحولا في حياة الدكتور الذي كان بعيدا عن الفكر الإسلامي.

وإذن بذور الكتابات الرّحلية غرست منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض، وبال رغم من التباين الكبير فيما بين هذه المصنفات في مختلف المجالات، إلاّ أنّ الفكرة التي تجمع فيما بينها هي فكرة الرحلة نفسها، الرحلة الزّمنية أو المكانية أو النفسية ، من أول ما بدأت الكتابة في فن أدب الرحلة إلى العصر الحديث، إلاّ أنّ صداها لا يزال يؤثر على المستويين الفكري والأدبي، حيث كانت الكتابة في هذا اللون من أوائل من كتب عن الحضارة الغربية بعد ارتحالهم إلى أوروبا، وبفضل هؤلاء استطاع النّص الرّحلي أن يخرج من دائرة التهميش التي وضع فيها هذا الأدب عند العرب، مما حدا بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب:" خير رد على التّهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة." [1] أي خرج هذا الفن من التسليم بالقول بأنّ الرحلة :"تراكم لمجموعة من المعارف تتجلى من البنى المحددة لها كبنية السّفر، وهي القطب الجاذب والأساس في الرحلة، وعليها يدور ما يكتب."[2]

ويمتاز فن أدب الرحلة بتنوع الأسلوب الذي يحمل فن السرد القصصي تزاوجا مع الحوار إلى الوصف وغيره، كل هذه الأمور جلت منه طبقا فنيا مقبلاته المتعة الذهنية الكبرى. " فالنّص الرّحلي يمتلك بنية مشدودة إلى مرجعيات عديدة جغرافية، وتاريخية، وشعرية، ونثرية، وأدبية، وغير أدبية ولسانية، وخطابات مختلفة تتأجّج بين الواقع والمتخيل، وبين الأدبي والعلمي بين السردي والتقريري

[1] . حسن محمود حسين . أدب الرحلة عند العرب . المكتبة الثقافية . القاهرة . ص 24.

[2] . اسماعيل زردومي . فن الرحلة في المغرب العربي . رسالة دكتوراه . كلية الآداب والعلوم الإنسانية . قسم اللغة العربية . جامعة الحاج لخضر . باتنة 2005 . ص 10 .

فهو متعلق لكل الأجناس، ومنفتح على كل الخطابات لكنّه في الوقت ذاته متمرد عليها مقدس لاستقلاله."[1]

وهذا الشيء المهم في أدب الرحلات، أو الشيء الذي جعله ينفرد بكونه أدبا متميزا لا يشبهه أي جنس أدبي آخر له خصوصياته وسماته الخاصة به، فقد رأى أحد الباحثين، بل راح يؤكد أنّ أدب الرحلة هو أب الآداب كلها، فقال:" إذا كان التمثيل المسرحي أب الفنون، فإنّ أدب الرحلات في رأيي هو أبو الآداب لأنّه يحوي ألوان الفنون، وفنون الأدب."[2]

ولهذا السبب فقط نجد المصنفات في ميدان الرحلات وأدبها تحتل مركز الصدارة في مكتبتنا العربية نظرا لأهميتها التاريخية والأدبية والجغرافية، وكثر قراءها لما تحمله من أشياء مشوقة فيها الكثير من المتعة التي يبعثها اكتشاف الغريب والعجيب فيها، فضلا عن روح الدعابة والمتعة.

[1] . عبد الرحيم مؤذن . الرحلة والمفهوم والجنس الأدبي . مقال بتاريخ 14 / 12 / 2011.

[2] . عبد الله بن أحمد بن حامد رسالة ماجستير(أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية) جامعة أم القرى في الأدب إشراف د/ محمد صالح جمال بدوي 1997 ص 05.

الفصل الأوّل:

صورة الجزائر في عيون الرحالة العرب

المبحث الأول: الرحالة الجزائريون (الحنين والشوق)

يشكّل الحنين والشّوق نوعا من المعاناة التي ما فتئ الرّحّالة يكتوون بنارها، فراحوا يعبّرون عن آلامهم في صور شتى، ومن ذلك الحنين والشّوق إلى الدّيار ، إلى مسقط الرّأس، فالحنين إلى الوطن فطرة فطر الله الإنسان عليها، فهو متعلّق بوطنه، متشوّق إليه، وخاصّة إن كان الابتعاد للضرورة القصوى، لأنّه لو كان عن طيب خاطر لما فعل ذلك، ولكان التّردد هاجسه في اتخاذ القرار حيث أنّ الله سبحانه وتعالى ربط بين القتل وم غادرة الوطن في قوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾ [1]

وهذه الآية تشرح ما في الابتعاد عن الأهل والأوطان من لوعة الفراق وألم المعاناة، ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: إن قتل النّفس والخروج من الدّيار سيّان"[2]

وإن كان الإنسان العادي يعجز عن وصف تلك المعاناة بالرّغم من إحساسه بها فإنّ الأدباء لن تخونهم الملكة الأدبية ع ن وصفها، وتصويرها أدقّ الوصف، وأصدق التعبير لما أوتوا من حس مرهف وقدرة تعبيرية، فقد قيل:"من علامة الرّشد أن تكون النّفس إلى أوطانها تواقة، وإلى مولدها مشتاقة."[3]

إنّ هؤلاء الرّحّالة الّذين يتهافتون رقّة وحنانا إلى بلدهم وهم يهمون بالمغادرة فتفيض أعينهم دمعا وهم يودّعون الأهل والخلاّن، فمهما كانت أسباب الابتعاد عن الدّيار إلاّ أنّ هاجس العودة إليها لا يفارقهم، ومهما طال الزّمن أو قصر تجده دائم الحلم، والتفكير في العودة إلى الوطن، ومعانقة

[1] ـ سورة النساء . الآية 66 برواية حفص.

[2] ـ سيد قطب في ظلال القرآن . ج1 . ص 697.

[3] ـ عبد الله بن أحمد بن حامد رسالة ماجستير(أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية) جامعة أم القرى في الأدب إشراف د/ محمد صالح جمال بدوي 1997 ص 68 عن المحاسن والأضداد ص 122 . 123.

الأحباب والأصحاب، فطالب العلم عيناه على الكتاب لكن عقله وقلبه متعلقان بالوطن، والباحث عن لقمة العيش يداه تجمعان الأموال وه و دائم التفكير في العودة إلى الديار، والسّائح المتجول عيناه على ما رأى من مناظر خلاّبة إلاّ أنّه يرى كل ذّلك في وطنه بخياله حتى ممكن أن يحدّث نفسه قائلا : يوجد أحسن من ذلك في بلدي حينها يتمنّى لو يركب في اللّحظة ذاتها محلّقا عائدا إلى وطنه وأهله فمهما بعد الإنسان، إلاّ أنّ آماله وطموحه في العودة يوما لا يفارقانه، فهو لا يرضى بديلا عن تراب بلده يلطخ به قدماه في فرح وسعادة كما لا يرضى عن أهله وناسه الذين ألف العيش وسطهم غيرهم، ولن تغنيه كل المكتسبات عن أرضه وأحبابه وفي ذلك يقول الشاعر:

بِلَادِي وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيزَةٌ وَأَهْلِي وَإِنْ ظَنُّوا عَلَيَّ كِرَامُ

كذلك البيت الشعري الذي يترجم وقوف الشاعر إلى جانب قبيلته مهما كانت الظّروف، ومهما كانت العواقب، باعتباره لسانه المدافع عنها في الحرب، أو السّلم، وأعني قول دريد بن الصّمة:

وَمَا أَنَا إِلاَّ مِنْ غُزَيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أَرْشُدِ [1]

ويتّضح من خلال هذه الأبيات أنّ البعيد عن الوطن يعيش الغربة، ويتملّكه الحزن، وتعتريه الكآبة وإن توفرت لديه كل سبل الرّفاهية ، فالمغترب والبعيد عن الدّيار كمن كان في أشد الحاجة إلى الماء وبقربه بحر لا يجود بالماء، وفي ذلك أورد رائد الرّحلة في العصر الحديث رفاعة الطّهطاوي بيتين من الشعر قائلا: قال بعضهم:

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ أَزْهَرِ الْعِلْمِ فَلْيَنُحْ عَلَى بُعْدِ دَارِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ

فَفِيهِ بُحُـــــورٌ طَــامِيَّاتٌ، وَغَيْرُهُ بُحُــورُ عَرُوضٍ لاَ تَجُودُ بِالمَاءِ [2]

[1] ـ دريد بن الصمة . الديوان . تحقيق عمر عبد الرسول . دار المعارف . بيروت . ص 62

[2] ـ رافع رفاعة الطهطاوي . تخليص الإبريز في تلخيص باريز . دار كلمات هنداوي . القاهرة . 2012 . ص 10.

فالرحالة لا يمكنه نسيان البلد الّذي تربّى في أحضانه وترعرع في كنفه فهو بتلك البلاد الغريب عنها يعيش في حنين وشوق دائمين إلى كلّ ركن، وإلى كلّ زاوية، وكلّ شبر في وطنه، فنجده يبلغ سلامه مع كل من يزور أرضه ووطنه مع الطّير إن لزم الأمر، محمّلا إيّاه أشواقه ولوعة فراقه إلى كلّ من يعرفونه أو غير ذلك، إلى كل بقعة في وطنه ، وباعثا معه سيلا من الدّموع يسقي به تراب بلده، باثّا إيّاها كلمات تعبر عن مدى شوقه، وكبر اشتياقه لها، فكما يقول أبو مدين شعيب الغوث * في اشتياقه لأحبابه الّذين لا ينساهم أبدا مهما أبعدته المسافات، ومادام على قيد الحياة:

لَسْتُ أَنْسَى الْأَحْبَابَ مَا دُمْتُ حَيًّا مُذْ نَأُوا لِلنَّوَى مَكَانًا قَصِيًّا

وَتَلُوا آيَـــةَ الْـوَدَاعِ فَخَـــرُّوا خِيفَةَ الْبَيْنِ سُجَّدًا وَبُكَيًّـا

وَلِذِكْرِكُـــمْ تَسِيحُ دُمُوعِـــي كُلَّمَا اشْتَقْتُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا [1]

وهذا أحد الرّحّالة البعيدين عن الجزائر الّذي يرسل ويبعث ما يعانيه، ويبثّها همومه، وهموم الغربة فجسده هناك وعقله وتفكيره، وأحاسيسه، ومشاعره كلّها مع بلاده الجزائر، وهناك رحّالة آخرون يجوبون الجزائر، وهم أبناؤها، يصفونها شبرا، شبرا، أو يصفون كلّ ما تقع عليه أعينهم، فبداية بالرّحالة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، والذي يصور ما تحفل به بلده الجزائر من خلال رحلته، إذ يقول في بعض عادات أهل الجزائر فيما يتعلق بزينة النّساء، ويقارنها بزينة نساء "فاس" * فيقول في ذلك: " زينتهم بثياب ملبوس النّساء، يعلقون القفاطين والمحارم وغيرها من خروم حرير وما تيسر"[2].

وفي هذا القول يبدو الرّحّالة يعيش شوقا وحنينا إلى بلده، لأنّه موجود ببلد آخر ويصف ما رآه وما تتزين به نساء فاس، وهنّ في فرح، لكنّ خياله لا يفارقه ما تتزين به نساء الجزائر بلده، حيث راح يؤكد ما يحس به من آلام الفراق بقوله: "إنّ البلاد فرحت كلّها وازينت يوم الخميس ....بخلاف زينة بلادنا"[3].

[1] ـ أبو مدين شعيب . الديوان من خزينة التراث الشعبي . نشر ابن خلدون . تلمسان 2007 . ص 26.

[2] ـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري . رحلته المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال . تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله . ج 2 . المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية أ الجزائر 1983 ص 94.

[3] ـ المرجع نفسه . ص ذاتها.

إذن نستشفّ من العبارتين أن الرّحّالة كائن بالغربة إلاّ أنّ ذاكرته لا تزال في موطنه، فمباشرة بعد رؤيته لتلك النّسوة بتلك الزّينة في ذلك الفرح ربط منظرهنّ بنساء بلده، وفي ذلك لوعة فراق وألم وحنين وتأوه وشوق إلى الوطن الأم.

وكما ذكر الرّحّالة زينة النّساء، انتقل إلى لباس الرّجال قائلا فيه:" رجالها لا يتعمّمون إلاّ القليل بخلاف رجالنا "[1].

ويضيف الرّحّالة بن حماد وش الحديث عن حنينه وشوقه للأرض الوطن حينما ضاق به الحال فكسدت سلعته، وهو بعيد عن بلده حيث كتب في ذلك قصيدة في الحنين إلى أهله قائلا:

أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِّيَّارِ صَبَابَةً نُوَاحَ الثَّكَالَى تَحْسِبُونِي جَمِيــلُ

أَيَا مَرْكَبًا فَرَّقْتْ بَيْنِي وَبَيْنَهَــا يَغِيضُ عَلَيْكَ الْمَاءُ حَيْثُ ثَقِيلُ[2]

وممّا زاد في لوعة الرّحّالة وإحساسه بأسى الفراق تلك الأم الحنون التي طال انتظارها له فبعث إليها برسالة يحدّثها فيها عن اشتياقه لها ويشكو إليها حجم المعاناة التي أرّقته ، وقضّت مضجعه كان موضوعها حنينه وشوقه العظيمين قائلا فيها:

أَيَا أُمَّ عَبْدٍ صَبْرِي تَصَبَّرِي وَأَيْقِنِي أَنِّي عَلَى الْأَمْرِ جَرِي

لَكِنْ مَا قُدِّرَ لَا يَكُــونُ سِوَاهُ، فَأَرْضِي بِهِ يَهُــــونْ

وَبِي كَأَلْفِ مَا بِكِ مِنَ الْأَسَى وَلَيْسَ لِي بِدَفْعِهِ مِنْ مُؤْنِسِي[3]

[1] ـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري. لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. ص 108

[2] ـ المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] ـ المرجع نفسه. ص 109.

تشير الأبيات إلى أنّ الرّحّالة يعيش شوقا كبيرا إلى أهله وأرض وطنه، وما باليد حيلة، ويوصي نفسه بالصّبر مخاطبا والدته التي تعيش ألم فراق ابنها وأنّه ما عليهما بالصّبر، فالأسى الّذي تعيشه والدته، هو الأسى الذي يعيشه الرّحّالة، بل أضعافا مضاعفة، ولا سبيل إلى التّخلص من ذلك إلاّ بالصّبر.

ويواصل الرّحّالة الحديث عن الحنين والشّوق إلى الوطن الجزائر وذلك من خلال مقارنته بين عادات وتقاليد أهل بلده وأهل مدينة فاس ـ تلك الأعراف المتّبعة التي لا ينبغي لأيّ فرد من أفراد المجتمع أن يحيد عنها ـ فيما يخصّ عادة المولد النّبوي الشّريف قائلا: " لقيت الضّالين ، والعيّاطين وآلات الطّرب كلّها في السّوق، ذاهبين بأربعة قباب من شمع، كلّ واحدة من لون أحدها خضراء وأخرى بيضاء، وأخرى حمراء، والرّابعة نسيت لونها، أحفّ مما يجعل في الجزائر عندنا".[1]

فالرّحّالة في هذا المقتطف من رحلته وحديثه عن عادة المولد النّبوي الشّريف ـ عادة كلّ الأمة العربية المسلمة ـ عند أهل فاس تمرّ بمخيّلته العادة نفسها عند الجزائريين، هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على حنينه وشوقه إلى وطنه الّذي لا يفارق عقله أبدا ، وهو بديار الغربة، وما زاد في معاناته وآلامه، إصابته بالحمّى وهو بعيد عن أهله وأحبابه وخلاّنه، فما أحوج الإنسان وهو يصارع المرض إلى يد تربّت عليه لتنسيه ما هو فيه، حيث يؤكّد الرّحّالة ذلك بقوله: " ثم منعني المرض، كانت إصابتي حمّى شديدة فلم أستطع القراءة".[2]

ثم إنّ الرّحّالة ينتظر بفارغ الصّبر العودة إلى الوطن، لأنّ غيابه عنه قد طال، وهو بعيد عنه يقاوم الصّعاب والمخاطر، فأيّ شيء يلاقيه خارج بلده يعدّه الرّحّالة مشكلة وعرقلة حيث يواصل حديثه

[1] ـ عبد الرزاق بن حماد وش الجزائري. لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. ص 84

[2] ـ المرجع نفسه. ص ذاتها.

وهو يتأهّب للرّجوع: " لما وصلت إلى المرسى على دابّتين ودابّة للرّكوب بعشرين موزونة أخذ من يدي صاحب المرسى، وأخذ أربع موزونات، واكتريت على ما عندي ستّة عشر موزونات".[1]

كما أنّ اليوم الّذي كان فيه الرّحّالة يستعدّ للخروج من المغرب، وشدّ الرّحال نحو الجزائر كان الجو رذاذا، وخاف ومن معه أن يظلّوا الطّريق دون رؤية بلده، وعدم اكتحال عينيه برؤية أحبابه وأهله الّذين طال انتظارهم له ، فالغربة صعبة وفقدان طريق العودة أصعب وأمرّ، لا شيء أقسى من أن تعقد العزم إلى العودة فتعدم الوسيلة، حيث في هذا الشّأن يقول الرّحّالة: " كان يوم رذاذ فغاب عنا المركب وظننّا أنّنا ضللنا حتى رميت مكحلة فسمعها أهل المركب فدقّوا لنا فتوجّهنا نحوهم فرأينا المركب رمية بحجر فطلعت وبت فيه، وحمدت الله على خروجي من المغرب".[2]

وأخيرا تنفّس الرّحّالة الصّعداء بعد أن وطئت قدماه أرض الجزائر، وكم كانت فرحته عظيمة حين بشر بأنّه رزق بمولودين توأمين هما الحسن والحسين حيث قال:" ونزلت في حيني ودخلت داري في أول السّاعة الثّانية، فوجدت عندي ولدين سيّدي الحسن، وسيّدي الحسين. ولدتهما زهرا زوجتي توأمين".[3]

ويضيف الرّحّالة واصفا فرحته وبهجته وهو بأرض الوطن، بين أحضانها، وبين الأهل والأحباب يحضر معهم أفراحهم ويشاركهم أحزانهم، ومن ذلك ختان ابنيه قائلا: " في يوم الجمعة لقيت حجّاما فأخذته معي إلى داري وظننت أنّ ابني لا يعرفه، فدخلنا الدّار وقلت له اصعد مع عمّك للعلوي ففرّ إلى خارج الباب فاتبعته أنا والحجّام".[4]

[1] ـ عبد الرزاق بن حماد وش الجزائري. لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. ص المرجع نفسه. ص113.

[2] ـ المرجع نفسه. ص نفسها.

[3] ـ المرجع نفسه. ص 114.

[4] ـ المرجع نفسه. ص 118.

كما يضيف الرّحّالة حديثه عن عادة الجزائريين في ليلة القدر من كل شهر رمضان وطريقة قراءة صحيح البخاري، وما الأعمال التي توجب عليهم والقيام بها، من الأئمة الّذين يقومون بقراءته، وكلّ ذلك ذكره في رحلته قائلا:" وعادة متوّلي الجامع الكبير يفرغ قنطار أو أكثر شمع يفرّقه على ثلاثين شمعة خضر ما بين الثّلاثة أرطال إلى الأربعة في كلّ واحدة."[1]

ويؤكّد ذلك في قوله عن تلك المراسيم الخاصّة بتلك العادة:" أحد الموقتين ينشد ويرفعون أصواتهم بالصّلاة والسّلام على النّبيّ حتّى إذا دخلوا المسجد وزنوا ذلك وركبوهم في حسك من عود وأشعلوهم مع ما يكثرون من قناديل القوارير."[2]

ويستمرّ الرّحّالة في كلامه عن قراءة صحيح البخاري وما يلي ذلك دون انقطاع:" فإذا قرب الفجر أوتروا وقرءوا ما تيسّر من الفواتح." [3] إلى أن يصل الرّحّالة إلى آخر ما يقوم به الجزائريون في هذه اللّيلة المباركة قائلا: " ثم يسكتون ويشرع الإمام في الدّعاء المعدّ لذلك، وهو الحمد لله حمد معترف بذنبه الخ ، فيقرؤون من الفواتح ما تيسّر، كلّها برفع اليدين ثم ينصرفون."[4]

ويسترسل الرّحّالة في حديثه دائما عن تلك العادة:" هذه عادة الجزائر دائما، فيذهب النّاس إلى خارج باب الواد قبر سيّدي عبد الرحمان الثعالبي، نفعنا الله ببركاته، فيحضرون ختم البخاري أيضا ويتهيؤن للعيد."[5]

كما يتبرك الرّحّالة بعلماء الجزائر الأجلاء وشيوخها الفضلاء (ابن باديس) * وإنّما أشار إليه في رحلته أنّه بعث إليه بلغز، فلم يحصل على أيّ جواب من فقهاء الجزائر، إلاّ أنّ الرحالة بن حماد وش

[1] ـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري. لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. ص المرجع نفسه. ص 125 .

[2] ـ المرجع نفسه. ص ذاتها.

[3] ـ المرجع نفسه. ص ذاتها.

[4] ـ المرجع نفسه. ص ذاتها.

[5] ـ المرجع نفسه. ص نفسها.

* ـ هو بركات بن باديس القسنطيني شيخ أحمد البوني من أهل القرن الحادي عشر صاحب تأليف " مفتاح البشارة في فضائل الزيارة"

كاتبه بجواب، إلاّ أنّ الشّيخ ردّ عليه أنّه لم يفهم الجواب، ويقول في ذلك الشّأن:" وقد كان شيخنا ابن باديس أيّده الله بعث بلغز إلى الجزائر فلم يحصل من فقهائها على جواب عنه"[1].

ثم بعد ذلك يربط الرّحّالة بين المغرب وتونس والجزائر في لقاء حاكم البلد الأول وحاكم البلد الثاني في الجزائر: اجتمع حاكم تطوان وحاكم تونس هنا وصلّوا في المسجد الكبير." [2]

ويتواصل الحنين والشوق إلى الوطن الأم الأولى، فالرّحّالة إن وصف بلاده يقارنها بحال البلدان التي زارها من قبل، وهو لا يكاد يمضي في وصف ما يراه في البلدان التي زارها إلاّ وتحضر في ذهنه صور من وطنه، فهكذا تبقى وستبقى صورة الوطن راسخة في أذهان الرّحّالة سواء أكانوا داخل أوطانهم أو خارجها وستكون كذلك مع الرّحّالة عبد الحميد بن باديس حيث كانت رحلته الأولى سنة 1929م والتي شملت مدنا في الجهة الشّرقية من الجزائر وعنونها ب: " للتّعارف والتّذكير".[3]

فيتّضح من عنوان الرّحلة أنّ صاحبها كانت مهمّته التّذكير بما ينتظر المؤمنين يوم القيامة وما عليهم القيام به في دنياهم لاستقبال آخرتهم لقول الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]

فلا يخفى على أحد أنّ الإمام ابن باديس رجل دين وعلم ، فهو القدوة في سلوكه، والصّدق في أقواله، ممّا يعكس قدرته على التّأثير في النّفوس وحجّته في الإقناع ليلقى حسن الاستجابة، يقول ذلك عن نفسه: " ما حللت ببقعة إلاّ والتفّ أهلها حولي يسألون ويسألون في هدوء وسكون".[5]

[1] ـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري. لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. ص 131.

[2] ـ المرجع نفسه. ص 134.

[3] ـ المرجع نفسه. ص نفسها . نشرت بمجلة الشهاب في حلقتين اثنتين: الحلقة الأولى في ج 7 م 5 الصادر في أول ربيع الأول 1348 هـ / أوت 1929 م.

الحلقة الثانية في ج 9 م 5 الصادر في أول جمادى الأولى 1348 هـ / أكتوبر 1929 م ص 297 . 305 من كتاب ابن باديس آثاره وحياته ج 4 إعداد وتصنيف عمار طالبي مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ط 1 الجزائر 1388 هـ / 1968 م

[4] ـ سورة الداريات. الآية 55، برواية حفص.

[5] ـ عمر بن قينة. اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة ص 27 أ عن ابن باديس. آثاره وحياته ج 4 ص 297.

إذن لقد فاز العلّامة الرّحّالة ابن باديس بقلوب محبّيه ، واحتشدت الجماهير من حوله يستفسرون عن كل ما يهمّهم في أمور الدّين والدّنيا ، ليسهل أمامه مواصلة مشواره منطقة ، منطقة وقرية، قرية لذا زار الرّحّالة مناطق عديدة من شرق الجزائر أبرزها قرية الحروش (عزّابة) سكيكدة العلمة، مجاز الدّشيش، سيدي مزريش، عين مليلية، أم البواقي، عين البيضاء، فمسكيانة)[1]

و بما أنّ الرّجل، رجل دين وعلم، وكما جاء في عنوان رحلته" للتّعارف والتّذكير" فلا شكّ في أنّ رحلته كانت من أجل دعوة النّاس إلى الحفاظ على الدّين الإسلامي والنّهوض به ، وتهيئة الأوضاع من أجله حيث يقول في رحلته:"القرية تقتضي جامع جمعه، فذكّرناهم في شأنه واتّفقت كلمة الجمع "[2]

ثمّ بقرية عزّابة يخصص ابن باديس موضوعا بعد صلاة الظّهر عن تكبيرة الإحرام والسّلام، وبعده محاضرة تركّز على آيات قرآنية وخاصة الآية القرآنية : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[3]. يدعو فيها إلى الوحدة والتّآزر والتّعاون قائلا: " ذكّرناهم بإتمام ما كانوا وضعوا أساسه من بناء جامع الجمعة "[4]

وبعد مدينة عزابة شد الرحالة ابن باديس الترحال نحو مدينة سكيكدة ، ودائما في رحلة التّذكير حيث كان ذلك بحانوت بلدي ، اتّخذه الرّحّالة بن باديس ناديا للقاءاته بالنّاس، يستقبلهم فيه ويجيب عن تساؤلاتهم ويحثهم ويرشدهم وينصحهم بضرورة التّمسك بالدّين الإسلامي ، حيث جاء في الرّحلة قوله: " يستقبل جميع طبقاتهم للسّؤال وسماع التّذكير".[5]

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . الصفحة 27

[2] ـ المرجع نفسه . ص نفسها . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص 297

[3] ـ سورة الحجرات الآية 10 برواية حفص.

[4] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 28 . عن ابن باديس " حياته وآثاره " ج 4 ص 298.

[5] ـ المرجع نفسه . ص 29 . عن ابن باديس " حياته وآثاره " ج 4 ص 299.

ثم يواصل الرّحّالة مسيرته الإرشادية والوعظية في دروس مكثّفة، يستقبل فيها النّاس، وكان ذلك بمحطّته الموالية مدينة العلمة، لا يأبه ابن باديس لمكان اللّقاء بأولئك المتعطّشين للعلم، الظمآنين لدروس الأدب والفكر ، فكل ما يهمّه هو نصح النّاس وإرشادهم إلى طريق الصّواب وجدّيته وخاصّة ما يتعلّق بالدّين الإسلامي ودروس الفقه المنجية من عذاب يوم الآخرة حتى ولو كان ذلك بسوق مثلا: " في مجلس عام بالسّوق" [1] .

أمّا بمدينة (مجاز الدشيش) وبعدها قرية سيدي مزغيش حيث هبّ الناس إلى لقائه حين شاع نوره في البلدان، فتعدّدت جلسات الوعظ والتّذكير ، وتكثّفت لقاءات الدّروس الدّينية في المساجد أو خارجها.

وهكذا تواصلت رحلة ابن باديس، رحلة الوعظ والإرشاد إلى الدّين القويم من مدينة إلى أخرى . مدن الشّرق الجزائري . ليأتي دور مدينة مليلة، ويذكّر أنّه يوم وصلها كان يوما لسباق الخيل حيث يقول في ذلك: "كانت المدينة تموج بالخلق موجا، وكان نزولي بالمكتب القرآني ، اجتمع بذلك المكتب أعيان البلدة، وأهل العلم الّذين صادفتهم"[2] .

وقد أحيط الرّحّالة باحترام كبير، وحفاوة استقبال من قبل أعيان المدينة، ومثقفيها حتى قال بعضهم قصيدة شعر:

أَعِرْنِي بَيَانًا ـ أَيُّهَا الحِبْرُ ـ كَافِيًـــا يَكُـــونُ لَـــدَيَّ مِنْـهُ مُؤَيِّـــــدَا

فَيَا لَكَ مِن شَيْخٍ حَكِيمٍ مُفَضَّلٍ نَصًّا لِخُطُوبِ الدَّهْرِ سَيْفًا مُجَرَّدَا[3]

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 29 . عن ابن باديس " حياته و آثاره " ج 4 ص 299.

[2] ـ المرجع نفسه . ص30 أ عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص 301

[3] ـ المرجع نفسه . ص نفسها . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص 301

إذن هكذا لحسن تصرّف الإمام ورجاحة عقله، وقدرة تأثيره في قلوب الناس، وجلب الجماهير المحتشدة من حوله ، جعلهم لا يفارقونه، بل يلازمونه ملازمة الظّل لصاحبه حتى أصحاب شعر يخصصونه لفقيههم في مدحه.

أمّا ما لفت انتباه ابن باديس في محطّته الموالي من الرّحلة (أم البواقي) وما سجّله ذلك الصّراع القبلي ، وما يزيد في سلبياته حين اشتمل طبقة المتعلّمين، ويقول في ذلك الشّأن أنّ عدم احتواء المدينة على مسجد يجمع سكّانها، هو ما يزيد الطّين بلّة: " ولو كان لهذه القرية جامع لأمكن بإذن الله تقريبهم من بعضهم تذكيرهم بالله"[1].

وفي ذلك إشادة من الرّحّالة بالدور المنوط للمسجد من توطيد العلاقات، وتوحيد القلوب تحت راية الإسلام ، وتصفيّتها من الذّنوب، وتقريب النّاس بعضهم من بعض، فلابدّ من وجود مسجد بأي منطقة مسلّمة، فنوره الّذي يشعّ لا يغني عنه أي نور، وعلى الرّحّالة أن ينبّه إلى ذلك كرفاعة الطّهطاوي الّذي ينشد بيتين في دور جامع الأزهر قائلا:

لَازِمْ إِذَا رُمْتَ الْفَضَائِلَ مَسْجِدًا بِشُمُوسِ أَنْوَارِ الْعُلُومِ تَنَوُّرَا

فِيهِ رِيَـــاضُ الْعِلْمِ أَيْنَعَ زَهْرُهَا فَلِذَلِكَ الْمَعْنَى تُسَمَّى الْأَزْهَرَا [2]

ولا يقف الرّحّالة عن ذكر تخبّط النّاس في العداء، وإنّما واصل الحديث عن غرقهم في ظلام الجهل واستسلامهم للدّجل، والشّعوذة الّتي يمارسها أحدهم في هيئة وليّ صالح، في حين أنّ هناك صورة مغايرة تماما عنها بقرية عين البيضاء، وجامعها العامر بالعقول النيّرة ، والقلوب المضاءة بالعلم والدّين من رجالها وعلمائها المثقفين المستنيرين، صورة عن أهل الفضل، الجادين في العمل على نشر الفهم

[1] . عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 30 . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص 302

[2] ـ رافع رفاعة الطهطاوي . تخليص الإبريز في تلخيص باريز . كلمت هنداوي . القاهرة 2012 . ص 09.

الصّحيح للدّين، أهل الحرص على المسجد ، وجعله المكان المناسب لتهيئة الظّروف حتى تكون الوحدة والتآزر وعمل الخير هو الجامع بين النّاس.

وتكون آخر محطّة في رحلة ابن باديس بالشّرق الجزائري هي مدينة مسكيانة، أين حظي الرّحّالة بحفاوة استقبال ليس لها نظير، وتقدير واحترام ، فذكر الأشخاص الّذين قابلهم من أعيان المدينة، فكان مذكّرا ومرشدا، وداعيا وواعظا." بالغ أهلها في الاحتفاء والاعتناء، وكانت لنا مجالس في عدد من محلاتهم التّجارية لم تخل من تعليم وتذكير"[1] .

هكذا كانت رحلة ابن باديس داخل مدن الشّرق الجزائري، وبصفته رجل دين، وعلم أدب فكان دوره هو الإرشاد، والوعظ، والنّصح، والتّذكير سعيا منه للنّهوض بأمّة صالحة، قوامها الدّين الإسلامي، والتسلح بالعلم، والتعاون الجاد لخدمة الأمة والوطن.

أمّا رحلة ابن باديس الثّانية، فكانت انطلاقته فيها من مدينة سطيف، وذلك في شهر جويلية من عام ألف وتسعمائة وثلاثين، في تلك الفترة كانت الجزائر تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي، حيث منع الرّحّالة من إلقاء دروسه المسجدية، وفي ذلك عرقلة لمسيرته الإرشادية الوعظية لقول الدّكتور عمر بن قينة: حاول بن باديس اختراق منطقة باتت تحت سيطرة الآباء البيض، حيث كان الحظر قائما على نشاط الحركة الإصلاحية"[2]

ويا للأسف حرم سكان تلك المناطق الّتي زارها ابن باديس الرّحّالة من العلم والتّوجيهات، ولهم في ذلك خسارة كبيرة ما بعدها خسارة، لأنّه رحمه الله في دروسه المسجدية ، والمحاضرات، والنّدوات الكثير من التّحفيز على عدم الرّضوخ والاستسلام للمستعمر، ولأنّ جنود الاحتلال كانت على علم بجهود ابن باديس في التّحريض ضدّ الحكومة الفرنسيّة، منعوه من إلقاء دروس الوعظ ، والإرشاد لتأثيرها في النّفوس ، وانجذاب النّاس حول تلك الحركة الإصلاحية الباديسية إن صحّ القول، فيؤكّد

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 31 أ عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص.305

[2] ـ المرجع نفسه . ص 35.

ابن باديس ذلك بقوله: " ما كان أشدّ أسف النّاس في جميع هاته البلدان لما كنت أردّ طلبهم من إلقاء بعض الدّروس الدّينية معتذرا بالمنع الحكومي"[1].

وبالرّغم من عدم تمكّن ابن با ديس من إفادة سكّان تلك البلدان بالعلم والدّين إلاّ أنّه يشكر أهلها على كرم الضّيافة ، وحسن الاستقبال قائلا:" لقد لقينا في كلّ محلّ دخلناه ما عرف به شعبنا الجزائري العظيم من كرم وأريحيّة"[2].

ليشدّ ابن باديس الرّحال نحو مدن الغرب الجزائريّ مرّة ثالثة، ويواصل مسيرته الإرشادية مباش رة بعد توليه رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذه المرّة رفقة تلميذه الورتلاني ومحمد آل الصّادق الجندلي، وكان ذلك سنة ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين بعنوان" في بعض جهات الوطن " ونشرت في مجلة الشّهاب حيث خصّص الرّحّالة ابن باديس موضوع رحلته لحديث عن الجمعية ودورها وقد لقي الموضوع الاستحسان، والإقبال الوفير والقبول، شهد بذلك الرّحّالة نفسه قائلا:" كنّا نرى في جميع المجالس إقبالا وقبولا ممّا لاشكّ معه في بقاء الأثر الطيّب في القلوب إن شاء الله"[3].

وتتلخّص رحلته الثّالثة في زيارة الزّوايا ، كزاوية ابن طكّوك والتعرف على الفرق الدينية كالقادرية وما تقوم به هذه الفرق من دروس مساجدية تعرّف بالدّين الإسلامي الصّريح من كتاب الله والصّحيح من سنّة نبيّه الكريم، فيما قد يفرّق الجماعات، ويقطع العلاقات بين هذه الفرق الدّينية فلا يمكن أن نجعل القليل ممّا تختلف فيه سببا في قطع الكثير ممّا نتّفق عليه، وجاء ذلك في قوله:" أن لا نجعل القليل ممّا نختلف فيه سببا في قطع الكثير ممّا نتّفق عليه، وذكرنا الدّواء الّذي يقلّل من الاختلاف ويعصم من الافتراق".[4]

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 35 أ عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص306.

[2] ـ المرجع نفسه . ص 36 . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص306.

[3] ـ المرجع نفسه . ص 37 . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص308 .

[4] ـ المرجع نفسه . ص . 39 . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص311.

وعموما كانت رحلته الثّالثة إلى الشّلف، وغليزان ، ومستغانم، وأرزيو، ووهران هدفه في ذلك التّعريف بالجمعيّة ، والشّرح لدورها ، وأهدافها في الوعظ ، والنصح ، والإرشاد، فخرج بانطباع إيجابي حول أهلها وتقبّلهم، واستجابتهم، واندماجهم معه في كلّ دروسه، ولقاءاته، ومحاضراته، وندواته، كما يرى في رجالها علما، وفضلا، وتعطّشا للمعرفة، والإحاطة بكلّ الأمور المتعلّقة بالدّين، وحبّهم للاستماع لرجل دين، رجل فكر، رجل إصلاح، يحبّ الخير لأمّته قبل نفسه، فهو كلّ ما ذكر قبل أن يكون رجل أدب، أو رجل رحلات ليقوم ابن باديس برحلة رابعة شادّا الرّحال نحو عروس الزّيبان بسكرة بعنوان" ثلاثة أيام ببسكرة" مواصلا رحلة الوعظ والإرشاد، وزارعا بذور الخير والعمل الصالح في أرض الجنوب الجزائريّ، فلقي إقبالا وحظي باستقبال وحفاوة من قبل ساكني المنطقة، حيث ترجم الرّحّالة ذلك في قوله: " من أعظم ما يدخل السّرور على قلب المسلم أن يرى إخوانه المسلمين يمثلون بمعنى الأخوة الإسلامية تمثيلا عمليا مثل ما شاهدته في بسكرة من مالكيتها وإباضيّتها *، فجماعتهم واحدة ورأيهم واحد، وشوراهم في المصالح العامّة واحدة".[1]

ثمّ يسجّل الرّحّالة استئذانه من نائب شيخ البلديّة ليلقي خطابا على المواطنين في مقرّ البلدية فأذن له ذلك، وتجمهر النّاس من حوله حتى غصّت السّاحة بهم، كما لا ينسى الرّحّالة الحديث عن الدّعوات الخاصّة لموائد الطّعام الّتي أسماها موائد الكرم عن الأشخاص والجماعات، ويخصّ بالذكّر شيخ زاوية قائلا عنه:" أحد أبناء الزّوايا النّاهضين، ذو أحلام وكرم ومعرفة بمسائل الفقه وبذل في سبيل الخير".[2]

ثمّ ينطلق ابن باديس في رحلة خامسة، قاصدا مدن الجنوب والوسط والغرب تحت عنوان" رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية" * لتدوم أكثر من شهر،إلاّ أنّه تغيّر مذهبه في الحديث عن

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة ص43 أ عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص114
. فرقة كلامية دينية تدعو إلأى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى أحداثا وإبداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا.

[2] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . الصفحة 43 . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص114
* . نشرت في مجلة الشهاب أوت 1932.

الرّحلات السّابقة حيث كان عنوان لقائه بالنّاس في كلّ الحلقات" موضوع الدّرس ومادته "، أي كان الموضوع الحث على الفضائل، والتّنفير من الرذائل، أمّا مادّة الدّرس فقد كانت آية قرآنية مشفّعة بحديث للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وكان شعاره في كلّ لقاء: " تعلّموا، تحابوا، تسامحوا "، كما لم يغفل ابن باديس عن موضوع الكرامات والولاية والتّصوّف، فسعى جاهدا إلى اجتثاث الاعتقاد الخاطئ، والزّعم الباطل معتمدا في ذلك على القرآن الكريم، والسّنة الشّريفة، ولذلك لقي استجابة لندائه وتشجيعا لعمله، وحبّا وتقديرا لعلمه فتزاحم النّاس لضيافته، وتسارعوا وتنازعوا من أجل التّقرب إليه، حيث يقول في ذلك: " لقد كان تزاحم النّاس على ضيافتنا كتزاحمهم على دروسنا ومجالسنا وكان تسارعهم إلى إكرامنا يضاهي تسارعهم إلى مقابلتنا."[1]

وكخلاصة عن رحلات ابن باديس داخل وطنه، صاغها بأسلوب رجل دين، عالم بوضع أمته الّذي يتعلق بالجانب الدّيني والاجتماعي، رجل إصلاح يدعو إلى أن تتشبث بلاده بدينها الإسلامي وتنشد التّآلف والتّآزر، والتّعاون مستعدّة، وملبية لما يأمر به، ويدعو إليه مصلحوها، فهو رجل حريص على أن يعبر بقلمه عمّا يشغله ويؤرّقه، لا تعنيه الحقيقة المجردة عمّا يراها، غاضّا النّظر عن خيال الأديب وحلاوة التّعبير، لأنّ هدفه الوحيد تجسيد مبادئ جمعيّته على أرض الواقع، يجري اتصالاته كلّها برجال الدّين والثّقافة من أجل تشجيعهم وتحفيزهم ليبثّ الوعي في نفوسهم.

تتواصل سلسلة الرّحّالين الجزائريين داخل وطنهم، والّذين سطّروا طريق رحلاتهم باتجاه مدن الجزائر ومنهم الرّحّالة الفضيل الورتلاني، والتي كانت رفقة أستاذه عبد الحميد بن باديس بعنوان: " رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعمالة قسنطينة وما يلاحظ فيها " * وكانت أوّل محطّة مدينة مليلة، تحدّث فيها الورتلاني عن الخطاب الذي ألقاه الإمام " ابن باديس" بخصوص بناء مساجد المدينة، كما حثّهم على ضرورة جمع المال لبنائه، حيث لقي استعدادا من قبل أهلها قائلا في

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 46 . عن ابن باديس . آثاره وحياته ج 4 ص 321 .

ذلك:" فأخذوا يمدّون بالمئات والخمسمائة، الأمر الذي دلّ دلالة قطعيّة على استعدادهم لبذل في سبيل الله والتّضحية من أجله."[1]

وبعدها شدّ الرّحال إلى مدينة سطيف، ليتحدّث الرّحّالة عن أرضها الطّيّبة الخصبة، وبساتينها الواسعة، ومبانيها الجميلة، في حين يقابل كل هذا الجمال انزلاق إنسانها إلى الحضيض، فيقول: " كلمتان جمعتا بين التّعريف بطبيعة موقعها وبيئة إنسانها."[2]

وما يعنيه الرّحّالة بقوله الانحلال الّذي يتخبّط فيه أهل المدينة، ونسيان أمر دينهم، فسوقوا إلى هوّة الضّلال. وكلّ ما ذكره الرّحّالة حديث عن ماضي المدينة إلاّ أنّه وفي رحلته رآها بحاضر مشعّ بالحضارة، أمّة جديدة، يشتغل شبابها حماسا، وتوقّدا ،و توهّجا حاملين راية العلم باليد اليمنى، وراية العمل باليد اليسرى، ليعمد الرّحّالة إلى وصف تلك المناقشات العلميّة، والدّينية التي قضاها الوفد في المدينة، كما يصف دعوة فرحات عباس لهم إلى مكتبه ليقدم لهم أصناف الحلويات والمشروبات وليعيد شريط الذّكريات، ثمّ الاستعداد لحضور اجتماع عام بالمسرح البلدي، والاستماع لمحاضرة حول التّغير الجذري للمدينة من مدينة تشيع فيها الآفات الاجتماعية إلى مدينة تلألأت أنوارها بمصابيح العلم والإصلاح، مدينة نهضت من سباتها الطّويل لتنعم بحركة وحيوية، بفضل شبابها المؤمن بضرورة التمسك بالعقيدة والأخلاق.

ورحلة الورتلاني الثّانية كانت إلى مدينة باتنة ذاكرا ماضيها القريب الّذي تدهور بتشييع البدع وطابع الكسل والقعود عن طلب العلم إلى أنّ حاضرها الّذي بدّدت ظلامه حركة الجمعية حيث

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة ص نفسها . عن الورتلاني . مجلة الشهاب ج7 م 10 . ربيع الأول 1353 هـ . (14 جوان 1934 م)

[2] ـ المرجع نفسه . ص 46.

يقول الرّحّالة: " ذهبت بتلك الظّلمة الحالكة، وتوزّعت أشعّتها في نواحي مختلفة، من بين تلك الأشعة سلك أصاب مدينة باتنة، فأضاء شعبها الخفيّة فضلا عن الرّبى الشّاهقة، فامتلأ جوّها نورا."[1]

وقد وصف الورتلاني الإقبال الكبير على الجمعيّة من قبل أهل باتنة، وترحيبهم بها وتسارعهم نحو المحاضرات، واللقاءات، والمناقشات، وفي ذلك يقول:" أقبل خلق كثير لم يسعهم النّادي بجميع بيوته، ورحابه، وفنائه."[2]

لقد أدرك الورتلاني تعطّش أهل المدينة للعلم والمعرفة، وحبّهم للزّاد المعرفي، والتّحصيل العلمي والرّغبة الشّديدة في لقاء الإمام شيخ الشّيوخ عبد الحميد بن باديس، والاستماع إلى آرائه، وأفكاره للاستفادة ممّا يجود به الرّجل من فكر وإصلاح وإرشاد ونصح.

ويواصل الرّحّالة الورتلاني رحلته داخل الجزائر قاصدا هذه المرّة رفقة الوفد المرافق له، وفد جمعيّة العلماء، تحت لواء رئيسها الإمام عبد الحميد بن باديس، رافعين راية العلم والفكر، والدّين، متفقّدين مساجد المدينة فحظي الوفد باستقبال حارّ وحفاوة غامرة، فقد خصّص الرّحّالة جانبا من وصفه للمدينة ـ جغرافيتها وتاريخها ـ دون أن ينسى الحديث عن رجال المنطقة، وعملهم الدءوب ليلا ونهارا بحثا عن لقمة العيش دون إغفال الجانب الدّيني في حياتهم حيث يقول الرّحّالة:" فالرجل عندهم إمّا أن يشب على العمل، أو العلم فلا تجد إلاّ القليل من بينهم عاطلا لا يشتغل بأحدهما، أمّا أوصافهم الثّابتة، فالشّهامة، والإباء، والصّلابة والإقدام، والّذين غرسوا فيهم هذه الأوصاف المحمودة هم من يسمونهم في عرفهم بالمرابطين."[3]

وفي ذلك إشادة ومدح من قبل الرّحّالة لخصال رجال المنطقة الّتي ورثوها عن أسلافهم، فشغلهم الشّاغل هو العمل والعلم لا دجل ولا شعوذة.

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 51 . عن مجلة الشهاب ج 7 . م 10 . العدد نفسه.

[2] ـ المرجع نفسه . ص 52 . عن مجلة الشهاب ج 7 . م 10 . العدد نفسه.

[3] ـ المرجع نفسه . ص 53 . عن مجلة الشهاب ج 7 . م 10 . العدد نفسه.

كما يصف الرّحّالة المنطقة، وما تحظى به من خيرات ومنتجات طبيعيّة وصناعيّة، وعلى العموم كان وصف الرّحّالة ما رأت عيناه في هذه المنطقة، الجهود الجبارة للإمام ابن باديس في مسيرته الإرشادية، خدمة للدين والعلم، والاستقبال الحار والحفاوة والتّرحيب الّذي لقاه بهم رجال المنطقة وفي ذلك حبّهم الكبير للعلم والمعرفة، والإخلاص لرجل الدّين، والجهود المبذولة في سبيل رفع راية الحق.

وتعدّدت رحلات الورتلاني رفقة رئيس الجمعيّة والوفد الإرشادي، الإصلاحي إلى مختلف مناطق الجزائر وكلّها كانت تدور في فلك واحد، هو توعيّة الأهالي، وتنبيههم إلى ما فيه خدمتهم، وخدمة بلدهم، فكانت الأعمال الّتي يقوم بها الوفد، إمّا الإشراف على افتتاح مسجد، أو وضع الحجر الأساس لآخر، وكلّ ذلك في سبيل أن يشقّ الدّين طريقه، ويبقى دائما هو الأعلى والأسمى، ويحتلّ المرتبة الأولى في انشغالات النّاس وبدونه لا يمكن لحياة أن تستقيم أبدا. ولم تقف جهود الوفد عند هذا الحدّ، بل مضوا في تأسيس المدارس ليتعلّم الصّغير قبل الكبير، وكان ذلك بمدينة عنّابه، حيث يقول الرّحّالة:" وحاجتنا عند العنّابيين هي مدرسة تؤسّس لأولادهم بصفة عامّة، وبكيفيّة مشتركة على أساس منظّم حتى يتفرّغ المتعلّمون لتربية أفذاذ الكبد وإنقاذهم من الخطر المحدق بهم، فأولادهم المتشرّدون في الأزقّة أنتم المسئولون أمام الله عنهم"[1]

ويذكر الورتلاني في كلّ منطقة زارها، وحلّ بها إقبال المواطنين على أعمال الجمعيّة المرشدية لأمور الدّين أحد مقوّمات الشّخصية الجزائريّة قبل أن تكون الشّخصية العربيّة، فما تكون الشّخصيّة الحقّة للإنسان محكمة البناء إلاّ في ظلّ الدّين والعروبة، وقد جاء في رحلته:" الجزائري المسلم العربيّ لا طمع له في ذلك ما لم يدرس الإسلام، والعروبة درسا يعرّفه بحقيقة دينه الإنساني، وعروبته الشّريفة، وهو بغيرهما لا ينظر إليه كشخص في أمّة."[2]

[1] ـ عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 58 . عن مجلة الشهاب ج7 . م 10 . العدد نفسه.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها . عن العدد نفسه من مجلة الشهاب.

هكذا كانت رحلات الورتلاني عاكسة للجهود المعتبرة الّتي كانت تبذلها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين بقيادة رائد النّهضة الجزائريّة، الإمام الفقيه الجليل عبد الحميد بن باديس من أجل رفع راية الدّين والعلم، والنّهوض بالأمة الجزائريّة في جوّ من الثّقافة والإرشاد والإصلاح، كما عكست حسن التّجاوب معها من قبل المواطنين، وإقبالهم عليها لما وجدوا فيها من نهوض من سباتهم وتخبّطهم في ظلام الجهل، ليحيوا حياة كريمة مليئة بالحسّ والوعي، فما إقبالهم على الجمعيّة إلاّ لشيء يهمّهم في دينهم ودنياهم.

وإن كانت الرّحلات السّابقة للورتلاني غفلت عن أمور أخرى تتعلّق بالمنطقة المزارة من طبيعة وإنسان ومحيط عام، ووضع اجتماعي، وآخر اقتصادي، وعادات وتقاليد، وغيرها ممّا ينبغي لقارئ الرّحلة البحث عنه، عسى أن يعثر عليه، فإنّ رحلته الّتي عنونها" نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخيار" أوضح فيها الورتلاني ومن خلال عنوانها، أنّه لم يغفل عن شيء إلاّ وذكره ووصفه، فهو لم يترك لا الجانب الجغرافي، ولا التّاريخي، ولا النّفسي، ولا الاجتماعي، ولا الانثربولوجي، ولا الاثنوغرافي، فمثلا حين تحدّث عن بسكرة عروس الزّيبان، وفيما يخصّ جانبها التّاريخي، وعن ماضيها في العهود السّابقة قائلا في ذلك:" غير أنّ المدينة القديمة خرّبت، وسبّب فتنة بين أهلها، فأدخلوا التّرك فأهلكوها إلى درجة أنّ النّاس قد خرجوا إلى البساتين، فشيّدوا بيوتهم هناك منذ ذلك العهد إلى حدّ الآن..."[1]

وقد ورد في حديثه عن تاريخ بسكرة في الكتاب نفسه:" وفي بسكرة برجان للتّرك عامران أحدهما في البلدة والآخر خارجها."[2]

[1] ـ محمد الصغير غانم . المظاهر الحضارية والتراثية لتاريخ الجزائر القديم . مقالات وآراء في تاريخ الجزائر ج 4 . دار الهدى . عين مليلة . الجزائر 2011 . عن الورتلاني . نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخيار . الجزائر بدون تاريخ . ص 85.

[2] . المرجع نفسه . ص 297 . عن الورتلاني . نزهة الأنظار . ص نفسها.

فيظهر أنّ المنطقة وتاريخها حافل بالأمجاد، والبطولات، ولها ماض عريق، ضاربة جذوره في أعماق التاريخ، فهي إحدى المناطق الّتي ترك التّاريخ فيها بصماته الخالدة، ولم يغفل عنها الورتلاني في رحلته، وما في ذلك إلاّ حنين إلى وطنه، وشوق إلى ماضي بلاده، وفي ذلك أيضا فخر واعتزاز بأمجاد بقيت ولا تزال خالدة تشهد على عظمة تاريخ المنطقة.

وعن المنطقة ذاتها، وعن جمالها الخلاّب وطبيعتها السّاحرة، يقول الورتلاني وفي الرّحلة نفسها: " بأنّها كثيرة المياه داخل بيوتها، فكلّ شخص عنده ساقية من الماء تجري، وهو حلو كالعسل، ونخلها عظيم، وغلّته كثيرة، وتوجد فيها أشجار الزّيتون بكثرة."[1]

ما هذا أيّها الورتلاني، أهي حلاوة الماء بحقّ أم هو الشّوق والحنين إلى الأرض، والتّربة، والماء الّذي جعلك تحسّ تلك الحلاوة بمجرد النّظر إلى السّاقية الّتي تجري، ويشعّ منها البريق يدغدغه الخرير فيحدث ذلك الجوّ لديك موسيقى تطربك، وأنت تجلس إلى جانب السّاقية ودون شكّ، تغريد العصافير من فوق الأشجار، وتتمنّى لو يدوم ذلك الجوّ الرّومانسي، فأنت على حقّ في قولك أنّك تحسّ حلاوة كحلاوة العسل في أثناء شربك لذلك الماء.

وبعيدا عن وفد جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، رفقة رئيسها رائد النّهضة العربيّة، عبد الحميد بن باديس، كانت للورتلاني رحلات أخرى داخل الجزائر، وقد أكثر منها، وجاب من خلالها معظم مدنها، لأنّه كما يقول عن نفسه كان محبّا للسّفر والتّجوال، يجوب الشّرق، والغرب، والشّمال والجنوب:" فإنّي قد جبلت على حبّها منذ صغري، وقد كثرت منّي غربا وشرقا، وجوفا وقبلة...لاسيّما عمالة الجزائر، فإنّي حضنتها، وبحث عن أهلها بحثا شديدا، تاريخا، وسيرة، وطريقة."[2]

[1] . محمد الصغير غانم . المظاهر الحضارية والتراثية لتاريخ الجزائر القديم . مقالات وآراء في تاريخ الجزائر ج 4. ص 297 . عن الورتلاني . نزهة الأنظار . ص 85.

[2]. الفضيل الورتلاني . رحلة الورتلاني(عرض ودراسة) مختار بن طاهر فيلالي . دار الشهاب . باتنة الجزائر 1978 . ص 289.

نستشفّ من وراء هذه العبارة، أنّ الرّحالة وإن جبل على السّفر منذ الصّغر، فإنّنا نلمس في حديثه أنّه الشّوق والحنين دافعاه إلى الرّحلة، لأنّ وعلى قدر تعبيره أنّه أكثر منها لا لشيء سوى لعدم قدرته على المكوث في مكان واحد لمدّة طويلة، فما إن يرتاح من سفرته الأولى، إلاّ ويعيد الكرّة وينطلق من جديد قاصدا مكانا آخر، لذا تعدّدت رحلاته، وتعدّدت محطّاته داخل الجزائر ، فزار الكثير من المدن كالعاصمة، وتلمسان، وملیانة، والبليدة، ودلس، و جبال زواوة والمسيلة، وبسكرة وسيدي عقبة وسيدي خالد، وتبسة وقسنطينة وعنابة وغيرها .

وكما ذكرنا سابقا، أنّ لكلّ رحّالة هدف معيّن يرغب في تحقيقه، فكذلك الورتلاني أغلب زياراته كانت للعلماء والأولياء الصّالحين، وأضرحة الأموات، ومنها ما كانت للعلم، والتحصيل المعرفي ومن الأضرحة التي قام بزيارتها:" زار واحة سيدي خالد بقسنطينة، وزار ضريح الشّيخ عبد الرّحمان ألأخضري بطولقة، واجتمع بعلمائها، ومر في عودته بمدينة المسيلة حيث زر ضريح أبي جملين هناك."[1]

وبتلمسان كانت له بها زيارات أيضا، فوقف على أضرحة الأولياء بالعبّاد ،كقطبها اللّامع أبي مدين شعيب والسّنوسي."[2]

فقد كانت رحلاته داخل الجزائر للتّبرك بأضرحة الأولياء الصّالحين، أو للقاء العلماء، والفقهاء وهكذا الشّأن ببلاد القبائل إلى ناحيتي زواوة وتدلس:" زار عددا من الفقهاء والأولياء، واتّصل بتلامذته وفصل عدّة قضايا شائكة."[3]

وهكذا الأمر بمدينة بجاية، فبعد أن وقف على أضرحة أوليائها المشهورين، وجال بأطرافها وأسواقها، واجتمع بتلامذته ومريديه منهم القاضي الشّيخ، والقاسم إبراهيم.[4]

[1] . الفضيل الورتلاني . رحلة الورتلاني(عرض ودراسة) مختار بن طاهر فيلالي . ص 06.

[2] ـ المرجع نفسه . ص 21.

[3] . المرجع نفسه . ص 15.

[4] . المرجع نفسه . ص 18.

لقد أدرك الرّحّالة الورتلاني أهميّة وجود العلماء والمرابطين، ودورهم الفعّال في إطفاء نار الفتن والفصل في النّزاعات، وتهدئة الوضع، ولذلك كان شغله الشّاغل في أيّ منطقة يزورها البحث عنهم والاحتكاك بهم لأخذ العبرة والموعظة الحسنة، فضلا عن أخذ العلم، والفكر.

ولنعد إلى رحلات وفد جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، وبالضّبط رحلات أحد رجالها، وهو مبارك الميلي، وكانت رحلته الأولى بعنوان:" تفقّد الشّعب " أي شعب الجمعيّة في كلّ مدن الجزائر فعلى خلاف الإمام ابن باديس، والورتلاني اللّذان كان حديثهما إلاّ عن الجمعيّة، وجهودها، وأعمالها بكلّ منطقة زاراها، كان أليلي يبدأ الوصف في رحلته بالموقع الجغرافي للمنطقة التي يحلّ بها فعلى سبيل المثال يقول عن جيجل:" جيجل من مراسي الوطن الجزائريّ الشّهيرة تقع شرقي بجاية عاصمة بني حمّاد، وكانت من غرر الدّولة الحمّادية... ثمّ أصبحت قاعدة لغزوات عرّوج وأخيه خير الدّين."[1]

ثمّ ينتقل إلى تاريخها المجيد قائلا:" فهي مدينة جزائريّة منذ القديم، عرفت ما تحافظ عليه، وما تأخذه من الجديد، وما زلنا نقول لها في الخير ما يزيد."[2]

وبعد ذلك يذكر الميلي لقاءه بالشّعبة، يحاضرها ويجيب عن أسئلتها، ويشهد لأهلها بالحضور القوي إلى حدّ الاكتظاظ لاستقبال آراء الفكر الإصلاحي، وما الجديد في توصيّات الجمعيّة وإرشادها، ونصحها.

ومن جيجيل يقصد الرّحّالة الشّقفة التابعة لخميس مليانة ليقول عنها:" الشّقفة قرية على ربوة شرقي قرية الطّاهير، قريبة منها، وتحت جبال بني يدير...وتحت القرية سوقها الشّهير الّذي يقصده كل يوم خميس قبائل كثيرة من سكانها تلك الجبال، وتقريب القول فيه أنّه كفهرست للقبائل من سكان الجبال الساحلية."[3]

---

[1] . عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 63 . البصائر . السلسلة الأولى . العدد 29 . 05 جمادى الأولى 1355هـ / 24 جويلية 1936 م.

[2] . المرجع نفسه . ص ذاتها . البصائر . العدد نفسه.

[3] . المرجع نفسه . ص64 . البصائر . العدد نفسه.

وكما يلاحظ في هذا المقتطف، يصف الرح الة جانبين من جوانب المنطقة ، أولهما الجانب الجغرافي من موقع، وحدود جغرافية، أمّا الجانب الثاني، فحول الحالة الاجتماعية لأهالي المنطقة.

وبعد كلّ ما يتعلّق بالمنطقة من موقع جغرافي استراتيجي خلاّب، ووضع اجتماعيّ لسكّان السّكون،ويأتي دور عمله هو كمرشد متفقّد للشّعبة الكائنة آنذاك، ودوره الفعّال في إرشاد النّاس إلى دينهم ودنياهم، رسالته الخاصّة بالوعظ، ونيابته عن رئيس الجمعيّة رائد الوعظ، والإرشاد، شعاره في ذلك:" أعرف ربّك، طهّر قلبك، أخش ذنبك." [1] كما كان يجيب على الأسئلة المطروحة عليه سواء في أمور الدّين، أو أمور الدّنيا، فلا يجيبهم إلاّ متخّذا الوسيلة الحاسمة، وسيلة المتشبّع بالتّعاليم السمحة، المستمدّة من القرآن الكريم، والسّنة الشّريفة، بغية من ذلك الإقناع بالحجة والبرهان.

كما يحدّثنا الرّحّالة من مدينة أخرى وطئتها قدماه في أثناء رحلته، وهي مدينة المليلية، بادئا بموقعها كعادته قائلا:" المليلية قرية حدثت في العصر الفرنسي، تقع شمال ميلة بنحو خمسين ميلا، والقبائل المحيطة بها كسائر القبائل الجبليّة قعد بهم الفقر، وعمّهم الجهل، وتمكّن منهم الجبن، من الموظفين وأضرّت بهم الثّقة بالمرابطين المضلّلين...وفيهم من يتعرّف إلى الحياة، ويحبّ الإصلاح، ويبحث عن الحقّ."[2]

هكذا على خلاف سابقيه كان الميلي في كلّ رحلة يقوم بها، إلى أيّ منطقة من مناطق الجزائر يفتتح كتاباته الرّحليّة بالحديث عن الموقع الجغرافي الّذي يميّز المنطقة عن غيرها، وما تحظى به من مميزات وخصائص طبيعية، دون الإغفال عن المسار التّاريخي الّذي سارت وفقه المنطقة، والّتي لا تزال بعض معالمه تشهد على بطولات وأمجاد أهلها، دون نسيان المهمّة الّتي حملها على عاتقه، وهي تفقّد شعب الجمعيّة، وحديثه عن أداء رسالته وحظيه باستقبال غفير من قبل سكان المنطقة.

[1] . عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص64 . البصائر . العدد نفسه.

[2] ـ المرجع نفسه . ص نفسها.

تبدأ رحلات المفكر والأديب مالك بن نبي من تبسّة متجها إلى آفلو حين استدعي ليشغل وظيفة عدل في محكمتها، وكان ذلك سنة 1927م، حيث نزل ضيفا على قاضيها الّذي استقبله بحفاوة وترحاب كبيرين، وشاركه طعامه على مائدة عشاء، حيث يصف لنا الرّحّالة كرم القاضي دون أن يفته وصف زيّه وهيئته، فيقول عن ذلك:" كان القاضي شيخا كبيرا جميلا، ذا وجه مستدير يلبس عمامة، وكانت نظرته واضحة تحت حاجبين غليظين أبيضين."[1]

ويضيف قائلا:" كانت لبسته أنيقة جدّا، برنسان جميلان منسوجان نسجا دقيقا ناعما فوق قندورة من الجنس نفسه."[2]

وهو في هذا المقتطف يصوّر صفة الكرم، والّتي تعتبر ظاهرة أو جزء من شخصية الإنسان في المنطقة وهي لا تعتبر رياء أو تباهيا يقوم بها صاحبها ليساير البقيّة، وإنّما يراها هو واجبا محبّبا يلتصق به منذ أن وجد على ظهر الأرض، ففيها تحقيق لذاته ووجوده، وبها تسعد حياته، والرّحّالة منذ أن وطئت قدماه مدينة آفلو إلاّ نزل ضيفا على كل بيت بها ، بداية من قاضيها، وأعضاء محكمته إلى آخر سكن بالمنطقة، حيث يقول:" منذ نهاري الثّاني غدوت ضيف أعضاء المحكمة جميعا، وبعض وجهاء المركز الواحد تلو الآخر."[3]

كما يصف الرّحّالة كرم أهل المنطقة على أنّه شمة من شيم أهل الجنوب، ويبلغ في النّفوس الحدّ الأقصى قائلا:" يبلغ الكرم درجة مثيرة، تحرّك النّفس أحيانا." [4]وغايتهم من وراء الكرم الزّائد عندهم توطيد العلاقات، وتهذيب السلوكيات بطابعهم الشّعبي كرواية الحكايات، والقصص، إمّا للتّسلية والتّرفيه، وإمّا لأخذ عبرة، وترسيخ علم، وفكرة، أو قيم إنسانية تجد صداها في النّفوس البشريّة.

[1] . مالك بن نبي . مذكرات شاهد القرن . سلسلة مشكلات الحضارة ترجمه مروان ألقنواتي . دار الفكر . بيروت 1969 . ص 144.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 317.
[4] . المرجع نفسه . ص 317.

كما لا يغفل الرّحّالة عن ذكر بعض العادات الناميّة عن التّخلف باتخاذ أساليب منحطّة للاستغلال والتّضليل، وهي أن يقبع الإنسان في ظلّ الشّعوذة، والميل إلى الدّجل، أو اللّجوء إلى المرابطين للتّبرك والدّعاء، وذلك ما حصل له بالنّظر إلى الزيّ الّذي يرتديه، حيث اعتبر هو الآخر مرابطيّا، وحيث يقول في ذلك الشأن:" كدت أنا نفسي أتّخذ مرابطيّا في منطقة آفلو، فبينما كنّا في رحيل يوما جاء رجل يقبّل زيّي وربّما كان ذلك للبستي الغريبة الفريدة."[1]

لينطلق الرّحّالة مالك بن نبي في رحلة ثانية قادته إلى تبسّة عائدا من باريس، وأظنّه الشّوق والحنين إلى الأهل والدّيار، مسقط الرّأس، بيت الأحباب والخلّان والولدان، وكان ذلك سنة **1932**م آخذا في طريقه مروره على عاصمة البلد ـ الجزائر ـ، ومبديا ملاحظة عن عاصمة الوطن وسكّانها قائلا:" لم يكن الجزائريّ يشعر في العاصمة عند وصوله إليها أنّه في منزله وعقر بيته، إذ كان القوم بالأحياء الشّعبية يتكلّمون فيه لغة هجينا من مفردات عربيّة واسبانيّة وفرنسيّة، أمّا في الأحياء الأخرى فيتكلّمون اللّغة الفرنسيّة."[2]

لا يكون الحنين والشّوق إلى الوطن والأهل فقط، وإنّما قد يكون إلى اللّغة الأم، فالمجتمع الجزائريّ من خلال هذا المقتطف مزج بين لغته الأصليّة ولغات أخرى دخيلة عليه خلّفها المستعمر الفرنسيّ.

وهو في طريقه من الجزائر إلى تبسّة يدرك تماما أنّ أباه وزوج أخته في انتظاره، بل في استقباله بمحطّة القطار، وبينما يتحرّق للقائهما، يشغل نفسه بوصف تلك المزارع والحقول، ما يقوم به الفلّاحون في أثناء موسم الحصاد، فيقول:" استمرّ القطار يدفدف عبر سهل تبسّة، حيث لازال في تلك السّاعة بعض الفلّاحين يقيمون حصادهم أكواما صغيرة ينقلونها على ظهر البغال، والحمير بينما كانت المواشي ترعى في الحقول المحصودة... بينما الهدوء والسّكينة تخيم على هذا المنظر العتيق."[3]

[1] ـ مالك بن نبي. مذكرات شاهد القرن. سلسلة مشكلات الحضارة. ص 326.

[2] ـ المرجع نفسه. ص 81

[3] . المرجع نفسه. ص 85.

كما في هذه الرّحلة يذكر الرّحّالة كيف أنّه في شوق إلى والدته، فيعدّ الدّقائق واللّحظات ليراها ويقبّل يديها الكريمتين، فيقول:" وكنت أشوق ما كنت لأرى أمّي...فوجدت والدي في انتظاري بالمحطّة مع بعض أصدقائه، وعندما تولينا مثل العديدين نحو المدينة...كانت أفكاري، وصهري يواصل الحديث كأنّها ترقص في أحشائي من الفرح لأنّ كلّ شيء كان بخير والحمد لله."[1]

فكيف لا ترقص الأفكار في الأحشاء، أو حتّى الأحشاء نفسها داخل البطن، فتكون أنت الرّاقص أيضا، وقد تحقّق لك ما كنت تسعى إليه، وهو لقاء الأحباب، والوالد، وإن كانت فرحته ينقصها لقاء الوالدة وهكذا وصل الرّحّالة الدّيار، وامتزجت فرحته بلقاء الأحباب، وفرحته بمعانقة تراب أرضه.

أما رحلة توفيق المدني الدّاخلية، فكانت أولاها إلى الجزائر العاصمة، قادما إليها من تبسّة لينزل بمحطّة القطار، فيعتريه نوع من القلق لوجود رجل مخابرات ظلّ يراقبه، فلم يجد بدا سوى التّوجه وسط زحام النّاس نحو حديقة، وما أن دخلها حتى راح يصفها:" تتّبعت خطى النّاس حتّى خرجت من المحطّة...فوقفت إلى جانب حديقة غنّاء، باسقة الأشجار، حسنة التّنظيم، أحاط بها سوار من المنازل الرّفيعة المتناسقة، ورأيت من بينها مقهى حسن الهيئة، بديع العرض، وكان الجوع والإعياء قد نال منالا، فقصدت المقهى واستويت على مقعد وثير."[2]

وهو لا يزال على هاته الحال، إذ تتّبعه جاسوس دعاه إلى دار العمالة إلى ضابط الشّرطة، فبعد تلك الوقائع الّتي جرت له ألا يمكن أن تجده متشوّقا إلى بلده، وأهله، وما يزيد في شوقه وحنينه ذلك المنظر الّذي رآه في الفندق الّذي اكترى فيه غرفة، فبعد أن تعجّب من بنائه ونظامه المدهش في النّظافة حنّ إلى أصله والبناء البسيط، الّذي ينمّ عن الأصل العربيّ بمعنى الكلمة، لأنّ هذا البناء ما هو إلاّ امتداد للوجه الأوروبيّ في المباني، وحياة النّعيم للاستعمار لكسب ودّ العرب الجزائريّين

[1] ـ مالك بن نبي . مذكرات شاهد القرن . سلسلة مشكلات الحضارة . ص 85.

[2] . أحمد توفيق المدني . حياة كفاح . ج2 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر 1977 . ص 25.

وولائهم وصمتهم، قائلا:" جدتني بينهم في سيّارة فاخرة، تجوب بنا طرقات المدينة، وأنا متعجّب لذلك النّظام، ومندهش لتلك النّظافة، إنّما رأيتني، وكأنّني في باريس أو ليون لا في مدينة عربيّة، لا سكّان عرب، ولا شيء من الشّرق."[1]

فالأديب الرّحّالة بحسّه المرهف جعله يحنّ إلى الحياة العربيّة بكلّ امتداداتها، وما الوضع الّذي يعيشه وسط الأوروبيين إلاّ زخرف للحياة بعيدا عن الأصالة والبساطة العربيّتين.

وفي وصفه للجزائر العاصمة، يختصر قوله في جملة بسيطة، وهي: " تلك كانت الجزائر سنة 1925م حياة بذخ، وجمال، ونعيم يرتع فيه الأوروبيّ بشكل خاصّ، والبؤس، والشّقاء، والحرمان والمرض، والجهل والجوع، والمهانة، والعدم للجزائريّ المسلم المسكين الّذي سلب منه كلّ شيء."[2]

فإنّه يمارس دور الجزائريّ الغيور على وطنه، الّذي ينفطر قلبه لواقع أهل بلده الّذين انقسموا بفعل المحتلّ الغاصب إلى فئة تحيا حياة الرّفاهية، تلك الفئة التّابعة لفرنسا، وإدارتها، وفئة مقهورة تعاني الحرمان بشتّى أنواعه، وفئة الشّباب اللّاهي في المقاهي بين طاولات الخمر، ولعب القمار، جعلتها الحكومة الفرنسيّة، وألقت به في حضيض التّهتك والاستهتار، لا رجال قضيّة همّهم الدّفاع عن بلدهم، ومقاومتهم للاستعمار.

والرّحّالة بين هذا الجمود حول هاته الفئات، إذ سمع صوت صبية يتلون القرآن بإحدى مرتفعات المدينة، حينما كان يجوبها، فتوقّف لحظة ليتتبّع مصدر ذلك الصّوت الّذي ينبئ بخير، حينها شدّه الحنين إلى ماض ولّى، وهنا حاول إعادته، ذلك المستقبل المجهول، فأدرك أنّ للجزائر رجالها الّذين يبشرون بخير ويعيدون لها وجهها الخالد، فيقول في ذلك:" رأيت المستقبل باسما زاهرا سعيدا

[1] . أحمد توفيق المدني . حياة كفاح . ج2 ص 27.

[2] . المرجع نفسه . ص 30.

هنالك فقط لا في قصور ذوي الثّروة والجاه، ولا حول موائدهم السّخية الدّسمة، عرفت الحقيقة وعرفت الشّعب، وعرفت المآل."[1]

وحين سمع ذلك الصّوت الشّجي يتلو القرآن، تذكر أيام طفولته، وهو بكتّاب بلده يتدارس القرآن ويحفظه فلم يلبث أن دخل مسرعا إليهم، وجعل يقبّل التّلاميذ ومعلّمهم، ومكث في وسطهم، حينها اشتاق إلى أهله، وحنّ إليهم حين إحساسه بتلك الغربة الرّوحيّة، ولكن سرعان ما تبدّدت ما إن التفّ التّلاميذ حوله وأحاطوه بعطفهم، فوجد فيهم دفئا وسلاما روحيّا كأنّه وسط أهله، وأحبابه: " أخذت أقبّل عن غير وعي جماعة المعلّمين الّذين التفّوا حولي، وصغار التّلاميذ الّذين تركوا الدّراسة وأحاطوا بي، وألفيت نفسي فجأة بين عائلتي، وأقاربي."[2]

نلمس حنينا وشوقا للرّحّالة من نوع آخر، هذه المرّة ليس للأهل والدّيار، وإنّما للأصالة والعروبة. وفي رحلة أخرى قادته إلى بوسعادة بدعوة من الرّسام الفرنسي (**إتيان دينيه**)* الّذي حضّر له مفاجأة، وهي الخروج إلى البادية على ظهر حصان، وكان امتطاء الرّحّالة لأوّل مرّة في حياته، الأمر الّذي جعله يعبّر عن فرحته، ويصف غبطته الّتي لا توصف، وهو يجد نفسه بين أحضان الألفة العربيّة بعيدا عن سيطرة المحتلّ وظلمه للمستضعفين، كما يصف كرم الرّسام (**دينيه**) وحسن استقباله: " وصلنا الخيام، فنسينا تعب ساعتين فوق ظهر الجيّاد، وتلقّانا الأستاذ (**إتيان دينيه**) وضيوفه الّذين دعاهم من أجلي، ودخلنا الخيمة، وتفيّأنا ظلالها، وانبسطنا فوق الأرائك، وقصّ علينا أفاضل العرب نواذر الفروسيّة، وأسرار حياة الباديّة، وقصص غرام الشّبان وبنات الخيام، فكنّا وهم يقصّون نتذكّر في الخيال عنترة وعبلة، وكثير وعزّة، وقيس وليلى."[3]

[1] . أحمد توفيق المدني . حياة كفاح . ج2. ص 30.

[2] . المرجع نفسه . ص 39.

* إتيان دينيه: رسام فرنسي ولد سنة 1861م ، تردد إلى الجزائر منذ 1885، واستقر بوسعادة سنة 1904م

أليس في ذلك حنين وشوق، والرّحّالة يجوب كمنطقة بوسعادة حيث قادته رحلته إلى وسط عائلي يحوي الأصالة والعروبة والبداوة، تترجمها الخيول للامتطاء والتّنقّل والتّرحال، والخيّام تنعش بظلالها، وتذهب بحرق الحرّ، وأنواع الأطعمة التّقليديّة الّتي خصّها الرّسام لضيوفه، حينها اطمأنّ قلب الرّحّالة على مستقبل الجزائر، وأدرك أنّ العروبة والإسلام لم يموتا، ولن يموتا في تلك الدّيار.

ومن بوسعادة شدّ توفيق المدني الرّحال نحو زاوية الهامل، حيث وضع الرّسام (**دينيه**) جوادا تحت تصرّفه ليقلّه إلى هناك، ووصف تلك الحفاوة الّتي استقبل بها هناك فقال:" سمعت من الشّيخ ومعاونيه ما أثلج صدري، ملأني بهجة وسرورا، وزاد إيماني ويقيني بمستقبل الإسلام والعروبة، وبمستقبل الجزائر الخالدة."[1]

هكذا كانت رحلة توفيق المدني إلى إحدى ولايات الجنوب أين وجد دفء العائلة، ومحبّة وإخلاص الأهل للعروبة والإسلام.

وعلى غرار الرّحّالين الجزائريّين الّذين يجوبون مناطق الجزائر شوقا وحنينا، يفتتح الدّكتور سعد الله رحلته إلى خنقة سيدي ناجي قائلا:" كلّ من قرأ ما كتبه الرّحّالون عن خنقة سيدي ناجي قبل الاحتلال الفرنسيّ تحنّ نفسه إلى رؤيتها اليوم للاطلاع على ما بقي من آثارها."[2]

يتّضح من المقتطف، أنّ الرّحّالة إمّا سبق له أن زار المنطقة فأعاد ذلك ليرى ما الجديد فيها وهل بقيت على حالها، أو ربما قرأ عنها في الكتب، أو الدّراسات، أو الرّحلات، فرغب في زيارتها ليرى حقيقة ما قرأ، لدا نستطيع القول: إنّه شدّه الحنين والشّوق إليها، ليربط ماضيها بحاضرها.

كلّ ما ذكرناه عن هؤلاء الرّحّالة الجزائريين، سواء كانت رحلاتهم فردية، أو جماعية، وأمّا الآن فنتعرّض لرحلة قادت أصحابها . وهم طلبة جامعيون يبلغون الثلاثين رفقة أساتذة مؤطرين . لزيارة

[1] . أحمد توفيق المدني . حياة كفاح . ج2. ص 93.

[2] . أبو القاسم سعد الله . تجارب في الأدب والرحلة . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1983 . ص 257.

بعض المعالم الأثرية بولاية قالمة، حيث كان على رأس الوفد الدّكتور محمد حسين، أستاذ بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة.

كانت زيارة ذلك الوفد لولاية قالمة بداية من المسرح الرّوماني الّذي يضمّ متحفا، وبه البقايا الأثريّة الّتي تخصّ الفترة النّوميديّة، حيث يتصدّرها تمثال للإله حمّون بيده الصّولجان رمز القوّة والتّحكم في قوى الطّبيعة هذا بالإضافة إلى عدّة تماثيل لأباطرة وآلهة رومان توزّعت بإحكام في ساحة المسرح،كما يقف أعلى بوابة الدّخول تمثال السّيدة (**أنيا إيليا رستونيا**) **Annia Aelia** (**Restunia** راهبة معبد كالما الّتي تبرّعت من مالها الخاصّ لإنشاء مسرح المدينة، وقد أقيم لها ذلك التّمثال اعترافا لها بالجميل.

بعد ذلك قادتهم الرّحلة إلى حمّام دباغ، أين سحرتهم تلك الآثار، كونها عبارة عن مقابر للأجداد الّذين دفنوا هناك منذ آلاف السنين، والتي نحتت من صخور الأجداد.[1]

لا تكون الرّحلات الّتي يقوم بها الجزائريّون داخل وطنهم فقط، بل قد تكون خارجه، فالرّحّالة الجزائريّ يغادر بلده بغية تحقيق أهداف سطّرها، وبات يخطّط لها منذ فترة معيّنة منذ زمن، قد تطول أو تقصر، وما إن يحين أوان المغادرة، حتى تجده يستعدّ للرّحيل، مودّعا الأهل والأحباب، آملا في العودة يوما ما، واللّقاء بهم من جديد إن طال العمر، فنراه يحنّ ويتشوّق إليهم قبل وداعهم، الابتعاد عنهم، وتركهم يجعل دمعه يفيض، وينهمر بغزارة، فيرجو انتهاء المهمّة والرّجوع إليهم، فقد تكون رحلته من أجل السّياحة، أو أداء مناسك الحج، أو أهداف أخرى تكون رغبته في الحصول عليها ملحّة، وعند الوصول إلى ذلك البلد المزار يبدأ في تسجيل ملاحظاته، ويدقّق النظر متأملا، ومتمعّنا فيما صادفه ورآه عن قريب، أو بعيد، وسرعان ما يخرج أدواته لتدوين ذلك، فربّما شدّه الحنين والشّوق إلى ما له نظير في بلده.

[1] . مجلة المعالم الأثرية المحكمة لولاية قالمة . العدد 24 ص 94.

فهذا أحد الرّحّالين الجزائريّين الّذين كتبت لهم الأقدار بأن يغادروا الوطن، ويكتوون بنار الغربة ويتمنّون العودة في أقرب الآجال، ليتمّ لهم صباغة أعينهم بكحل ناذر اسمه الوطن، وهو الرّحّالة الجزائريّ محمد الصّالح رمضان الّذي غادر الدّيار قاصدا بلاد الصّين، وفي طريق عودته حطّ الرّحال بمدينة باريس، فيروي عنها:" أنّ مدة إقامته فيها كانت قصيرة جدا، دامت يومان فقط، وأوّل ما قام بزيارته المسجد الكبير بهذه المدينة، واطّلع على حياة المغتربين، والجاليّة الإسلاميّة."[1]

الملاحظ أنّ رحلة محمد الصّالح رمضان إلى باريس لم تكن للسّياحة ولم تكن مقصودة، وإنّما كانت محطّة عبور في أثناء العودة، ولو كانت كذلك لشدّته شوارعها، وللفت انتباهه عمرانها، وكل شيء فيها يسحر العين والقلب معا، فهذه باريس الّتي يحلم بزيارتها كلّ شخص، سواء سمع عنها، أو لم يسمع عنها، إلاّ أنّ الرّحّالة قادته قدماه إلى المسجد الكبير بها، ليتفقّد ويتطّلع على أحوال المغتربين وقد عصفت بهم رياح الغربة بعيدا عن أوطانهم، ولربّما ظروف العمل من أجبرتهم على الرّحيل، فلم يجدوا مأوى يقيهم حرّ الصّيف، وقرّ الشّتاء سوى المسجد بيت الله يأويهم، ويتّخذون منه مسكنا ريثما تحنّ عليهم الأقدار، إمّا بالرّخاء، وإمّا بالعودة إلى الوطن، أمّا ما نلمسه من تلك الزّيارة الّتي قام بها الرّحّالة إلى المسجد، ومحاولة منه معرفة الأوضاع الّتي يعيشها من يعانون الاغتراب، سواء كانوا عربا أو مسلمين من دون العرب، هو الحنين والشّوق إلى البلد الإسلامي، واللّغة العربيّة، بالإضافة إلى غيرته على الإسلام والعروبة، فرأى كيف يصبح المغترب بعيدا عن أهله، وعوض أن يكون بيت الله للعبادة الخالصة لله ، يمسي ملجأ لمن لا مأوى لهم، ولربّما سئم الحديث بغير لغته وسط شوارع باريس فوجد ضالّته في أولئك المغتربين والمسلمين يتذكّر من خلالهم كيف تنطق العربيّة وسط بلد غربيّ.

وما يؤكّد الحنين والشّوق الّذي يشعر بهما الرّحّالة تجاه الإسلام، نجده في أثناء تدوين رحلته وبالضّبط حين تواجده بالصّين:" يعرض العلاقة بين الصّين في معركة القادسيّة، ونهاوند (23 هـ /

[1]. عمر بن قينة . رحلات ورحالين في النثر العربي الجزائري الحديث . شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع . ط2. الجزائر 2009 . ص187.

643م) الّتي انتصر فيها الجيش الإسلامي على السّاساني الفارسي، فكان صداه في الصّين الّتي اعتذر ملكها عن مدّ العون للملك الفارسي."[1]

لقد بيّن الرّحّالة محمد الصّالح رمضان أنّ ملك الصّين أدرك قوة الإسلام والمسلمين، وبفضل عون الإله الواحد الأحد لجنود الإسلام تمكّنوا من تحقيق النّصر ضدّ الأعداء، وإعلاء كلمة الله، وأنّ حجّة ملك الفرس باطلة واهية، وأنّ وعوده كاذبة.

ثمّ يواصل الرّحّالة تجواله داخل شوارع الصّين، فيقوده شوقه وحنينه إلى الإسلام مرّة ثانيّة، إلى جامعها العظيم، وعمد إلى وصفه، فهو مسجد قديم النّشأة، مختلف الصّنع والهندسة، متّسع الأرجاء وعن ذلك يقول:" زرنا مسجدها العظيم الّذي يعدّ معلما من أهمّ معالم الإسلام في الصّين، وفي الشّرق الأقصى كلّه، لقدمه وأهميّته في المنطقة، ولاختلافه عن المساجد في التّخطيط والهندسة، وفي اتّساعه وتعدّد أفنيّته وأقسامه، وما اشتمل عليه من برك وأبراج، وطرق."[2]

بعدها يعرض الرّحّالة زيّ الإمام قائلا:" يرتدي الإمام الزّي الإسلاميّ الأبيض، وهو عندهم يتمثّل في عمامة كبيرة بيضاء ذات عذبة."[3]

تباشير الإسلام وتعاليمه، وسيماته تذكّرها الرّحّالة بكلّ محتوياتها، فقلّما يجد زائر لبلاد غربية ما يذكّره ببلده، اللّهم إلاّ إن بحث عنها، ويبدو أنّ الرّحّالة حاول ذلك ليجد ما يربطه بأرضه، وما يطفئ لهيب النّار الّذي تشتعل داخله . نار الغربة . وفي ذلك حنين وشوق إلى الأصل والأصالة، وما يؤكّد ذلك قوله الموالي في وصف زيّ المسلمين وهم يؤدّون الصّلاة:" وقت الصّلاة يضعون على رؤوسهم طاقيّات بيضاء كانت مخبأة في جيوبهم مثل إخواننا الإباضيّين في جنوب الجزائر تماما."[4]

---

[1]. عمر بن قينة . رحلات ورحالين في النثر العربي الجزائري الحديث . ص 190.

[2]. المرجع نفسه . ص 197.

[3]. المرجع نفسه . ص 198.

[4]. المرجع نفسه . ص نفسها.

والملاحظ أن الرّحّالة شدّه الحنين والشّوق مرّة أخرى إلى أصله، فيتذكّر إخوانه الإباضيّين بالجنوب الجزائريّ ذوو العمائم والطاقيّات، يضعونها فوق رؤوسهم في أثناء تواجدهم بالمسجد لتأديّة الصلاة بعد إخراجها من جيوبهم، أي أن خارج المسجد ينزعونها.

وحنين من نوع آخر شدّ الرّحّالة، حنين إلى الكتابات العربيّة في الشّوارع، وعلى المحلّات التجاريّة بالرّغم من جهل عامّة سكّان الصّين لمعانيها، وإنّما وضعت لأنها لغة القرآن ومن وضعها دون شكّ هم مسلمون، فيقول:" في الشّوارع الّتي مررنا بها كثرة الكتابات العربيّة، ممّا يدلّ على مدى حبّ هؤلاء المسلمين للغة القرآن، والإسلام، ولسان أهل الجنّة لذلك هم يتبرّكون بها ويحبّونها."[1]

هكذا تكون الإشارة إلى حنين وشوق الرّحّالة محمد الصّالح رمضان، الّتي لخصّها في غيرته على الإسلام والعربيّة لا لشيء سوى أنّه بأرض الغربة، بلد غير مسلم، وإن كان فيه عدد المسلمين به يتزايد يوما بعد يوم.

وغير بعيد عنه، كان الرّحّالة الأمير عبد القادر، إلاّ أنّ وجهته كانت البقاع المقدسة لتأديّة مناسك الحجّ، وبعد أن تمّ له ذلك، انتقل إلى دمشق في زيارة لها، كان الاتجاه رفقة الوفد المرافق له إلى بغداد . بلد الحضارات وتعاقب الأجيال عليها . حيث قام الوفد بزيارة ضريح الشّيخ عبد القادر الجيلاني العالم الجليل ، والفقيه الحكيم، رئيس الفرقة الصّوفية القادريّة، فيقول عن ذلك:" زار الوفد ضريح الشّيخ عبد القادر الجيلاني، الّذي له اعتبار كبير، وهو ذو مكانة روحيّة عاليّة جدّا في الحياة الدّينيّة بالجزائر، كما يحتلّ منزلة رفيعة في التّراث الشّعبي، تختلط في عناصر الأسطورة بعناصر الواقع والآمال والأحلام."[2]

الملاحظ أنّ أيّ مغادر لوطنه باتجاه بلد آخر غيره، لا تغيب عن ذهنه أرض بلده بكلّ شبر فيها مهما بعدت المسافات، ومهما طالت مدّة الغياب، فعقله وكلّ جوارحه تظلّ متعلّقة بالوطن لا

[1] . عمر بن قينة . رحلات ورحالين في النثر العربي الجزائري الحديث . ص 198.

[2] . المرجع نفسه . ص 36. عن رحلة الأمير عبد القادر الجزائري إلى الحج.

تفارقه أيّ لحظة، فهو يتذكّر كلّ الأماكن، وكلّ الشّوارع، وكلّ المقامات، والرّحّالة الأمير عبد القادر لم ينسى عند زيارة بغداد الوقوف على ضريح الشّيخ عبد القادر الجيلاني باعتباره أحد أقطاب الجزائر وأحد أئمّتها الأجلّاء، حيث بلغ الشّيخ مكانة مرموقة وسط العامّة والخاصّة وله منزلة رفيعة في التّراث الشّعبي، لذا كان على الرّحّالة مباشرة بعد أن وصل بغداد أن تكون له وقفة على ضريحه والتّبرك به.

ثم يروي الرّحّالة أنّه عند دخوله لزيارة الضّريح، وجد أولاد الشّيخ حريصين على تعظيمه، وأعرف النّاس به وبفضائله:" ودخلنا في أحسن زيّ، وغاية شبع، وقد كان الجدّ رحمه الله ترك بها نسبا معروفا حتّى جعل به أولاد الشّيخ ذكرنا معروفا، ووجدناهم أعرف بخصائص الجدّ منّا، وأحرص على تعظيمه وعدّ ثنائه أفضل منّا، واتّخذنا صلاة الأوقات في مقام ضريح سلفنا وقدوة أسلافنا بديارنا.... وحقّقنا لذلك المقام الشّريف نسبنا واستقصينا بزيارتنا له ذمارنا وحسبنا."[1]

حتّى وإن تحقّق للأمير مراده وبلغ هدفه، وهو زيارة ضريح الشّيخ عبد القادر الجيلاني، وهو الّذي شرّفوا بنسبه، إلاّ أنّه حزّ في نفسه أنّه وجد أولاده أعرف بدور الرّجل، وأحرص على تقديره، وإعطائه مكانته الّتي يستحقها، أمّا عن زيارته لضريحه هي الدّافع الأقوى الّذي لا يقوى أيّ أحد على ردّه وهو الحنين والشّوق إلى الأماكن المقدّسة، سواء أكان في بلده، أو في بلد آخر غيره، حتى يتمكّن من إخماد تلك النّار الملتهبة داخل الصّدر، نار الغربة الّتي يكتوي بها كلّ مفارق لوطنه، بل لأمّه الأصل.

رحّالة آخر كانت وجهته البقاع المقدّسة في تجربة روحيّة، هدفه المنشود زيّارة بيت الله، وقبر رسوله الكريم، هو الرّحّالة الجزائريّ با عزيز ورفاقه الحجّاج، وفي أثناء تواجدهم بفرنسا الّتي كانت ضمن خطّ سير الرّحلة، وبالضّبط في مدينة مرسيليا، وهي ثاني أكبر المدن الفرنسيّة الّتي تقيم فيها

[1]. عمر بن قينة . رحلات ورحالين في النثر العربي الجزائري الحديث . ص 37 . عن رحلة الأمير عبد القادر إلى الحج.

الجاليّة الجزائريّة، ولهذا السّبب خيّل للرّحّالة ومن معه أنّهم متواجدون في مدينة جزائريّة، فيقول: " قضينا ساعتين، فخيّل إلينا أنّنا في مدينة جزائريّة لا فرنسيّة بأحيائها والجاليّة الجزائريّة فيها."[1]

هو الشّوق والحنين إلى الأرض الوطن الجزائر، وإلاّ لما كانت مدينة مرسيليا وفق خطّ رحلته وهي تكتظّ بالجاليّة الجزائريّة، ودون أدنى شكّ جاليّة عربيّة، حتّى يرى طباعهم ولغتهم وتصرّفاتهم فيتذكّر من خلالهم سكّان بلده العربيّ أسرته الكبيرة ومن خلال ذلك أفراد أسرته الصّغيرة، أيّ أهل بيته.

ثمّ يواصل مشواره الرّحلي، فيحطّ الرّحال ببيروت لينطق لسانه بعبارة ترجمت حنينه وشوقه إلى لغته الأصليّة العربيّة:" كان من المفروض أن تكون لغة الإسلام العالميّة هي العربيّة...إنّ النّهضة الإصلاحيّة الإسلاميّة كانت ترتكز في مطلع القرن على مبدأ وجوب تعليم العربيّة لجميع المسلمين."[2]

فحسب ما جاء في كتاب عمر بن قينة أنّ الرّحّالة إن قال تلك العبارة عندما عانى رفاقه في بيروت بسبب جهلهم العربيّة فحلّل، وعلّل، وعلّق أيضا.

إنّها رابطة الوطن والتّراب الّتي تشدّ الرّحّالة سواء كان قد غادرها، أو لا يزال في بلده، وربّما قد يكون يهمّ بالمغادرة، فيعتريه التّردد في السّفر، ويعيش بين نارين، نار الفراق، ونار التّطلّع إلى ما وراء بلده، عندها يحسّ تشنّجا في الأعصاب، وألما في المفاصل، فيتمنّى لو يأتيه أحد بحفنة من تراب وطنه ليشمّها فتعيد له الأمل في العودة إلى الوطن، هذا إن كان بعيدا عنها، فعلى حسب تعبير محمد عمر توفيق في ذكريات مسافر قائلا:" ربما كانت خرافة أو عقدة، أو مرض اسمه الوطن."[3]

[1]. عمر بن قينة . رحلات ورحالين في النثر العربي الجزائري الحديث . ص 69 . عن رحلة الشيخ باعزيز . رحلتي إلى البقاع المقدّسة.

[2] . المرجع نفسه . ص 70 . عن رحلة الشيخ باعزيز . رحلتي إلى البقاع المقدسة.

[3] . عبد الله بن أحمد بن حامد . رسالة ماجستير. أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية . جامعة أم القرى في الأدب . إشراف د/ محمد صالح جمال بدوي . 1997 . ص 68.

وفي ذلك يقول الشّاعر:

يَا بَعِيدَ الدّارِ عَنْ وَطَنِهِ مُفْرَدًا يَبْكِي عَلَى سِجْنِهِ

كُلَّمَا جَدَّ الرَّحِيـــلُ بِهِ زَادَتْ الْأَسْقَـامُ فِي بَدَنِهِ [1]

فقد يكون الشّوق والحنين إلى الأهل والدّيار سببا في عدم مواصلة الرّحّالة مشواره، أو الابتعاد عن الوطن مهما كانت المشاقّ الّتي تحمّلها في سبيل تحقيق غاية منشودة، أو هدف معيّن، فيقطع رحلته عائدا، فهو يبيت ليله ساهرا يؤرّقه انتظار ضوء الصّبح من فرط اشتياقه للقاء الأحباب والخلّان.

فمن الواضح أنّ الاشتياق والرّغبة في العودة إلى الوطن يلازم الرّحّالة في كلّ لحظة، وثانيّة من يوم مغادرته أرض الوطن، ونكون مبالغين قليلا إن قلنا إنّ الشّعور الرّهيب، شعور الحنين والشّوق قد يكون داخل نفس الرّحّالة حتّى قبل المغادرة، أي عند وداع الأهل بصحبة تلك الدّموع المختلطة بالابتسامة الخفيفة المنبئة بما يمكن أن يحصل عليه الرّحّالة، ومجمل الأهداف والغايات الّتي يحقّقها والانجازات الباهرة والمكتسبات الّتي يمكنه العودة بها.

[1] . رافع رفاعة الطهطاوي . تخليص الإبريز في تلخيص باريز . دار كلمات هنداوي . القاهرة 2012 . ص 29.

المبحث الثّاني: الرّحّالة العرب (الإعجاب والاندهاش)

إنّ الإعجاب والاندهاش بشيء تستعظمه النّفس البشريّة، فتبدي بذلك ردّ فعل بالوصف والتّصوير لكلّ ما أدهشها إن كان ذلك المعجب شخصا بسيطا عاديّا، فما بالك إن كان ذلك الاندهاش نابع من نفس أديب ومفكّر ورحّالة، فلا شكّ أنّ الوصف يكون أدقّ، والتّصوير يكون أروع، والجزائر وما تمتلكه من سمات، وطبيعة، ومناظر خلّابة، أوّلا بحكم موقعها الجغرافيّ الّذي يعطيها لقب عروس البحر المتوسّط، فإنّها سحرت العقول قبل القلوب، فما من زائر لها، أو مارّ بجانبها إلّا واستوقفته ليحلّ ضيفا يجوب ساحلها، وداخلها، وجنوبها، فجمالها شدّ أبناءها الّذين يحيون فيها، جعلهم يصفونها ويطيلون الوصف، إمّا تمجيدا لبطولاتها، وإمّا شوقا وحنينا لكلّ ما تحفل به، حتّى أنّنا نجدهم لا يقدّرون على مفارقتها، ويتمنّون العودة إليها في أوّل فرصة سانحة، هذا عن أبنائها، فكيف هو الحال بمن ليس من أبنائها سواء كانوا عربا أو أجانب، لذا تجد الرّحّالة العرب خصّصوا في وصف الجزائر المجلّدات إعجابا واندهاشا لما تجود به أرض الجزائر من خيرات باطنيّة، أو طبيعتها السّاحرة، أو معالمها الأثريّة، وعلى رأسهم وفي مقدّمتهم الرّحّالة والعلّامة والمفكّر وعالم الاجتماع " ابن خلدون"*

وأوّل إعجاب نسجّله له هو إعجابه بحفاوة الاستقبال، وكرم الضّيافة اللّذان حظي بها أوّل ما وطئت قدماه بجاية قادما إليها من الأندلس، حيث يقول:" ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع فاحتفل السّلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد عليّ من كلّ أوب يمسحون أعطافي ويقبّلون يديّ، وكان يوما مشهودا." [1]

*عبد الرحمان بن خلدون، ولد في تونس 732هـ ، وتوفي سنة 808هـ أهم مؤلفاته المقدمة(ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)

[1] . ابن خلدون . التعريف بان خلدون ورحلته غربا وشرقا . منشورات دار الكتب العلمية . لبنان سنة 2004 . ص 92.

اعتبر الرّحّالة يوم نزوله ضيفا على بجاية، وسلطانها، وأهلها يوما مشهودا لأنّه ربما لم يظنّ أنّ أهلها كرماء يستقبلون ضيفهم أحسن استقبال ويرحبّون به أشدّ التّرحيب، ويقدّرون أهل العلم والفكر والأدب.

هذه هي الحفاوة في الاستقبال الّتي حظي بها الرّحّالة من قبل أهل بجاية، وما إن وصل إلى السّلطان حتّى زاد في إكرامه، فيقول عن ذلك:" وصلت إلى السّلطان فحيّا وفدّى، وخلع وحمل وأصبحت من الغد وقد أمر السّلطان أهل الدّولة بمباكرة بابي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدّمني للخطابة بجامع القصّة."[1]

هذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على ثقة السّلطان الكبيرة في الرّحّالة والتّقدير العظيم منه لعلمه، وأدبه وحسن التّدبير في الأمور، هذا من جهة السّلطان، أمّا من جهة الرّحّالة فهو إعجاب كبير من بأهل بجاية وسلطانها.

ثم كانت محطّته ووجهته الثّانية بعد بجاية مدينة بسكرة * حيث يقول:" قصدت بسكرة لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن منى، وبين أبيه، فأكرم وبرّ، وساهم في الحادث بماله وجاهه."[2]

والملاحظ أنّ الرّحّالة لم يتوقف إعجابه عند حسن استقباله، كذلك من قبل أهل بسكرة، وإنّما يشير إلى معالمها التّاريخية، وخاصّة القصر الشّامخ الموجود بها، وهو قصر بلزمة *، فيقول:" هناك بقايا كنيسة مسيحيّة كانت توجد إلى الشّمال من قصر بلزمة."[3]

---

[1] . ابن خلدون . التعريف بان خلدون ورحلته غربا وشرقا . دار الكتب العلمية . ط1 . بيروت لبنان . 2004 . ص 92.

- بسكرة ضبطها ابن خلدون بالحركات، بفتح الباء والكاف، سين ساكنة، وراء مفتوحة بعدها هاء تأنيث، هي بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب.

[2] . المرجع نفسه . ص 96.

*قصر بلزمة: عبارة عن قلعة كبيرة بيزنطية تتوسط السهل الذي يحمل نفس الاسم . أنظر كتاب سين جيزيل . الآثار القديمة للجزائر ج2 . ص 373.

[3] . محمد الصغر غانم . المظاهر الحضارية والتراثية لتاريخ الجزائر القديم . مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم ج4 . دار الهدى . عين مليلة الجزائر 2011 . ص 390.

وقد طالت زيارة الرّحّالة ابن خلدون لمدن الجزائر، فمن بينها مدينتي المديّة وملیانة وضواحيهما حيث قال بشأنهما، وعن إعجابه بهما:" ولحفظ لتزيري بن مناد مدينة واشين(أشير) للتّحصّن بها سفح الجبل المسمّى تيطرا لهذا العهد."[1]

" ومدينة ملیانة بالحدوة الشّرقية من الشّلف، ومدينة لمدونة (المدية) وهم بطن من بطون صنهاجة، وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط..."[2]

إذن لم يقتصر إعجاب الرّحّالة بمدن الجزائر ما يخصّ طبيعتها، أو حفاوة استقبال أهلها له، وإنّما شمل حتّى إعجابه ببطولاتها، وتاريخها المجيد فهو يعود بالذّاكرة إلى العهد العثماني.

وعن إعجاب الرّحّالة ابن خلدون بمدينة تلمسان جوهرة الغرب الجزائريّ، يقول ابن خلدون:" من أعزّ معاقل المغرب، وأحصن أمصاره خاصّة خلال عهد بني زيّان الّذين اختلطوا بها، القصور المونقة والمنازل الجميلة واغترسوا الرّياض والبساتين، ووصل إليها النّاس من القاصيّة، وتفتّقت بها أسواق العلوم والصّنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر الأعلام، وضاهت أمصار الدّول الإسلاميّة، والقواعد الخلافيّة."[3]

إنّها بحقّ مدينة عريقة عراقة تاريخها، تمتاز بموقعها الجغرافي الّذي يؤهّلها لأن تكون قبلة السّياح والزّائرين الرّحّالة خاصّة، أولئك الّذين لهم حسّ الأديب المرهف، وابن خلدون أحد هؤلاء الّذين شهدوا لها بذلك، حتّى تكون أعزّ معقل في المغرب كلّه، وعلوّها مرتبة بين الأمصار الإسلاميّة والعربيّة قاطبة.

[1] . ودان بوغفالة . التاريخ الاقتصادي لمدينتي المدية وملیانة في العهد العثماني . مكتبة الرشاد . الجزائر ط1 . 2009 . ص 46.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] - ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . ص 14.

ولم يقتصر ابن خلدون في رحلته على المناطق الغربيّة للجزائر، بل جاب مدنها الصّحراوية، أيضا حيث وصف العلاقات التّجارية بين مدن الشّمال، والجنوب قائلا:" فلا بدّ لهم في كلّ سنة رحلة."[1]

ومن بين مناطق الصّحراء الّتي كانت تشكّل نقطة عبور للقوافل التّجارية، منطقة وادي ريغ التّابعة لولاية ورقلة، فإنّها شكّلت هذه المنطقة عصبا حيويّا للتّجارة، ومحورا حرّك عجلتها وعنها يقول ابن خلدون:" وكان وادي ريغ من عمل الزّاب، وفي أقطاع الدّواودة، فكثيرا ما يعسكر عليهم ابن مرني والدّواودة لاقتضاء الجباية، وأكبر ذلك الأمصار تقرت، مصر مستبحر العمران بدويّ الأحوال كثير الميّاه والنّخل."[2]

كان إعجاب ابن خلدون ـ الرّحّالة ـ بمنطقة وادي ريغ يرتكز على الجانب الاقتصاديّ الّذي تلعبه المنطقة، فهي تشكّل ممّر عبور لقوافل تجاريّة من مناطق الغرب الجزائريّ إلى مناطق الجنوب ومنها إلى دول أخرى كالسّودان مثلا.

هذا ما جاء في محاضرة لأحد الأساتذة بأحد الملتقيات عن منطقة وادي ريغ في دورها الّذي تسخّره لتنشيط التّجارة، والحفاظ على مداخيل تضمن العيش المزدهر وتحقّق لسكّانها الرّفاهيّة، حيث قال:" باعتبار وادي ريغ مكانا مأهولا بالسّكّان منذ القدم جعل منها أيضا عصبا حيويّا للمبادلات التّجاريّة تحت السّلطة السّياسيّة الّتي تسعى جاهدة لتنشيط التّجارة، وهذا للحفاظ على مدا خيل تضمن الرّفاهيّة والازدهار لسكّان المنطقة."[3]

فكما استهوت أرض الجزائر الرّحّالة ابن خلدون، نجد الكثيرين من الرحالة العرب قد أعجبوا بها، وأوقعتهم في شباكها وسحرتهم بجمالها، فراحوا يعبّرون عن اندهاشهم من الصّنع الإلهي بهذه

[1] . ابن خلدون .كتاب العبر ....ج7 . ص 77.

[2] . المرجع نفسه . ص 58.

[3] . محاضرة الأستاذ حمزة قونة (غليزان) الملتقى الوطني الأول حول وادي ريغ في عيون الرحالة . تقرت . الجزائر . أيام 15 و 16 ربيع الثاني 1435 هـ / 15 و 16 فبراير 2014 م.

الأرض الطّيّبة، طيبة أهلها، فلم يفتهم لا كبيرة ولا صغيرة، إلاّ ووقفوا متأمّلين صنع بديعها، فأطلقوا العنان للقلب كي يعبّر، وليترجم ذلك الإحساس بالقلم، فيبقى شاهدا على سحر طبيعة الجزائر، وطيبة الأهل، فمن بينهم نجد الرّحّالة المغربيّ المكناسيّ * الّذي يبدي إعجابه بضريح الشّيخ عبد الرّحمان الثّعالبي حيث زاره مع من يرافقه للتّبرك بتربته قائلا:" زرنا تربة الأستاذ البركة سيدي عبد الرّحمان الثّعالبي، فتوجّهنا إليه من وراء سور البلد، وتبرّكنا بتربته المباركة ودعونا الله هناك لما نرجو قبوله."[1]

كما يسجّل الرّحّالة، ويصف إعجابه بمدينة الجزائر العاصمة، بعمرانها، وبنائها المشيّد، والّذي يقول عنه إنّه غاية في التّحصين:" هذه المدينة في غاية التّحصين، والمنعة من البرّ والبحر، فلها سوران والحفير، ومن دون الحفير سور آخر، وبأسوارها الأبراج، والمدافع لناحية البحر."[2]

ثمّ قادت الرّحلة المكناسيّة صاحبها إلى مدينة تلمسان ليحطّ الرّحال بتربة الوليّ الصّالح القطب سيدي أبي مدين شعيب الغوث، وتربة القدوة الصّالح محمد السّنوسي، وبعدها يبدع الرّحّالة في وصف تلمسان قائلا:" مدينة تلمسان هذه مدينة كبيرة مشهورة، كثيرة الميّاه والبساتين، والأجنّة والزّيتون والمستغلّات..."[3]

يبدو أنّ الرّحّالة المكناسيّ قد خصّص رحلته باتجاه الجزائر للأولياء الصّالحين في كلّ منطقة حلّ بها يزور أضرحتها ويقيم بها، فيتبرّك، ويتنفع بها، فبعد الوليّ الصّالح عبد الرّحمان الثّعالبي بالجزائر العاصمة، زار الوليّ الصّالح، القطب اللّامع أبا مدين شعيب بتلمسان، وإن كان يعرّج في كتاباته على

* . محمد بن عبد الوهاب المكناسي . رحلته كانت 1785م

1 . محمد بن عبد الوهاب المكناسي . رحلة المكناسي 1785 م . حققها وقدم لها محمد بوكبوط . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1 . بيروت . 2003 . ص 330.

2 . المرجع نفسه . ص 330.

3 . محمد بن عبد الوهاب المكناسي . رحلة المكناسي 1785 م . ص 331.

وصف ذلك التّحصين الّذي يدور بكل مدن ولايات الجزائر سواء كان ذلك في عاصمتها، أو تلمسان بغربها.

والرّحّالة العرب الّذين أبهرتهم أرض الجزائر، وراحوا يؤلّفون الكثير من الكتب، والمجلدات عن جمالها، وسحر طبيعتها وموقعها بعد أن أعطوها عنوان الرّحلة، ومن هؤلاء الرّحّالة العبد ري * حيث تعتبر رحلته أهمّ مصادر التّاريخ الاقتصاديّ، والاجتماعيّ للمدن المغاربيّة، فكثيرا ما كان يبدي رأيه في البلدان الّتي يمرّ بها في أثناء رحلته، ومن بين المدن الجزائريّة الّتي خصّ لها حيّزا في كتابه الرّحلي، وفي تعبيره عن إعجابه بها، وخاصّة ببناء، وعمران جامعها مدينة مليانة، قائلا:" بها جامع عظيم مليح عجيب، يدعو الشّوق من رآه فيجيب، لكنّ الزّمان قد عوّضه من حليّ عطلا، وأدّى من حكمته خطلا، وأبدل هالته السّهي من تلك الأقمار، وكساه من الحبر الإطمار، وأحلّ حلاله بعد الإنس يؤنسها وحشة الإعمار."[1]

هذا التّعبير وإن كان فيه إعجاب بحسن البناء وروعة العمران الّذي تميّز بها جامع المدينة، إلاّ أنّ العبد ري في آخر قوله أبدى أسفه من عدم إعمار هذا الجامع، فعوض أن يأنس المسجد بالمصلّين فيه أصبحت الوحشة أنيسه الوحيد.

وبعد مدينة مليانة، قصد الرّحّالة العبد ري مدينة وهران، وعن جمالها قال:" مررنا على مدينة وهران وهي مدينة حصينة، بريّة، بحريّة، وهي مرسى تلمسان وأنظارها."[2]

* . هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود (أوسعود) أبو عبد الله الحاجي المشهور بالعبدري نسبة غلى عبد الدار (قبيلة في جنوب المغرب الأقصى) (ت 688هـ / 1289م).

1 . ودان بوغفالة . التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة . مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ط1 . الجزائر 1430هـ / 2009م . عن رحلة العبدري . منشورات كلية الآداب الجزائرية . تحقيق أحمد بن جدو . قسنطينة . ص 22.

2 . محمد العبدري البلنسي . رحلة العبدري . حققها علي ابراهيم كردي . قدم لها الدكتور شاكر الفحام . دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ط2 دمشق 2005م . ص 45.

يبدو أن التّحصين، والأسوار المشيّدة المحيطة بأغلب المدن الجزائريّة قد شدّ كلّ مارّ بها وعلى الأخصّ الرّحّالة الّذين كانت لهم وقفات بمعظمها، حيث جلبتهم تلك الأسوار ببنائها الفريد من نوعه، فلربّما يكون الوحيد فلا يوجد له نظير في كلّ الأمصار، حتّى جعلتهم يصفونها وينعتونها بمختلف العبارات الدّالة على وقوفهم في حيرة من زخرف الأشكال وإتقان البنيان، ومصوّرين إعجابهم واندهاشهم أمام بديع الصّنع بشتّى الألفاظ دون شعور منهم.

ليشدّ الرّحّالة العبد ري نحو مدينة تلمسان، عروس الغرب الجزائريّ، حيث خصص لها جزءا كبيرا من رحلته، ووصفها بأدقّ التّفاصيل، ولم يغفل عن أيّ شيء فيها، وأوّل ما قال عنها، وعن إعجابه بها:" أغرب ما شاهدته من منصور صاحب مليكش، وهو أنّ جماعة من الحجّاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلّته عند بيته، فكلّموه في عشائهم، فرحّب بهم."[1]

ولم يتوقّف الرّحّالة العبدري عند وصف إعجابه بترحيب الرّجل بالحجّاج، بل أضاف قائلا:" ثمّ أخذ ينادي يا أهل الدّوار: هؤلاء ضيوف الله من يحمل منهم إلى بيته واحدا."[2]

إذن حفاوة استقبال التلمسانيّين للضّيف، وترحيبهم بضيوف الرّحمان، كان لها القسط الوافر في إعجاب الرّحّالة، ولها نصيب في ذكرها في رحلته.

وهكذا يواصل الرّحّالة في وصف تلمسان، وإعجابه بها كونها أرض خصبة، مأهولة بأناس طيّبين ذوو أخلاق يرتاح إليهم الغريب قبل القريب، فيقول في ذلك:" تلمسان كبيرة سهليّة جبليّة جميلة المنظر، مقسومة باثنين بينهما سور، ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة، وأهلها ذوو ليانة، ولا بأس بأخلاقهم."[3]

[1] . محمد العبد ري البلنسي . الرّحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . منشورات بونة . للبحوث والدراسات ط1 الجزائر. 2007 . ص 27.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص 28.

تلمسان مهد الحضارات، وأرض الكرامات، وروض الصّالحين والأوليّاء، فمن يزور تلمسان إلاّ وتكون له وقفة بقبر الوليّ الصّالح أبي مدين شعيب الغوث رحمه الله، ورضي عنه ورزقنا بركته، والرّحّالة العبد ري كانت له زيارة إلى هذا العلم، فقال عنه:" من أشهر مزارات تلمسان قبر الصّالح القدوة، فرد زمانه أبي مدين رحمه الله."[1]

وأمّا عن وصف وإعجاب الرّحّالة بهذا الضّريح، وما يحيط به من كروم وثمار، فيقول:" عليه رباط مليح مخدوم مقصود والدّائر بالبلد كلّه مغروس بالكرم، وأنواع الثّمار، وسوره من أوثق الأسوار وصحّتها."[2]

وعن حمّامات تلمسان المعدنيّة الّتي يقل أن يكون لها نظير في أيّ منطقة أخرى غيرها، يقول العبد ري في رحلته:" بها حمّامات ومن أحسنها وأنظفها حمّام العاليّة، وهو مشهور قلّ أن يرى له نظير."[3]

لا يزال الرّحّالة يجول بمنطقة تلمسان ويشيد بجمالها ويبدي إعجابه بها، وبما تفخر به، وما جعلها من أعزّ الأمصار وأشهرها، وهذه المرّة ينتقل الرّحّالة إلى ركن آخر من أركانها، حيث يشيد بدور العلم والعلماء بها وما لفت انتباهه، وكان له حظّ في إعجابه، وترك له مكانا في رحلته العلّامة الفقيه الحكيم الجليل " أبو عبد الله محمد بن عمرو بن محمد بن خميس، حيث قال بشأنه:" كان له عناية بالعلم من قلّة الرّاغب فيه والمعين عليه، وحظّ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشّعر."[4]

هو إعجاب ما بعده إعجاب، فقد احتلّ الفقيه في صفحات الرّحلة مكانا لا يستهان به، وبحقّ كان ذلك حسب ما قاله الرّحّالة عنه، كيف لا هو الفقيه العالم قارض الشّعر، فقد جمع الرّجل بين فنون العلم من أدب وفقه وشعر.

[1]. محمد العبدري البلنسي. الرحلة المغربية. تقديم سعد بوفلاقة. ص 28.

[2]. المرجع نفسه. ص نفسها.

[3]. المرجع نفسه. ص نفسها.

[4]. المرجع نفسه. ص 30.

ثمّ يختم الرّحّالة زيارته لتلمسان دون أن ينسى ذكره لابن خميس، وعن إعجابه به قال فيه: " أعجبني ذهنه وحاله، فإنّي وجدته على حال انزواء وتقلّل من الدّنيا."[1]

هكذا يكون طالب العلم، وقارض الشّعر عادة، يزهد الدّنيا الفانيّة ليتفرّغ لعبادة ربّه، وإن كانت له ميول أخرى كهذا الرّجل الّذي كان له جانب من الشّعر يقرضه، ولاشكّ أنه خصّ موضوعاته في هذا الباب عن كان غير ذلك فلابدّ أنّه خصّصه لوصف بلده تلمسان، وهكذا يكون العالم الفقيه الجليل بعيدا عن انشغالات الدّنيا حتّى يتسنّى لذهنه أن يصفى من كلّ المغريّات الّتي تلهيه عن عمله الجادّ.

ثمّ أنّ الرّحّالة يذكر من لقيه بتلمسان، وهو أبو زكرياء يحي بن عصام، رجل متقلّل متعفّف، له حظّ من اللّغة، وهو قارض للشّعر، وهو جار بن خميس، ومن بعض نشيده يقول:

أَلَا أَعْلَمُ بِأَنَّ الْمَوْتَ كَأْسُ مَرَارَةٍ عَلَى كُلِّ مَنْ قَدْ رَاحَ فِيهَا وَمَنْ غَدَا

وَعَصَبُ رُسُـــــومٍ شِيَعُ الْوَرَى وَمَا رَأَى يَوْمًا بَعْدَ مَا شِيمَ مُغْمَــدَا [2]

ويغادر الرّحّالة العبدري تلمسان وفي ذهنه انطباع جيّد عنها، فقد أعجب بكلّ شيء فيها، سواء كانت طبيعتها الّتي هي من صنع الخالق أو ما خلّده سكّانها بها من مباني وعمران، ومعالم أثريّة،وحمّامات، وأضرحة لأوليائها الصّالحين.

يزيد إعجاب الرّحّالة العبد ري بأرض المليون ونصف من الشّهداء كلّما حطّ الرّحال بإحدى مدنها، ومنها الجزائر العاصمة والتي لم يترك لفظا في وصفها إلاّ سخّره لتصوير جمال المنطقة، حيث

[1] . محمد العبدري البلنسي . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 31.

[2] . المرجع نفسه . ص 43.

يقول: " هي مدينة تستوقف بحسنها ناظر النّاظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حازت مزيّتي البر والبحر وفضيلتي السّهل والوعر."[1]

كما لا ينسى الرّحّالة أن يعبّر عن إعجابه بعمران المدينة، وتلك البصمات الخالدة المعبّرة عن معالمها الأثريّة، وعن الحضارات المارّة بالمنطقة، حيث يقول في ذلك:" لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل يسرح الطّرف فيها حتى يملّ."[2]

وهكذا يواصل الرّحّالة رحلته عبر أرجاء مدن الجزائر، ويبرع في وصفها لكلّ ما رأت عيناه وسحرت لبّه، فيقول عن مدينة بجاية، وعن الجامع المشهور فيها:" لها جامع عجيب منفرد في حسنه غريب من الجوامع، فهو غاية في الفرجة والأنس، ينشرح الصّدر لرؤيته، وترتاح النّفس."[3]

وأمّا عن أهل المنطقة، وتعلّقهم بقواعد الإسلام، وتخلّقهم بالأخلاق الفاضلة، فيقول:" هذا البلد بقيّة قواعد الإسلام، ومحلّ حلّة من العلماء والأعلام وله مع حسن المنظر طيب المخبر ومع الرّأي الرّائق المعنى الفائق، ومن الحصانة، ووثاقة البنيان ما رأى بارم وغمدان، ولأهله من حسن الخلق والأخلاق من أنبأ من طيّب الهواء، والماء، والتّربة، والأعراف."[4]

لم يتوقّف إعجاب الرّحّالة على مناظر المنطقة من طبيعة، ومآثر خالدة البنيان والعمران، وإنّما تعدّى في إعجابه إلى مشايخ البلد، وأئمّتها، وتعلّقهم بالدّين والعلم والأدب، أمثال الفقيه الخطيب الصّالح المسند الرّواية على حدّ تعبيره، أبي عبد الله محمد بن الصّالح بن أحمد الكناني الشّاطبي حفظه

[1] . محمد العبد ري البلنسي . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 47.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 49.
[4] . المرجع نفسه . ص 50.

الله، حيث قال عنه: " هو شيخ على سنن أهل الدّين سلك سبيل المهتدين، مقبل على ما يعنيه مشتغل بعمر في طاعة الله يفنيه، دأبه الاقتصار على تجويد الكتاب والتّردد ما بين بيته والمحراب."[1]

ومن المدن الّتي زارها الرّحّالة، واعترف بعجز اللّسان عن وصفها لإتقان مبانيها، وعمرانها المحكم مدينة قسنطينة، بلد العلم والأدب، فيقول فيها الرّحّالة العبد ري:" بها للأوائل آثار عجيبة، ومبان متقنة الوضع، غريبة، وأكثرها من حجر منحوت، يعجز الوصف إتقانه ويفوت، وقد دار بها واد شديد الوعر، بعيد القعر أحاط بها كما يحيط السّوار بالمعصم، ومنعها النّوق الأعصم."[2]

يا لروعة الوصف والتّعبير، لا أدري أهو كلام الأديب، وحسن التّعبير، وإجادة التّصوير، أم هي المنطقة بسحرها الّذي يجعل اللّسان ينطق دون مقدمات ولا افتتاحيات.

الظّاهر أنّ الرّحّالة لم يكتف بكونه أديبا ناثرا، بل تعدّى إلى الشّعر، وأيّ تعبير عما تراه العين ويحسّه القلب أصدق من القريض بالشّعر لأنه يخاطب القلب قبل العقل، وهذا هو الأديب بحقّ من كان يحسن الجانبين معا (شعرا ونثرا)، فراح الرّحّالة يصف ويصوّر ويعجب ويتعجّب من كلّ ما رأت عيناه في أرض الجزائر، وذلك بواسطة الشّعر، فيقول:

وَوَافَيْنَا تِلِمْسَانَ فَأَبْــدَتْ عَلَى أَهْلٍ مَضَوا شَجْوَ النَّعِيِّ

كَذَا مَلْيَانَةَ أَبْدَتْ عَوِيــلَا لِأَهْلِ ضَمِّهِمْ حَــرْفَ الْأَثِيِّ

وَرُحْتُ إِلَى الْجَزَائِرِ ذَا سُؤَالٍ فَقِيلَ سَأَلْتُ عَنْ هِيَ بْنَ بِي

وَقَالَ لِي بِجَايَةُ أَنْتَ خِلْــوٌ فَيَا وَيْحَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ

وَجِئْتُ بَنِي وَرَّارٍ وَهِيَ عُمْرِي أَثَارَتْ كَامِنَ الشَّجْنِ الْخَفِيِّ

[1] . محمد العبد ري البلنسي . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 50.

[2] . المرجع نفسه . ص 61.

وَمِيلَةَ لِمَ تَمَلَّ عَنْ نَهْجِ نُصْـحٍ أَصِخْ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ سَنِيِّ [1]

وَمَنْ شَاءَ الْحَدِيثَ فَقُلْ قَسَنْطِي نَةُ تَـــرْوِي حَدِيثِ الْمَغْرِبِيِّ

وَبُـــونَةُ قَدْ أَبَانَتْ مَنْ أَبَانَتْ صُرُوفَ الدَّهْرِ مَنْ سَامَ سِرِّي

وَفِي خُـــولَانَ أَطْرَقْتُ اعْتِبَارَا جَرَى الْوَادِي فَطْمَ عَلِيَّ الْمَقَرِّي

وَبَـــاجَةَ بِالْبَوَائِحِ قَدْ أَبَاحَتْ وَسَلْ رَوْضَهَـــا مِنْ بَعْدِ رَيِّ

ومن أمثال العبدري الّذين ترجموا رحلاتهم في الوصف والتّصوير لكلّ الأماكن الّتي زاروها،"ابن الفكّون"* وقد نظم أبياتا في أثناء رحلته من قسنطينة إلى مرّاكش، ذكر فيها المدن الّتي قطعها فيقول:

لمّاَ جِئْتُ مَلْيَانَةَ خَيْرَ دَارٍ أَمَالَتْـــــــنِي كُـــلَّ رَيْثًا بِّي

وَكَمْ أَوْرَتْ ظِبَاءُ بَنِي وَرَّارٍ أَوَارَ الشَّوْقِ بِالرِّيـــــقِ الشَّهِيِّ

وَجِئْتُ بِجَايَةَ فَجُلْتُ بُدُورًا يُضِيفُ بِوَصْفِهَا حَرْفَ الرَّوِيِّ

وَفِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ هَامَ قَلْبِي بِمَفْعُـــــولِ الْمَرَاشِفِ كَوْثَرِي [2]

وَفِي مَلْيَانَةَ قَدْ ذُبْتُ شَوْقًـــا بِلِينِ الْعَطْـفِ وَالْقَلْبِ الْقِسِيِّ

وَفِي وِهْرَانَ قَدْ أَمْسَيْتُ رَهْنًا لِظَامِي الْخَضْرِ ذِي رِدْفِ رَوِيِّ

وَأَبْدَتْ تِلِمْسَانَ بُـــــدُورًا جَلَبَنِي الشَّـوْقُ لِلْقَلْـبِ الْخَلِيِّ

[1] . محمد العبدري البلنسي . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 61.

- أبو علي الحسن بن علي بن عمر القسنطيني.

[2] . محمد العبدري البلنسي . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 61

وصل وصف وإعجاب الرّحّالة العبد ري إلى ما كتبه شعراء الجزائر من قصائد في أيّ موضوع كان ومن أمثال ذلك تعليقه على قصيدة بن خميس التّلمساني البائيّة، إذ قال عنها:" هذه قصيدة مهذّبة الألفاظ والمعاني، وألذّ من نغمات المثالث والمثاني."[1]

وكما يقول المثل الشّعبي: " كل طير يغنّي بغناه " مثل ينطبق على هؤلاء الرّحّالة الزائرين أرض الجزائر، فراحوا يدقّقون النّظر، ويتأمّلون ويترجمون ما رأوه فيها وصفا واندهاشا وإعجابا، فهذا القلصادي يتّجه نحو تلمسان ليلقى مشايخها، لأخذ العلم عنهم، فتصدّى للتّدريس، وكان يحضر دروسه عدد غفير من الطّلبة يدرسون عليه ويتدارسون بعض الكتب الّتي ألّفها."[2]

ويتعدّد الرّحالة الّذين وطئت أقدامهم أرض الجزائر، فهذا العيّاشي * أحد الرّحّالة المغاربة الّذين كان لهم الحظّ في زيّارتها، كيف لا وهي تعدّ نقطة عبور بالنّسبة إليهم إلى بلدان أخرى في المشرق أي إن أرادوا زيارة أيّ بلد في الضّفة الثّانية، حيث يمرّ العيّاشي بتربة الوادي، وهو نصف الطّريق بين الزّاب و(سيدي عقبة)*

وعن زيارة العيّاشي لضريحه يقول:" عليه مسجد عجيب حوله قرية كبيرة في وسط هذا البسيط،وفي مسجده مئذنة كبيرة متقنة البناء، وفي أعلاه عمود."[3]

[1] . علي ابراهيم الكردي . من أدب الرحل المغرب والأندلس . الهيئة العامة السورية للكتاب 2013 . ص 105 . عن الرحلة العبدرية . ص 58.

[2] . القلصادي . تمهيد الطالب ومنتهى الراهب إلى أعلى المنازل والمناقب . ص 74.

- العياشي هوأبو عبد الله بن محمد العياشي.
- هو عقبة بن عامر التابعي الذي فتح بلاد إفريقية وبنى مدينة القيروان.

[3] . العياشي . الرحلة العياشية . 1661 . 1663 . حققها وقدم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي . دارالسويدي للنشر . أبو ظبي ط1 2006 . ص 539.

وعن زيارة أبي الفضل وقبره، يصف مئذنة المسجد، فيقول عنها:" هي في غاية الإتقان، والطّول والسّعة تقدر الدّابة على الصّعود إليها بحملها، وأدراجها مائة وأربعة وعشرون درجة، والمسجد في غاية السّعة وإتقان البناء."[1]

ويضيف في وصف المدينة وجمالها، وجمال العمران فيها، وزرعها، وأشجارها، فيقول:" هي ذات نخيل كثير وزرع كثيف، وزيتون ناعم، وكتّان جيّد، وماء جار في نواحيها...إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول."[2]

وهكذا يصف العيّاشي أرض بسكرة الخصبة الّتي تصلح لزرع أيّ نبات، وأيّة أشجار من مختلف الأنواع، وشتّى الفصائل، حتى أنّه يقول من فرط الإعجاب والاندهاش بها:" ما رأيت في البلاد الّتي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب المعاش."[3]

وعن رجال العلم يقول العيّاشي:" لقيت بها في سنة تسع وخمسين رجلا من الصّالحين ممّن جمع بين العلم والعمل والزّهد والورع وصدق التّوجه إلى الله واسمه سيّدي بوطيّب نصير، لم تر عيني قبله ولا بعده أمثل منه في هديه وسمته، تخشع القلوب لوعظه، وتلين لكلامه ولو كانت أقسى من حجر."[4]

إذن لم يقتصر وصف وإعجاب الرّحّالين بالمناطق من النّاحية الجغرافيّة والطبيعيّة، أو حتى المآثر والمعالم الأثريّة، وإنّما أضافوا إلى هذا الإعجاب إعجابا آخر ومن نوع آخر، إعجابهم بالفقهاء والعلماء والمشاهير، والمشايخ، ومن رجال الدّين، والعلم، والأدب.

[1] ـ العياشي . الرحلة العياشية . 1661 . 1663 . حققها وقدم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي . ص 540.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

وكذلك كان إعجابهم بعادات وتقاليد المناطق التي يقومون بزيارتها، كذكرهم المرابط، وهي من أولياء الله الصّالحين، حيث يجعله النّاس حكما لا ينكره أحد، وينظر إليه الرّجل الّذي يخرجهم من المآزق ويفرج عنهم كربهم.

بالإضافة إلى الزّوايا والّتي اتّخذت محلّا للعبادة، ومنتدى للثّقافة، ومأوى للسّلم، يأتيه النّاس من الضّواحي القريبة والبعيدة، وهي منزل راحة المسافر، ويتمّ كلّ ذلك تحت رعاية شيخها، والّذي تتعدّد أدواره، وأبرزها إصلاح ذات البين. وعلى سبيل المثال زاوية عبد القادر الجيلاني، وزاوية وضريح عبد الرّحمان الثّعالبي بالجزائر العاصمة، وغيرها من المدن الجزائريّة، فلكلّ مدينة زواياها.

ولم يغفل الرّحّالة العرب عن وصف تلك الزّوايا، وما يجري فيها من دروس وحلقات للعلم، وجمع للأموال لبناء المساجد، وقد أشادوا بفضلها كالرّحّالة المصري عبد الباسط بن خليل، والحسن الوزّان (ليون الإفريقي*)[1] وهذا الأخير في كتابه (وصف إفريقيا) عقد مقارنة بين مدينة مليانة ومدينة نارني (Narni)* الايطالية القريبة من روما ووجه الشّبه بينهما حسب ما أورده يكمن في" منحدر يبدأ من أعلى الجبل..."[2]

كما يواصل الرّحّالة وصفه لمدينة مليانة وإعجابه بها:" هي مدينة محاطة بأسوار عالية، عتيقة، وبها دور متقنة الصّنع في داخلها كلّها سقايات جميلة."[3]

وأمّا عن حفاوة الاستقبال فيجيد " الوزّان" بكرم أهل المدينة، حيث قضى بينهم قرابة شهرين من الزّمن وقد ارتاح إليهم، وانبسط معهم، وعزم على البقاء والعيش بينهم، فيقول:" فقد حصلت في

* . الوزان الفاسي حسين بن محمد (ت 957 هـ / 1550 م)

1 . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي ج1 . دار البصائر ط6 . الجزائر 2009 . ص 274 . عن الحسن الوزان . وصف إفريقيا 2/ 334.

- تقع شمال شرق مدينة روما على بعد حوالي 90 كلم.

2 . ودان بوغفالة . التراريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة . مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ط1 الجزائر 2009 . ص 40 . عن الحسن الوزان وصف إفريقيا . ص 35.

3 . المرجع نفسه . ص ذاتها.

هذين الشّهرين على عشرات المثاقيل، بضائع ونقود، وماشية حتّى هممت أن أستقرّ بهذه المدينة لولا اضطراري إلى مغادرتها بسبب المهمّة التي كلّفني بها مولاي."[1]

كما لا ينسى **الوزّان** أن يفخر ويصف طبيعة المدينة، ولباس أهلها، فيقول:" هي ذات سهل خصيب مياهه متدفّقة، وبساتينه متعدّدة، إذ مرّ بها المسافر فيكاد سكّانها يحبسونه بالقوة."[2]

كما يضيف:" هم أثرياء لأنّهم ينحدرون مع نوميديا، ويرتدون لباسا أنيقا، ويسكنون دورا جميلة."[3]

هكذا حازت مدينتي المديّة ومليانة على إعجاب **الوزّان**، وخصّص لهما قسطا وافرا من رحلته والّتي كانت بعنوان "وصف إفريقيا".

وبعد هاتين المدينتين استحوذت مدينة تاهرت على عقول الرّحّالة العرب، ووصفوها حيث اعتبرها اليعقوبي جليلة القدر، فقال عنها:" مدينة تاهرت جليلة القدر، عظيمة الأمر، تسمى عراق المغرب."[4]

وبعد ذلك أشار اليعقوبيّ إلى القوم الّذين يسكنون تاهرت، وكيف أنّهم خليط من الفرس، حيث أنّ من أسّس الدّولة الرّستميّة، واتّخذ عاصمتها مدينة تاهرت، هو عبد الرّحمان بن رستم الفارسيّ.

ثمّ يواصل اليعقوبيّ حديثه عن مدينة تاهرت مدينة العلم والأدب والفكر، وحيث يصف طبيعتها الخلّابة وعن مختلف الزّروع والأشجار والغلّات الموجودة بها، يقول:" هي مدينة كبيرة آهلة بين جبال

[1] . ودان بوغفالة . التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة . ص 41

[2] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[4] . يحي بوعزيز . تاريخ الجزائر ج1 (الجزائر القديمة والوسطية) . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . 1995 . ص 101.

وأوديّة ليس لها فضاء، بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاثة مراحل في مستوى من الأرض، وواد يقال له واد الشّلف، وعليه قرى، وعمارة يغيض كما يفيض نهر النّيل."[1]

وعن خيرات وغلّات المنطقة، يقول اليعقوبيّ: " يزرع فيها القصب، والكتّان، والسّمسم، وغير ذلك من الحبوب."[2]

ما أجمل هذه الأرض، وأروع ما يوجد فيها، وهي أرض الجزائر الغنّاء الغنيّة بشتّى أنواع المنتجات الفلاحيّة، زرعتها أيدي الفلّاحين البسطاء حتّى جعلت كلّ من يمرّ بها تسحر عقله، وتأسر قلبه خاصّة الرّحّالة العرب الّذين جابوا، وصالوا وجالوا في مدنها، زاروا كلّ شبر في أقطابها الأربعة، فراحوا يصفونها، ويبدعون في ذلك، ويجيدون التّصوير ويفيضون، فهي بحقّ أرض خيّرة لا تنجب إلاّ الأخيار جديرون بالوصف، بل كلّ الوصف، وإن صحّ التّعبير فإنّنا نقول: هي أحسن وأجمل بكثير مهما قالوا عنها فلن يوفونها حقّها، فكما عبّر أحدهم قائلا يعجز اللّسان عن وصفها، وتغيب العبارات، بل تفتقد في وصفها وتصويرها.

[1] . يحي بوعزيز . تاريخ الجزائر ج1 (الجزائر القديمة والوسطية) . ص 102.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

المبحث الثالث: الجزائر في إشارات الرحالة المسلمين:

ينظر الإسلام إلى نشاط الرّحلات والدّعوة إليها نظرة تحفيز، وتشجيع وتنشيط، وقد ذكرت الرّحلة في القرآن الكريم، في قوله تعالى:" لإيلاف قريش إلا فهم رحلة الشّتاء والصّيف."[1]

ويذكر صلاح الدّين الشّامي صاحب كتاب (الرّحلة عين الجغرافيا المبصرة) أنّه: " لأنّ الإسلام دين حضاري متنوّر، ودولة متفتّحة، ولأنّ التّحضر أو التّفتح يكفل التّقدم، ويؤمّن حركة الحياة، ويدعّمها ويبشّر بحياة أفضل، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرّحلة وتحمّسوا لها، بل التهب نشاط الرّحلة الإسلاميّة في إطار اهتمام رشيد مطمئنّ، وتحوّلات تبشّر بحياة أفضل وحصاد وفير."[2]

لهذا أخذ الرّحالة المسلمون يجوبون الدّيار، ويقطعون المسافات داخل العالم الإسلاميّ، وخارجه ويسجّلون في مذكراتهم عن المدن الّتي يزورونها، وأحوال النّاس فيها، وما يقومون به من نشاطات وحرف ومهن، وتجارة، وما لفت انتباههم من آثار عمرانيّة، ومظاهر جغرافيّة، وأخرى حضاريّة فغدت كتاباتهم ومؤلّفاتهم مصادر أوليّة لا يمكن لأيّ أحد من الباحثين أن ينكر فضلها وأهميّتها فيعود إليها وقت الحاجة، أو في أثناء البحث، ومحاولة الكشف عمّا خفي عنه عن تلك الأقوام.

ومن أمثال هؤلاء الرّحالة الّذين جابوا أرجاء الجزائر، ولفتت انتباههم، فما وجدوا بدّ من أن يصوّرون ويبدعون التّصوير، ويصفون ويدقّقون الوصف، ذلك الرّحالة الإيراني الأصل ياقوت الحموي* حيث في حديثه عن مدينة مليانة أكّد أنّ من أسّسها الرّومان، فيقول:" مدينة في آخر إفريقيّة بينها

---

[1] . سورة قريش . الآيتان 1 و2 .

[2] . عبد الله بن أحمد بن حامد . رسالة ماجستير(أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية) . ص 69 . عن صلاح الدين الشامي . الرحلة عين على الجغرافيا المبصرة . ص 107.

- ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله (574هـ / 1178م . ت 626هـ / 1229م) صاحب معجم البلدان.

وبين تنس أربعة أيام، وهي مدينة روميّة قديمة فيها آبار تطحن عليها الرّحى، جدّدها زيري بن منّاد وأسكنها بلكين."[1]

وعن المدينة نفسها، ذكرها القزوينيّ* حيث قال بشأنها :" مليانة مدينة كبيرة بالمغرب من أعمال بجاية مستندة إلى جبل زكّار، وهي كثيرة الخيرات وافرة الغلّات، مشهورة بالحسن والطّيب، وكثرة الأشجار، وتدفّق المياه."[2]

ويضيف القزوينيّ في وصف المدينة، وعن جمالها، وما تزخر به من ثروات باطنيّة، وخيرات طبيعيّة وانتاجيّة من صنع سكّانها، فيقول عن جبل زكّار:" مياه المدينة تتدفّق من سفحه، وهذا الجبل لا يزال أخضرا صيفا وشتاء، وأعلى الجبل مسطّح يزرع، وبقرب المدينة حمّامات لا توقد عليها، ولا يستقي ماؤها، نبت على عين حارّة عذبة الماء يستحمّ بها من شاء."[3]

هكذا ترجم الرّحّالة القزوينيّ إعجابه بمدينة مليانة الشّهيرة بهوائها الّذي ينعش كلّ من استنشقه المعروفة بتلك الحمّامات الّتي يشفي ماؤها العليل، ويستأنس بجبلها الغريب، بمياهه المتدفّقة من جبلها فتطرب أحاسيسه قبل أذنيه، فما من أحد بلغته عبارات القزوينيّ في وصف جمال مدينة مليانة، إلاّ ورغب في زيارتها دون شكّ، إن أسعفه الحظّ، ليمتّع نفسه بذلك الجمال الأخّاذ.

وعن الجبل نفسه ـ جبل زكّار ـ يتحدّث الرّحّالة شاو توماس(Shaw Thomas) * واصفا إيّاه بأفضل ما عنده من عبارات، ومصوّرا جماله في أبهى حلّة، ومؤكّدا ذلك بقوله:" تتمتع مليانة بمنظر طبيعي ساحر، حيث تتدفّق بها المياه في الشّمال الغربيّ لجبل زكّار، وهي محاطة ببساتين وحدائق

[1] . ياقوت الحموي . معجم البلدان . دار صادر بيروت ج5 1984 . ص 196.

- زكرياء بن محمد بن محمود القزويني (605 هـ / 1203م . ت 682 هـ / 1283 م).

[2] . القزويني . آثار البلاد وأخبار العباد . دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت 1979 . ص 273.

[3] . المرجع نفسه . ص 273.

* . شاو توماس رجل دين تركي (1692 / 1751) تحدث في كتابه " رحلة في إيالة الجزائر عن مدينتي المدية ومليانة في الفصل السابع من الجزء الثاني، وسجل جميع ملاحظاته عنهما.

جميلة، وأجمل منظر هو ذلك الّذي نراه بأراضي قبيلة جندل ومطماطة، وباقي القبائل العربيّة إلى غاية مدينة المديّة."[1]

ثم يتوغّل الرّحّالة داخل مدينة مليانة عمقا في التّاريخ، بداية باسمها الحقيقيّ، فشكل منازلها وكيفيّة بنائها، وإن كانت لا تروق له:" إنّ من سمّى مليانة بهذا الاسم سكّانها، واسمها الحقيقيّ "منيانة"، وهي لا تعدو أن تكون قرية صغيرة، فبيوتها مغطّاة بالقرميد بدل السّطوح حسب العادة الجاريّة في البلد، ويظنّ من يراها من بعيد أنّ بها بنايات جميلة، وعدّة آثار قديمة، وهي دون ذلك باستثناء بعض الآثار العمرانيّة الرومانيّة."[2]

الملاحظ أنّ الرّحّالة، وإن سجّل إعجابه بمناظر مدينة مليانة ذات الجبال الشّاهقة ، والأشجار الباسقة، والحدائق الرائقة، والمياه المتدفّقة، إلاّ أنّنا نجده إزاء منازل المدينة يقف متحيّزا للعمران الرومانيّ الّتي بدت له جميلة على خلاف منازل العرب في مليانة، حتّى أنّه يعمّم الظّاهرة في أغلب المدن الجزائريّة الّتي قام بزيارتها فتبدو له منازلها متشابهة البناء ذات سطوح من القرميد الّتي لم تبهجه ولم تترك في نفسه انطباعا حسنا، فيقول:" وجه الشّبه بين مدينة مليانة ومدينتي البليدة والمديّة هو بناء المنازل بسطوح مستويّة، حيث تحيط بها بساتين ومساكن رائعة."[3]

هكذا كان انطباعات الرّحّالين المسلمين عن مدن الجزائر إمّا إعجابا بالمناظر الطبيعيّة، والمواقع الجغرافيّة، والجوانب التاريخيّة، وإمّا تأسّفا على عدم الرّقي في البناءات، والعمران الرائع، إلاّ ما يجمّل وجه المدن الجزائريّة ذلك العمران الرومانيّ، والّذي حسب تعبيرهم هو الوجه المشرف لأغلب المناطق وأعتقد أن بعضهم على خطأ في حكمه، لأنّ ما من مجتمع وإلاّ وله رجاله، ولكل فرد في المجتمع وإلاّ

[1] . ودان بوغفالة . التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة في العهد العثماني . ص 55.

[2] . ودان بوغفالة . التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة في العهد العثماني . ص 55.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها

له دور في تغيير وجه مجتمعه باعتباره كائن حيّ له نشاطاته، وميوله، واتّجاهاته فلا بدّ وأن يترك له بصمة تدلّ على وجوده.

الفصل الثاني

صـــــــورة الجزائـــــر فـــي عيون الرحالة الأجانب

كانت الرّحلات الّتي يقوم بها الرّحّالة العرب والمسلمون إلى مختلف البلدان، إمّا بغية التّعرّف والكشف والاستطلاع، وإمّا للوصف والإعجاب، وإمّا لمجرد السّيّاحة وراحة البال، حيث كانوا يجوبون الدّيار ويقطعون المسافات داخل العالم الإسلاميّ، وخارجه، ويسجّلون انطباعاتهم عن المدن وأحوال النّاس فيها وما يحيط بهؤلاء الأقوام والبلدان حول حياتهم الاجتماعية، أو السّياسيّة، أو الثقافيّة، أو الفكريّة، أو حول عاداتهم وتقاليدهم، أو معالمهم الأثريّة، بصفة عامّة ما يراه هؤلاء الرّحّالة بأمّ أعينهم، أو ما تناقل إليهم من أخبار أي ما سمعوه، وما رووه لهم، أو ما لفت انتباههم من آثار عمرانيّة، أو مظاهر جغرافيّة في المحيط الواسع، حتّى تصبح مؤلّفاتهم وكتاباتهم الرّحلية . إن صحّ التّعبير . مصادر أوليّة لا يمكن لأيّ باحث أن يتغاضى عنها أو ألّا يعيرها اهتماما، بحيث لا يمكن لأيّ أحد أن ينكر أهميّتها، وفي ذلك يقول ناصر الدّين السّعدوني: " فغدت مؤلّفاتهم مصادر أوليّة ليس هناك من الباحثين المنصفين أن ينكر أهميّتها، ودورها الحيويّ الأساسيّ أحيانا والتّكميلي أحيانا أخرى في بناء الواقعة التّاريخيّة ."[1]

هذا عن الرّحلات العربيّة والإسلام تي داخل الجزائر، وما تزخر به من معالم أثريّة، ومناظر طبيعيّة خلّابة، تجلب نظر الإنسان العاديّ قبل أن يكون أديبا تعوزه الملكة الأدبيّة من خيالات وانطباعات واسعة في تصوير ما لفت انتباهه.

أمّا عن الرّحّالة من غير المسلمين الّذين لم يفوّتوا الفرصة في زيارة الجزائر إن سنحت لهم، فقد لا يكون وصفهم لها لمجرد الإعجاب والاندهاش، وإنّما بدافع آخر بحيث تكون مصادرهم غير كافية لاتّخاذها مصادر أوليّة يمكن العودة إليها لدراسة تاريخ ذلك البلد، فمثلا يكون وصفهم للبلد المزار بغية التّعرف على ممتلكاته

وما تزخر بهّ من خيرات باطنية، ومواقع جغرافيّة، وفنون قتاليّة، وخطط حربيّة، حتّى يمكن اتّخاذها كمعسكرة وموطن للاستيطان، أي استعمارها. فهناك من الرّحّالة الأجانب الّذين زاروا الجزائر، وكانت لهم ملاحظات

[1] . ناصر الدين السعدوني . ورقات جزائرية . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني . دار الغرب الإسلامي . بيروت ط 1 2000 ص 63.

مميّزة، ووقفات مغايرة لتلك الّتي تعطيها المصادر العربيّة والإسلاميّة، بحيث:" ظهرت كتاباتهم إمّا على شكل مذكرات شخصيّة، أو تقارير للبعثات الدبلوماسيّة، أو تقارير لرهبان وقساوسة جاؤوا في ظروف مختلفة إلى الجزائر قبل عام ألف وثمانمائة وثلاثين."[1]

معنى ذلك أنّ كشوف الرّحّالة الأجانب مهما كان نوعها جغرافيّة، أو تاريخيّة، أو غيرها فما هي سوى فتوح استعماريّة لتحقيق أطماعهم في احتلال الجزائر، فتلك الزّيّارات كانت بعيدة كلّ البعد عن روح العلم والكشف والبحث والتّعرف، بل كانت تمهيدا للاستعمار بكلّ أشكاله، وإن ك نّا لا نغفل بعض الإسهامات الايجابيّة للرّحّالة الأوروبيّين بتقديم معلومات مفيدة، كما جاء في كتاب جزيرة العرب:" وقد لا يحتاج القارئ إلى السّير معها . في ثنايا الكتاب . لإدراك الجوانب المهمّة من نتائج الرّحلات كالكشف عن آثار الحضارة العربيّة القديمة في جنوبي الجزيرة."[2]

فهكذا الحال بالنّسبة لمؤلّفات الرّحّالة الأجانب في وصف الجزائر وجمالها، فقد نتعرّف على أماكن، ومعالم دون زيارة تلك المناطق، ونكتشف أسرارا، وطقوسا غريبة تتميّز بها وتنفرد بها دون سواها، نحن أبناؤها نجهلها،ونحن نقطن فيها.

في حين يدعّم الدّكتور حسين فهيم ذلك بأنّ الرّحلات الأجنبيّة للبلد المزار إلاّ لأجل التّوسع الاستعماريّ بقوله:" لقد دعّمت الرّحلة بريّة كانت، أو بحريّة بطريق مباشر، أو غير مباشر النّشاط الاستعماريّ الّذي بلغ أوجّه في القرن التّاسع عشر، حيث اتّسعت القاعدة الاقتصاديّة في أوروبا، الأمر الّذي كشف من نشاط الرّحلات بغية الكشف والتّوسع الإقليميّ."[3]

[1] . ناصر الدين السعدوني . ورقات جزائرية . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني . ص 67.

[2] . عبد الله بن أحمد بن حامد . أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية . عن أعلام الرحلة الجغرافيين العرب ورحلاتهم ض 38.

[3] . حسين فهيم . أدب الرحلات . عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) . الكويت . صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني ص 68.

فما سبق ذكره عن هؤلاء الرّحالات الأجنبيّة، وحتّى نحافظ على الموضوعية لا بدّ أن نتطلّع ونتتبّع كتاباتهم الرّحلية وما جاء فيها، وحتّى يمكننا أن نرى أيّ وجهة نتّجه، أي هل يكون الرّأي الأوّل صحيحا أم العكس؟

المبحث الأوّل: صورة الجزائر عند الرحالة الفرنسيين

وأوّل الأجانب الّذين كانت زيّارتهم باتّجاه الجزائر هم الفرنسيّون، وعلى رأسهم الرّحّالة **بول أودال** (*Paul Eudel) ، الّذي قال واصفا جمال الجزائر:" سماؤها زرقاء، وشمسها ساطعة، ميناؤها رائع بزبده المخمليّ بمشهده المتكامل المثير من أعالي المصطفى."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة في هذا المقتطف قد أعجب بجمال الجزائر، وبتلك المناظر الخلّابة، وذلك الموقع الجغرافيّ الّذي يسحر الألباب والقلوب معا، وهو يصفها كما هي ، فبحقّ إنّ الجزائر تمتلك ذلك الجمال الّذي تضافرت فيه كل تلك العناصر الّتي ذكرها الرّحّالة من شساعة مساحة، وشمس ساطعة، وجوّ بهيج يسرّ النّاظرين، ومناظر خلّابة ترتاح لها النّفس قبل العين، فيجد المتجوّل فيها راحة بال وطمأنينة لا يمكن إيجادها في أيّة بقعة أخرى غير الجزائر.

ويواصل الرّحّالة وصف تلك المناظر وتلك المساحات، وتلك الأراضي الخصبة الّتي تزخر بها الجزائر مبديا إعجابه تارة، ومتحيّزا لوطنه الأصل فرنسا، وجنود الاحتلال الّذين دخلوها عام 1830 م، وهو على متن القطار الّذي يقلّه في رحلته، ويشقّ به سهول متيجة الخصبة المليئة بثمار البرتقال، وذلك المنتوج الجيّد الّذي يتصدّر الأذواق بشكل لا يضاهيه أيّ ذوق ولا تنافسه أيّة غلّة، ففي وصفه لسهول متيجة ، وحقول البرتقال ذو الطّعم اللّذيذ الّذي لا مثيل له:" عبر بنا القطار سهول متيجة الخصيبة الّتي طالما عبرها جنودنا في الذّهاب

• رحالة فرنسي كان خط رحلته من الجزائر العاصمة إلى بوسعادة في القرن التاسع عشر 1899 صاحب كتاب dAlger a Bousada

1 . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . منشورات تالة . الجزائر 2010 . ص 13 . عن Paul Eudel _ dAlger a bousada p 21

لقتال القبائل الثّائرة، فكانت الأولى منها حملة الأطلس في 1830 م بقيادتي المشير كلوزيل والمملوك يوسف هذا الجزائريّ."[1]

فالرّحّالة لا يستقر على حال، حيث يظهر في كتاباته عن الجزائر وعن وصفه لها تناقض، فأحيانا يعجب بتلك المناظر، فيطلق العنان لقلمه مترجما عنه ذلك الإعجاب بوصف يشلّ الأذهان، وأحيانا أخرى يعود للافتخار بجنود الاحتلال الفرنسيّ يصفهم بالبواسل:" جنودنا البواسل الّذين وهبوا بسخاء دماءهم لتثبيت الغزو....وإذعان قبيلة بني صالح الّذين صاروا حلفاءنا بعد أن كانوا أعداءنا."[2]

إنّ الرّحّالة يدرك تماما إنّما جعل أولئك السّكّان بقبيلة بني صالح يذعنون ويخضعون لسلطة المستعمر ليس جبنا منهم، ولا نقصا في شجاعتهم، وإنّما وقعهم بين أيدي الجنود الفرنسيّين، وتعذيبهم والتّنكيل بهم وتشريدهم، وتجويعهم، فلم يجدوا بدّا إلاّ الخضوع والاستسلام، فهو شعب ضعيف لا حول له ولا قوة.

وعن جوّ وبهاء وسحر مدينة برج بوعريريج، وعن موقعها يقول الرّحّالة:" في وسط المدينة منبع مياه عذب صاف، له قوس."[3]

بعد أن انتهت رحلته بمدينة برج بوعريريج، حان الرّحيل إلى مدينة أخرى لا تقلّ عنها جمالا، فكانت وسيلته للتّنقل عربة يجرّها خمسة جيّاد لتكون راحلته ليجتاز سور المدينة وهو لا ينفكّ يقارن بين ذلك المشهد في أثناء الرّحلة وبين مدينة (كالي) إلى (نانت) والفرق الشّاسع بين الممرّات والمسالك فيقول:" في فرنسا لا أنفاق تخق الأنفاس، ولا طرقا ملتويّة تماما، لكنّها نتوءات ومنحدرات، ثمّ دوائر للالتفاف على الجبال والمنعرجات للتّسلق."[4]

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 14

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص 18.

[4] . المرجع نفسه . ص 22

يعمد الرّحّالة في هذا المقتطف إلى وصف تلك الممرّات والمسالك والطّرقات، والّتي حسب قوله خنقته بالتواءاتها، ومنعرجاتها، وانعطافاتها، والتفافها، ففي ذلك نبرة سخريّة وازدراء، وخاصّة عند مقارنته لها بطرقات فرنسا، ومع ذلك نسجّل له إعجابا بجوّ المنطقة فيقول:" ضياء الطّبيعة السّاطع مع ذلك رائعا، لكنّ زرقة سمائها متماثلة، ذات أحاديّة شديدة في اللّون بالنّسبة لرسّام موهوب."[1]

بعد جولته وحديثه عن الطّريق المؤديّة إلى المسيلة، والّذي زاوج فيه الرّحّالة بين الإعجاب تارة، والسّخريّة تارة أخرى، حطّ الرّحال بتلك المنطقة (المسيلة) الّتي جلبت انتباهه، فراح يصف جوّها، ومناظرها، ومياهها

فقد أعجب بتلك المشاهد الّتي رسمت أمامه لوحة فنيّة، جعلته يكشف أسرارها، ويشقّ ممرّاتها، فلم يدّخر عبارة إلاّ أخرجها، وانطلق لسانه للتّعبير عن إعجابه واندهاشه بما رأت عيناه، دون لأن يلجأ إلى عبارات التّجريح والسخريّة كعادته، فعبّر بقوله:" إنّها المسيلة، في واحة من بساتين المشمش، فيها كلّ الأنواع من أشجار الفاكهة في الجزائر، سرعان ما ترى على يمين الطّريق ساقيّة ذات خرير عذب تتدفّق مياهها الآن على جانب الطّريق المحفوفة كلّها بأشجار التّوت، ودلب من الأقاسيا، والصّفصاف والفلّين."[2]

ثم يسترسل الرّحّالة في ذلك الوصف الأخّاذ المدهش لتلك المروج، والحافات والمسالك المحفوفة بشتّى أنواع الأشجار المذهلة بألوان ثمارها الّتي اتّخذت منها أعشاشا لتطلّ منها على المارّين من أمامها، لتذهب بعقولهم، والرّحّالة أحد أولئك الّذين أدهشتهم المناظر، فيبدو أنّ لسانه تعطّل وتوقّف عن الكلام، ليفسح المجال للأحاسيس والمشاعر لتحلّ محلّه، فتنطق ليترجم ذلك الرّحّالة بقلمه، مصوّرا وو اصفا أحسن التّصوير وأدقّ الوصف:" هناك ممرّ طويل تحفّه الأشجار متنوّعة ذات ألوان مختلفة."[3]

يتّجه الرّحّالة بعد المسيلة إلى مدينة بوسعادة على متن عربة يقودها حوذيّ، حيث كان ذلك في اليوم التّاسع والعشرين من الشّهر الرّابع (أفريل) من عام ألف وثمانمائة وتسعة وتسعين، وفي طريقه إليها عبر الحضنة

[1] . عمر بن قينة .: أرضا صورة الجزائر وإنسانا لدى رحالة فرنسي المرجع نفسه . ص 23

[2] . المرجع نفسه . ص 26

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

فهي واحة صوّرها الرّحّالة جنّة فوق الأرض فيقول عن بهائها وجمالها:" قضينا وقتا من الرّاحة وسط الاخضرار البئر الارتوازية هنا تعطي دفعات جاريّة من المياه متّصلة، فيسيل الماء في حوض فسيح، ينبجس منه الماء عبر مجار فيتدفّق في غزارة، تنجم منه مسارب صغيرة."[1]

من فرط إعجابه بتلك المساحات الخضراء الّتي تزخر بها منطقة الحضنة، راح يعبّر عنها، متأمّلا ومدقّقا النّظر في روعة إبداع الخالق الّذي صوّرها وأحسن تصويرها، فتملّكت الرّحّالة الدّهشة من تلك المناطق، مناظر الاخضرار يعانقه الماء، بحيث يسيل في مجار يشقّ ذلك اللّون الأخضر، فجعلنا نتخيّل كيف يكون اللّون الأزرق وسطا يجري الاخضرار على ضفّيه، وهو لا يتوقّف عند هذه الحال، وإنّما يضيف شيئا آخر ليرسم تلك اللّوحة الفنيّة، منظر الأشجار الباسقة تطاول أعنان السّماء ، تتّخذها الطّيور مأوى لها، فتطرب المارّ بقربها بشتّى الزّقزقات، باعثة شذى ألحانها لتستريح لها الأذن ، وتطرب بها القلوب بحيث يقول:" يحدث في الحديقة نشاط استثنائي، ثم جني نوعين من الخضر في الحدائق مرّتين في السّنة، حين تنمو أغصان الأشجار بشكل مدهش تتّخذها الطّيور الهائمة ملاجئ لها ، حيث تستريح، فتجعلنا نسمع زقزقتها العذبة مدّة إقامتنا الصّغيرة."[2]

يجمع الرّحّالة إلى جانب كونه رحّالة إبداعه الأدبيّ تطبعه تلك المسحة الرّومانسيّة، له رصيد لغويّ وألفاظ استقاها من قاموس الخيال والعاطفة، بحيث يستمرّ في وصف تلك المناظر الخلّابة معرّجا إلى قرية (بانيو)*ليمزج بين وصف المناظر الطبيعيّة ، والمناظر المصنوعة فيقول:" إنّها تتوفر على منبع للميّاه المعدنيّة، وسط بعض الآثار الرّومانيّة، على الطّرف الجنوبيّ الغربيّ من شط الحضنة، تحيط بها كثبان رمليّة تحت شمس ساطعة، على سباخ بيضاء."[3]

فيا له من منظر جذّاب قادنا إليه الرّحّالة **بول أودال** في أحسن تصوير، وأبهى وصف لا يمكن أن يكون ذلك حتّى عند رسّام أطلق العنان لريشته لتخلط بين الألوان إلاّ أنّ الرّحّالة تمكّن من ذلك فمزج بين الألوان

[1] . عمر بن قينة .: أرضا صورة الجزائر وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 36

[2] . المرجع نفسه . ص 37

* تبعد عن المسيلة بأربعين كيلومترا.

3 . المرجع نفسه . ص 37

منها الأزرق، والأخضر، والأبيض ليبدع أروع لوحة تحظى بعناية المهتمّين بعالم الفنّ والرّسم إن وضعت في معرض لتنال أفضل الجوائز ولتحصل على أعلى المراتب.

ليواصل الرّحّالة في وصف المناظر الطبيعيّة، والمناظر الجغرافيّة، خاصّة الموقع، فهذه المرّة وبعد وصوله إلى قرية الهامل الّتي قصدها لزيّارة زاويتها المشهورة ورئيستها السّيّدة " زينب" بنت محمد بن أبي القاسم، راح يستعرض لنا موقعها السّاحر بوقوعها بين أشجار النّخيل المحيطة بها من كلّ جانب فقال:" تقع قرية الهامل على الجانب من واد راكض، سطوحها بيضاء في وسط النّخيل يستقرّ على قمّة الرّبوة معقل الزّاوية."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة وكأنّه أطلّ على القرية من الأعلى وهو يركب طائرة مروحيّة وبيده منظار، راح يصوّر به القرية الّتي ظهرت له وكأنّها مجموعة أشخاص على رؤوسهم عمائم بيضاء تحيط بهم أشجار النّخيل، حقّا إنّه منظر جميل استطاع الرّحّالة أن يمزج بين اللّون الأخضر المترامي الأطراف مشكّلا دائرة في وسط اللّون الأبيض.

منظر آخر أدهش الرّحّالة بعدما كان يظنّه مكان قاحل أجرد لا وجود للحياة فيه، فراح يصوّرها ويصفها بأعذب الألفاظ، وهو منظر الصّحراء بمنطقة بوسعادة فقال عنها:" بوسعادة الّتي استقبلتنا، جزيرة خضراء في محيط من الرّمال، حيث بساتين النّخيل الباهرة، في نظرة من الأعلى، فتبدو كغابة متوّجة، وقد جمعت ما هو ممكن رائع من النّخيل."[2]

ويضيف الرّحّالة في وصف تلك النّخيل المثقلة بالغلال باقات ذات حفيف، هو الغناء الذي يحاكي التموّجات ضاغطا على شكلها النّحيف كفتاة هيفاء."[3]

حقا إنّه أروع وصف خصّت به منطقة بوسعادة بالرّغم من أشعة الشّمس المحرقة الّتي تطغى على رمالها فتزيد من حرارتها حتّى لا يمكن أن تضع قدماك فوقها، إلاّ أنّ الرّحّالة يقول في ذلك:" من قال إذن إنّ الصّحراء

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 65.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 115

رمال وحرّ وقحط فقط؟ إن بها لواحات"، ويزيد الرحالة في وصفها قائلا:" متع الجنّة قبل الذّوق"[1]

يبدو أنّ الرّحّالة أدهشته الصّحراء بشساعتها وشمسها، وواحاتها الّتي صوّرها جنّة فوق الأرض، ولم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل راح ينكر على أولئك الّذين ينعدم لديهم حسّ الذّوق والتّذوّق، أولئك الّذين لا يعرفون للجمال معنى، فينظرون إلى الصحراء على أنّها رمال وحرّ فقط، أمّا الرّحّالة فينظر إليها نظرة المتأمّل المتمعّن في جمالها واخضرار واحاتها، نظرة الأديب الّذي يغوص في عالم الخيال والإبداع، فينطلق لسانه ليترجم بقلمه على صفحات كتاباته الرّحلية ما رآه بعينه المجرّدة، وما رآه بعينه الخياليّة.

وما زاد في اندهاشه وإعجابه بالصّحراء بعد أن كانت لديه فكرة خاطئة عنها، أنّها فقط بيوت من الخيّام، والدّور البسيطة لا وجود للحياة المترفة فيها، جرداء لا أثر للنّعيم فيها، عقارب وأشواك، أشعّة حارّة ورمال محرقة، إلاّ أنّه فوجئ حينما اصطحبه محافظ المسيلة في إقامته ووجدها بخلاف ما كان يظنّ، يعجز اللّسان عن وصفها، فهناك وجد حياة أخرى مخالفة لتلك الّتي كان يعتقدها، رفاهية ونعيم منقطع النّظير، وجود حيّ مختلف ألوانه، متنوّعة مظاهره، عديدة أشجاره وثماره، ويؤكد ذلك الرّحّالة بقوله:" مفاجأة أن نجد في هذا البلد دار النّعيم الحقيقيّ، غنيّ الاخضرار في كلّ المساحة، نوّار الدّفلى، شجيرات النّخيل الصّغيرة، أشجار الكروم المتسلّقة، وباقات عشب من دون أن تحسب مختلف الأشجار المثمرة، وهي عديدة منها الرّمان والدّراقن والمشمش، والخوخ، واللّيمون."[2]

هكذا وبهذه الصّورة الموغلة في النّعيم المخضرّ، استطاع أن يمحي تلك الصّورة السّلبية عن الصّحراء الّتي كانت لديه، فتجاوزت الصّورة الإيجابية وصف الرّحّالة ذات الصّورة الطّبيعيّة، وأخذت طابعا رومانسيا، أطلق فيه العنان لمشاعره الوجدانيّة الفيّاضة المتدفّقة تدفّق تلك الأنهار الّتي أعجب بها، وسحرت وأسرت لبّه، فسبح هائما في سحر الجزائر وفتنة الطّبيعة الّتي جذبته، فلم يدر إن كان على أرض الواقع، أم أخذته أيادي خفيّة إلى

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 117

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

عالم الخيال، وطارت به محلّقا في سماء الإبداع والتّصوير اللّامنتهي للأرض الّتي سمع عنها ربّما، ولم يجد بدّا إلاّ أن يزورها، فكان له ذلك في أوّل فرصة سانحة فلم يفوّتها.

تتوالى الرّحلات الفرنسيّة إلى الجزائر، وتتفاوت، وتختلف أهداف الزّيّارة والتّجوال في أرض المليون ونصف من الشّهداء، ومن هذه الرّحلات ما خصّصت باتّجاه مدينتي المديّة وملیانة ، ولنر كلّ رحّالة كيف وصفهما وكيف كانت انطباعاته حولهما، فيما يخصّ المناظر الطبيعيّة والموقع الجغرافيّ، وأوّل الرّحّالين الفرنسيّين الّذين أقاموا بهاتين المدينتين: الرّحّالة **دان بيار** (Pierre Dain)* الذي أعرب في مقدّمة مؤلّفه عن تعاطفه مع الأسرى المسيحيّين المحجوزين لدى المسلمين، وقد بارك له العلماء الرّهبان هذا التّأليف."[1]

واهتم الرّحّالة بالجانب التّاريخيّ لمدينتي المديّة وملیانة فقال عنهما:" إنّهما خضعتا للعثمانيّين سنة 1517 م عندما غزى عرّوج باربروس مدينة تنس وضواحيها."[2]

كما قال عنها بشأن مناظرها الطبيعيّة وموقعها:" إنّ الموريّ يسكنون الأرياف قرب ينابيع المياه."[3]

ويذكر مواطنه **تيدنا دوفان** (Duvent Thedenat)* مدينة ملیانة حيث لا يرى بينها وبين البليدة من حيث السّحر الطّبيعي أيّ اختلاف، ويبدو أنّه قد أعجب بالمدينة فيعبّر قائلا:" لا تختلف عن ضواحي مدينة البليدة وسهل متّيجة، ولا تقلّ عنهما سحرا وجاذبيّة."[4]

لا يزال موقع المدينتين يتصدّر إعجاب الرّحّالين الفرنسيّين، ولا تزال المناظر الطبيعيّة تحظى باندهاشهم ولا تزال مختلف الزّراعات والأراضي الخصبة تفوز بتصويرهم ووصفهم في كتاباتهم الرّحلية، حيث يواصل الرّحّالة

* رحالة فرنسي وأديب (ت 1649 م) صاحب المؤلف: "تاريخ بلاد البربر وقراصنتها في ستة أجزاء "

1 . ودان بوغفالة. التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية وملیانة . مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع . ط 1 ـالجزائر . 2009 ص 54

2 . المرجع نفسه . ص نفسها.

3 . المرجع نفسه . ص 56

4 .المرجع نفسه . ص نفسها.

تيدنا الفرنسي وصفه لمدينة مليانة الّتي سحرته طبيعتها، فيقول:" إنّ مليانة هي بلد الأرز، وتشرف على سهول واسعة لا توجد بها بساتين ولا أشجار، ولا منازل، وإنّها أرض فسيحة تمتدّ في بلد جميل."[1]

يبدو أنّ الأرز في مدينة مليانة نال المرتبة الأولى، وتربّع على عرش كتابات الرّحّالة الفرنسيّين، فهو ذو نوعيّة جيّدة استحقّ لقب الأرز المفلفل قي رحلة الفرنسيّ **فانتور دوبارادي جون ميشال** (Venteure Deparadis Jean Michel)*:" إنّ إقليم الجزائر وعلى مسافة يوم واحد من المدينة باتّجاه الجنوب يزرع الأرز في منطقة مدينة محصنة بجدار يسمّى مليانة."[2]

ويضيف عن محصول الأرز ونوعيّته:" إنّ أرز مليانة هو أحسن نوعيّة من أرز مينا الطّريّ، والّذي يتكسّر عند طهيه الأمر الّذي يرفضه الأتراك في طبقهم المفضّل."[3]

يبدو أنّ مدينتي المديّة ومليانة تتميّز بأراضي خصبة، وأرجاء فسيحة، ذات زراعات وغلال متنوّعة في مقدمّتها الأرز المفلفل كما سمّاه أحدهم، ويظهر ذلك من خلال وصف بعض الرّحّالين الفرنسيّين، وقد نالتا إعجابهم، وحازت على تصوير بارع ووصف دقيق، إلاّ أنّ الظّاهر من خلال حديثهم عنهما أن زياراتهم للجزائر وبالضّبط للمنطقتين كانت للسّياحة فقط.

2 . **المساحات الدينية:** بما أنّ الجزائر دولة إسلاميّة منذ منّ الله عليها بنعمة الإسلام، وفتحها المسلمون الوافدون إليها من مهبط الوحي السّماوي بشبه الجزيرة العربية، حيث تمكّنوا من تعريب البربر، ونشر الدّعوة الإسلاميّة بالمغرب الأوسط . الجزائر . ومنذ ذلك العهد أصبح الجزائريّون يعيشون في ظلّ الإسلام، وينعمون

[1] . ودان بوغفالة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة . ص 56.

* رحالة فرنسي (1739م . ت 1799 م)

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3]. المرجع نفسه . ص 57

بدفء النّور الإسلاميّ، وطبعا من مظاهر هذا الدّين الجديد أن تبنى المساجد، وتشيّد المعابد أين يعبد الله وحده لا شريك له، وأين يتعرّف المسلمون على تعاليم الإسلام السّمحة، ونظرا لتفنّن العرب المسلمين في بناء بيوت الرّحمان، هذه المساجد الّتي جلبت وشدّت إليها أنظار المارّين من حولها، وقد وجدت بالجزائر العديد منها، حيث وصفها الرّحّالون وأفاضوا في وصفها، ومنها مساجد مدينة المسيلة الّتي وصفها الرّحّالة الفرنسيّ **بول أودال**، وأشهرها مسجد بوجملين فقال بشأنه:" مسجد بوجملين الّذي يتكوّن من بناء ضخم...ينهض من الدّاخل على ركائز المسجد، على حجر يساعد على دعم السّقف الّذي عوارضه من خشب الصّنوبر والعرعر المنحوت، وهي مصفوفة إلى جانب بعضها."[1]

بالرّغم من البناء الضّخم، والتّشييد الرّائع، والعمران الفخم، الشّاهد على أنامل صنّاعه، وإبداع مهندسيه إلاّ أنّه أصابه التّلف، وتعرض للتّخريب، بسبب عدم المحافظة عليه، وعدم الاهتمام به، وعدم وضعه أثرا خالدا في سماء التّمجيد الإسلاميّ، حيث أنّ الرّحّالة بالرّغم من كونه غريبا أجنبيّا عن وطن إسلاميّ، نجده يتأسّف لما آل إليه ذلك المسجد العتيق، وذلك العمران التّليد، فيقول:"تحت عامل الزّمن المسبّب للتّلف بدأت تيجان الأعمدة تنتخر كجماجم الأموات."[2]

يواصل الرّحّالة وصف المساجد التي تحفل بها المناطق الّتي زارها، بيوت الله أين يعبد ويوحّد اسمه، حيث يشرح إمامها تعاليم الدّين الإسلاميّ، ويرشد المسلمين إلى الطّريق الصّحيح، إلى أمور دينيّة ، وأخرى دنيويّة وتفيدهم في دنياهم وأخراهم، مقتديّا بنبيّ الرّحمة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وفي هذه المرّة مع أحد مساجد منطقة بوسعادة المسمّى مسجد النّخلة، ومن اسمه يظهر أنّه بقرب نخلة يستظلّ بظلّها المصلّون، فيصفه مبديّا إعجابه به حيث قال عنه:" هو سطح جميل، في هذه الجزيرة من الاخضرار."[3]

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 32.

[2] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[3] . المرجع نفسه . ص 50.

مسجد آخر يبدو أنّه نال إعجاب الرّحّالة بداية من موقعه وشيخه، وهو مسجد زاوية الهامل الواقعة بمنطقة بوسعادة، والّتي زارها الرّحّالة مع رفاقه قادهم إليها شابّ مترجم كان مرشدهم إلى هناك، والّذي لم يتوانى الرّحّالة في وصفه فقال عنه:" تشعّ عيناه بالحيويّة، وعلى محيّاه مظهر الذّكاء والفطنة."[1]

أمّا عن عمران وبناء مسجد الزّاوية، وهو أوّل ما قام بزيارته الرّحّالة ورفاقه قبل أن يدخل الزّاوية لمقابلة سيّدتها يقول:

" يقع المسجد خارج سور الزّاوية، جوار قرية الهامل الّتي حوّلها شيخها الموقّر إلى واحة محاطة بالنّخيل، بنيّت بحجارة منحوتة مع أروقة موريسكية جميلة."[2]

يتّضح من خلال وصف الرّحّالة لهذا المسجد أن معمار البناء والتّشييد مزج بين اللّون الأخضر، واللّون الأبيض النّاصع، فأسقف المسجد بيضاء تحيط بها أشجار النّخيل بشكل يحدث بهجة في النّفوس، وراحة في البال، وارتياح في العواطف، لأنّ الألوان نعمة من الله سبحانه وتعالى، يجب أن نشكره عليها، فلو كان العالم يظهر أمامنا باللّونين الأسود والأبيض لسبّب ذلك القلق والإحباط والخوف، فالألوان مصدر للفرح والتّفاؤل والتّغيير والتّنوع، يخلق المتعة بالنظر إليها:" ومن الطّرق المستخدمة في السّجون من أجل نزع الاعتراف من خلال وضع السّجين في غرفة ذات لون واحد فاقع. مثل الأحمر. فيصاب بنوع من الاكتئاب، ممّا يجبره على الاعتراف بالحقيقة من أجل التّخلص من هذه الحالة."[3]

ومن تمّ فاختلاف الألوان ودلالتها عديدة لا يمكن أن نغفل عنها، بل تجدنا نتمعّن فيها ونطيل الوقوف أمامها، فبعضها يجذبنا نحوه، وبعضها ننفر منه، وفي ذلك رابطة قويّة بالنّفس البشريّة والحالة النفسيّة المتفائلة أو المتشائمة، فلا يكون بوسع الإنسان إلّا اختيار الألوان تبعا لما ذكر، سواء في ملابسه أو طلاء منزله مثلا. فاللّون الأحمر يدلّ على القوة، والإثارة، والعاطفة، والحب، والطّاقة، والخطر، واللّون الأزرق يدلّ على الثّقة

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 67.

[2] ـ المرجع نفسه . ص 68.

[3] . موقع إلكتروني htt://hrdisussion.com

والأمان، والاستقرار والنّجاح المهنيّ، والانتماء إلى المغامرة، واللّون الأصفر يدلّ على البهجة والسّعادة، والمرح والتّفاؤل، والعمل والهدوء.[1]

أمّا اللّونين الأبيض، والأخضر اللّذان كانا صباغة وطلاء لمسجد زاوية الهامل الّتي وقف أمامها الرّحّالة **بول أودال**، ويبدو أنه أعجب ودهش لذلك المنظر وهما لونين لابدّ أن يجتمعا في مكان واحد للدّليل القاطع على براعة المشيّدين العرب المسلمين، وذوقهم الفنيّ في عمارة مساجد الرّحمان الدّالة على تماسك المسلمين لا لشيء سوى لأنّهما يرمزان إلى السّلم والمحبّة، ونقاء السّريرة في المسلم، فاللّون الأبيض يرمز إلى:" النّقاء والصّدق وعدم التّحيز."[2]

أمّا اللّون الأخضر فيرمز إلى الأمل والمستقبل، والبعث من جديد والتّفاؤل، وتجديد الآمال العظيمة للمستقبل، واستعادة القوّة والطّاقة، وهو يبعث على البهجة والفرح والخلوّ من الصّفات السلبيّة.

والعلاقة الرّابطة بين اللّونين، كونهما يدعوان إلى المحبّة وحسن الشّيم ونقاء السّريرة، ويبعثان على التّجديد والأمل، فالمسلم لابد أن يكون له كلّ يوم فجر مستبشر، وأمل ضاحك يقودانه إلى الخير، والمستقبل المتجدّد ولأنّ اللّون الأبيض يجلب الرّاحة والسّلام، ويبدّد اليأس، وله في الثّقافة العربيّة ارتباط بالطّهر والبراءة، وهو لون مصاحب للنّور والصّفاء، فما أجمل وأبهى أن نعيش كلّنا في النّور حتّى نرى الاخضرار المحيط بنا، وفي ذلك يقول الأخطل:

رَأَيْتُ بَيَاضًا فِي سَوَادٍ كَأَنَّهُ بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِـــبِ [3]

ويردّ عليه شاعر آخر:

أَنَا الْأَخْضَـــرُ مَنْ يَعْرِفُـــــنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ[4]

[1]. موقع الكتروني:http://mawdoo3.cim

[2]. موقع الكتروني:http://hrdisussion.com

[3]. الموقع نفسه.

[4]. الموقع نفسه.

ونعود إلى هذه المساجد العامرة بالمصلّين، ذات البناء العتيد ، والتّشييد المتين، التي جعلت الرّحّالة يشيدون بها، وأمّا عن سكّان الجزائر المنقسمين إلى بربر وعرب جعل الرّحّالة **وارنيي*** يجيء بصورة إثنوغرافيّة شاملة عن البربر، وأنّهم أقرب إلى الأوروبيّين من العرب، فيقول:" البربر أقرب للأوروبيّين من العرب، كونهم أصحاب فلاحة وحضارة سادت عصورا مديدة، وهم مسيحيّون قدماء، مسلمون بأقلّ من المستطاع، ومنهم من هو منشقّ عن العقيدة."[1]

ومن جهة ثانيّة يعيب على العرب تعدّد الزّوجات مع أن الإسلام شرع ذلك وسمح به ما دام الرّجل قادر على ذلك، وله القدرة على العدل بينهنّ:" يزعم أنّ العربيّ لا يقدر الزّوجة، ويجعلها من حيث الأهميّة بعد المتاع والدّواب."[2]

خطأ كبير وقع فيه **وارنيي** في حكمه على الرّجل العربيّ بشأن تعدّد الزّوجات، فمادام قادرا كفيلا بضمان العيش لهنّ فما العيب في ذلك، وإن كان ما يخفيه هو حقده الدّفين ضدّ العرب ووقوفه إلى جانب البربريّ الّذي يرى في عدم تعدّد زوجاته تقدير لهنّ وإخلاص ووفاء لهنّ:" البربريّ مخلص لزوجته، مقدّر لها، غير معدّد فتجد تكوين أسرته محكما، يخلو من الصّراعات الداخليّة بين الإخوة."[3]

في حين نجد الرّحّالة **لويس ريجيس*** تقف إلى جانب الرّجل العربيّ، فتراه محترما لدينه، رافضا اعتناق ديانة أخرى غير الإسلام، لا يهمّه الاندماج في حضارة أوروبّا، فتقول:" المسلمون العرب في الجزائر مخلصون لدينهم مجتمعون في المساجد لأداء الصّلوات اليوميّة في هدوء تامّ، ويكونون الجمعة أوفر عددا، لا يشعرون حتّى بالوافدين على المساجد من الأجانب، وهم يؤدّون طقوسهم الدّينيّة."[4]

---

[1] . سميرة أنساعد . جامعة الشلف . مقال بعنوان صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء التاسع عشر ميلادي.

[2] . المرجع نفسه. المقال نفسه.

[3] .. المرجع نفسه . المقال نفسه.

* لويس ريجيس رحالة فرنسي رحلته بعنوان " قسنطينة رحلات وإقامات" قام بها في القرن التاسع عشر

[4] . المرجع نفسه . المقال نفسه.

من الملاحظ أنّ إعجاب الرّحّالة بالفنّ المعماريّ الّذي تحظى به مساجد المناطق الّتي زارها، إذ لا تخلو منطقة، أو مدينة جزائريّة من عديد المساجد بحكم أنّ الجزائر تعيش في ظلّ الإسلام، تحكمها تعاليمه السّمحة، وتسيّرها سننه الرّصينة، فوصفوا المساجد ومظاهرها العمرانيّة، سواء كانت عامرة بالمصلّين أو غير ذلك، إلاّ أنّهم لفت انتباهه م ذلك الجهل الّذي لا يزال مستفحلا ضمن أفراد المجتمع الجزائريّ، وتلك التناقضات التي تراكمت على أذهانهم الّتي جمعت بين الدّين ورجاله، وبين تلك المعتقدات الشّعبيّة الّتي كادت أن تشوه الدّين الإسلاميّ تلك العادات السّيّئة، والشّعائر المتنافية مع تعاليم الإسلام فيقول:" هنا أيضا موضوع الشّعائر والعبادات... حيث نرى قرون الحيوانات تعلّق بين أغصان الأشجار، تعزى لها قوّة غيبيّة، تضمن حصادا وافرا في موسم زاخر."[1]

هو اعتقاد شعبيّ خاطئ قد يقع فيه الرّجل إلى جانب المرأة، ولا يقتصر عليها، لأنّ من يقوم بجني موسم الحصاد هو الرّجل، وما يقع فيه إلاّ الرّجل ذو الإيمان الضّعيف، والثّقة المذبذبة، أو المنعدمة في الله وقدرته.

إذن هو مشهد بانورامي لفت انتباه الرّحّالة، حيث تتعايش فيه المتناقضات بين السّلوك الوثنيّ الشّركيّ والنّزعة القبليّة إلى جانب الحياة الإسلاميّة، فمن جهة وصف الرّحّالة بيوت الرّحمان العامرة بالمصلّين تنشد كلمة الحقّ المشبّعة بروح الإسلام وشرائعه، ومن جهة ثانية أدهشته تلك العادات الخارجة عن الدّين، بل الغائبة عنه تماما.

إلى جانب هذه العادة السّيّئة الّتي شدّت انتباه الرّحّالة، ظاهرة الاعتقاد الخاطئ في وضع قرون الحيوانات على أغصان الأشجار حتّى تكون السّنة وفيرة الحصاد والغلال بشتّى أنواعها . هناك ظاهرة، وعادة أخرى تمسّ وتختصّ بالمرأة على غرار نساء العرب دون الرّجال، عندما يغيب العقل، ويقلّ التّفكير، ويضعف الوازع الدينيّ ظاهرة شعبيّة انتشرت في أوساط المجتمعات العربيّة لا الجزائريّة فقط، وهي ظاهرة التّمسّح بالأضرحة، وتوسّل المرأة إليه بالدّعاء لتنجلي عنها الكرب وتنفرج عنها الهموم والأحزان، وتقضى حاجاتها، فيقول:" عليّ مغادرة

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 50.

الحيّ العربيّ إلى الحيّ الأوروبيّ عبر الجسر العملاق الّذي تمّ بناؤه، فهو حديث تماما في وسط هذه الحضارة المتخلّفة"[1]

يبدو أنّ الرّحّالة خاف العدوى، فقرّر الفرار إلى حيّه الأوروبيّ، هربا من تلك الظّاهرة الّتي رآها، ربّما لأوّل مرّة في حياته، فنعت المنطقة بالتّخلّف، حيث لا وجود للحضارة فيها.

ويواصل الرّحّالة وصفه لتلك الصّور الشّاهدة، حيث يتأسّف لحال العرب، أولئك الّذين أبهرتهم تلك المظاهر الخدّاعة الّتي أحيطت بهم من كلّ جانب، من يوم دخل المستعمر بلدهم، وحاول بكلّ الطّرق وشتّى الوسائل طمس هويّتهم بإبعادهم عن مقوّمات وطنيّتهم وأولاها الإسلام، إذ في حفل راقص حضره الرّحّالة وبعد وصف ذلك الحفل، وما يمكن أن يوجد فيه، قال:" ضجّ الحفل بجمهور غفير مختلط من يهوديّ، وفرنسيّ وعربيّ متخفّ في برنوسه."[2] ويمكن أن يكون في الحفل:" من روّاد، وراقصات، وضاربي طبل، ونافخين مزامير وهيجان، غوغائيّ رخيص."[3]

حقّا إنّنا نأسف لحال العرب، وسط كلّ المتناقضات الّتي ألمت بحالهم، فذلك البدويّ الجاهل، وإن سكن المدينة نجده يتخبّط بين أصالته العربيّة ودينه الإسلاميّ، وتلك الرّوح الخربة الّتي تتعايش في التّفسّخات والانزلاقات الغريب عنها، فهو كالحاضر الغائب لا يدري أيّ طريق يسلك، أو إلى أيّ اتّجاه سيتّجه، أو إلى أيّ ميل سيميل، أبهرته تلك العادات الغريبة عن مجتمعه دون أن يدري أنّ هدف الاستعمار الّذي بات يخطّط له، هو إلهاؤه عن واجبه الّذي كلّف به، وهو التّضحيّة والجهاد في سبيل استرجاع حريّة بلاده، وتخليصها من أيدي العدوّ، وإخراجها من ذلك الجهل الّذي أحاط بها.

كانت الصّورة الّتي رسمها الرّحّالة لتلك المناطق الّتي زارها فيما يخصّ المناظر الطّبيعيّة إيجابيّة، أدهشنا بها بإعجابه، ووصفه لها الّذي فاق كلّ وصف، بعبارات وألفاظ انتقاها من قاموس الطّبيعة الطّبيعيّة ، والطّبيعة

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 32.
[2] . المرجع نفسه . ص 51.
[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

المصنوعة بأيدي فنّانين جزائريّين، من خصوبة للأرض وغزارة للميّاه، وأشجار مختلفة، وثمار متنوّعة، وسهول وجبال، وهضاب، أعلن فيها الرّحّالة إعجابه اللّامحدود، سمّاه أحيانا السّراب الفاتن حيث قال:" طالما سمعت الحديث عن السّراب... تراه في الأفق فتظنّه طبقة من ماء ناصع البياض، يبدو بحيرة شديدة الحيويّة من فضّة صافيّة تعلوها سحابة من بخار، ذا الخيال العذب، إنّه لا يزال قائما لدى الشّعراء من دون أن يتركوا لنا في الواقع أيّ انطباع جديد أيمكن أن يكون هذه وهما لطيفا."[1]

فهذا التّعبير يكاد الرّحّالة فيه أن يتعدّى دور المؤرّخ ، والجغرافيّ، وعالم الاجتماع، والمحلّل النّفسيّ إلى دور الشّاعر الأديب الّذي ما إن أعجبه منظر من مناظر الطّبيعة السّاحرة إلاّ تجده يضيف إليها من خياله ، وإبداعه ويسبح في عالم آخر يكاد يكون لا مرئيّا حتّى يمكنه أن يحلّق بك أنت القارئ بعيدا من خلال سحر كلماته وعباراته الّتي تزيد المنظر جمالا ورونقا وسحرا.

هذا عن تلك المناظر الطّبيعيّة لتلك المناطق الّتي أبدع الرّحّالة في تصويرها وإيصالها لنا، أمّا عن الجوانب الدّينيّة، فيمكن القول أنّها كانت صورة سلبية أكثر من أنها إيجابية، حيث وصف ت المساجد، وكيف تفنّن المعماريّون في بنائها إلاّ أنّ التّلف وعدم الاهتمام كاد أن يؤدّي بها إلى اللام وجود، وذلك راجع إمّا لعامل الزّمن، أي أنّها قديمة تحتاج إلى ترميم، وإمّا للّامبالاة النّاتجة عن انشغال أهلها بأمور تافهة جلبها إليهم المستعمر الّذي أقام لهم بدلها قاعات اللّهو، والطّرب والرّقص، بالإضافة إلى وصف الرّحّالة لحال العرب الّذي ن أصبحوا تائهين في ظلام الجهل، عالم يملؤه الغموض لا يدرون أين هم يعيشون؟ جذبتهم مغريات الاستعمار فضاعت حياتهم، وفقدوا وطنهم وابتعدوا عن دينهم، كلّ ذلك بفعل المحتلّ الغاصب الّذي سلبهم كلّ شيء كانوا يمتلكونه،وطنهم، و.دينهم، وشخصيّتهم، وراحة بالهم.

3 . **الحياة العامة:** كثيرة هي انشغالات أفراد كلّ مجتمع ما، عربيّا كان أم غربيّا، حيث يمكنها أن تتشابه ويمكنها أن تختلف، فإن تشابهت فتكون على وجه العموم، وإن اختلفت فتكون خاصّة بمجتمع معيّن حسب عاداته، وتقاليده، وأعرافه المتداولة خلفا عن سلف.

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 114.

وأوّل ما لفت انتباه الرّحّالة الفرنسيّ "**بول أودال**"وهو يصل محطّة القطار بمنطقة برج بوعريريج أحوال النّاس المسافرين هناك، فلاحظ أنّ الأمر مثلما هو في الجزائر نفسه إجراءات روتينيّة، فعلى حدّ تعبيره أنّ المسافرين الجزائريّين الّذين كانوا في المحطّة، مجتمعون أمام مكتب الاستقلال لاستلام وسائل السّفر ، وحمل أمتعتهم من قبل أولئك الحمّالين المتهافتين على أمتعة المسافرين الّذين يصفهم الرّحّالة **أوغست باسيت*** أنّهم شعب غير متحضّر متوحّش في معاملاته مع الآخرين يقتلعون الحقائب من الرّكّاب عنوة." [1] وقبل التّوجه إلى الفنادق للرّاحة، فيقول الرّحّالة **بول أودال**:" الوصول إلى المحطّة هو نفسه في فرنسا، وفي كلّ مكان، الإجراءات هي نفسها دائما: التّصريح بالأمتعة، تكوّم المسافرين في المحطّة، استقرارهم كثيرا، أو قليلا للرّاحة في فندق."[2]

أوّل محطّة كانت في رحلة **بول أودال** منطقة برج بوعريريج، وأوّل ما بدأ به وصفه في المدينة وسيلة تنقلّه عبر الشّوارع الّتي أسماها عربة كونها لا تليق بمقامه، فاعتبرها لا ترقى إلى مقام السّيّارة الباريسيّة، فقال بشأنها:" هي عربة جيّاد هزيلة شكلها كصندوق...هذه العربة العلبة مغطاّة بقماشة، لها مجلسان يتحرّكان لولبيّا."[3]

يلاحظ من خلال وصف الرّحّالة للوسيلة المخصّصة لتجواله وتنقلّه عدم خلوّه من نبرة الاستهزاء والسّخريّة، إذ لم يسلم من ذلك حتّى وسيلة التّنقّل، إذ عدّه نقصا وعيبا في البلد مهما حاول أن يتقدّم ويتطوّر لا يمكنه أن يصل إلى مستوى تقدّم فرنسا، وواصل تهكّمه مشبّها العربة بعلبة طفل قديمة استغنى عنها ورمى بها في مستودع يلفّها الغبار:" هذه العربة الهرمة الرّديئة الّتي تذكّرنا أيضا بلعبة طفل عتيقة منسيّة في أعماق مخزن ما." [4]

* أوغست باسيت رحالة فرنسي قام برحلته إلى الجزائر الموسومة" رحلة عبرالجزائر"أواخر القرن التاسع عشر (1896م)

1 . سميرة أنساعد . جامعة الشلف . مقال بعنوان صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء التاسع عشر ميلادي.

[2] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 16.

[3] . المرجع نفسه . ص 17.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

إلاّ أنّه وكما يقال إذا غاب الماء حضر التّيمّم، يعود الرّحّالة عن كلامه السّاخر ويقرّ بفضل العربة لتنقّله من مكان إلى آخر لغياب غيرها، أو أحسن منها، ويعتبر نفسه مضطرّا لا مخيّرا، فلا مفرّ من القبول بها: " عندما لا يكون لنا هذا الّذي نحبّ، يجب أن نحبّ هذا الّذي كتب لنا، سنأخذها إذن لانعدام الأفضل."[1]

بالرّغم من تلك العربة الهرمة القديمة، الّتي لم ترق للرّحّالة، إلاّ أنّها تمكّنت من إيصاله إلى وسط المدين ة وأوّل ما شدّ انتباهه أنّها مدينة لا مواقع ولا آثار، أو أيّ شيء يمكن أن يكون جديرا بالوصف فقال:" لا تقدّم لنا أيّ شيء ذا بال."[2]

يواصل الرّحّالة مسيرته عبر شوارع المدينة الّتي وصفها مواطنه **بول بورد** بأنّها ملتويّة تشبه المتاهة ، قائلا بشأنها:" يشيع في أحياء الجزائر جوّ مميت، خاصّة الأحياء الخاليّة من المقاهي والدّكاكين، وكذلك تخيطط طرقاتهم وشوارعهم، تظهر أكثر تعقيدا من المتاهة، تزيدها أكثر سوء المنحدرات الكثيرة، والسّلالم المتعبة." [3] والّتي لم يكن أبدا منصفا بشأنها، فحسب رأيه لا يوجد بها أيّ شيء ملفت للانتباه إلاّ تلك المحلّات التّجاريّة المصطفّة يملكها أوروبيّون:" في كلّ مكان من البرج شوارع مقطوعة، ذات زوايا مستقيمة حيث تصطفّ محلّات تجاريّة يسيّرها أوروبيّون."[4]

ثاني شيء وصفه الرّحّالة السّوق العربيّة، حيث وقف متأمّلا إيّاها واصفا لها بشتّى ألفاظ التّهكّم والازدراء فلم يغفل عن أيّ شيء فيها إلاّ ذكره وبالغ في وصفه، مستخدما لسانه اللّاذع النّاطق بعبارات السخرية وبداية بموقع السّوق وأنواع المعروضات وأحوال المارّين به، حتّى أشكالهم وثيابهم الرّثّة، بالرّغم من علمه بأنّ المتسبّب في تلك الأوضاع جنود بلاده المحتلّة لأرض الجزائر، فيقول عنها واصفا:" تمتدّ على ساحة فسيحة تكتظّ بالمتسوّلين ذوي الأقدام الحافيّة، والسّيقان النّحيفة، كقوائم النّعامة."[5]

---

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 17ا

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . سميرة أنساعد . جامعة الشلف . مقال بعنوان صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء التاسع عشر ميلادي.

[4] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 18.

[5] . المرجع نفسه . ص نفسها.

وعن المعروضات للبيع بالغ في نعتها بأنواع الحقارة والسّخرية:" بعضهم يبيع تمورا معجونة، أو أقمشة ذات ألوان فاقعة، وآخرون يبيعون قففا خشنة، وأكياس قمح ربطت بشكل سيّء مثير للضّحك لضغط محتواها."[1]

كلّها سلع للبيع رآها الرّحّالة بأنّها أحقر المنتجات لا يمكنها أبدا أن تسمو إلى الرّقيّ والتّحضّر منتجات بدائيّة يعرضها أصحابها للمشترين.

ثمّ يضيف عن تلك السّلع المعروضة للبيع:" خراف كبيرة، وأحصنة، وعباءات رجال وسراويل، وجمال بشا فرها المتهدّلة، مع كلّ تشكيلة الألوان الرّماديّة الباهتة، والقاذورات الممكن تصويرها، وهي تنتشر في المكان."[2]

ويؤكّد قوله مواطنه الرّحّالة **بول بورد**:" شوارع قسنطينة موزّعة حسب المهن، فيوجد شارع لصانعي الأقمشة الصّوفيّة، وآخر للحدّادين...وهكذا، وبدت تلك المهن بدائيّة وبسيطة في وسائلها ويدويّة، لا ترقى إلى مستوى الصّناعة الأوروبيّة الّتي تقوم على استخدام الآلات المتطوّرة." [3]

ففي نظره أنّ الشّعب الجزائريّ مهما حاول أن يغيّر من وضعه، فإنّه لا يمكنه ذلك، لذلك نراه يواصل السّخريّة منه، وعن عيشه يقول:" هو يعيش في حجرة يرفض كلابنا العيش فيها."[4]

هي الأحوال والظّروف المعيشة الاجتماعيّة الّتي يحياها الشّعب الجزائريّ آنذاك، فهم يعيشون فقرا مقذعا لظروف الحرب الّتي ألّمت بهم، جهل، وجوع، وحرمان، وبؤس من كلّ جانب، فرضه عليه المستعمر الفرنسيّ، إلاّ أنّ الرّحّالة لم يرأف لحال هؤلاء المساكين الّذين سلبتهم الحرب كلّ شيء، وما حالهم تلك إلاّ من صنع المحتلّ الغاصب، وهو منهم، ومع ذلك يجد لذّة ومتعة في التّهكّم ، والاحتقار بالجزائريّين، ويؤكّد

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 19.

[2]. المرجع نفسه . ص نفسها.

* . بول بورد . رحالة فرنسي زار الجزائر في القرن التاسع عشر دون رحلته بعنوان " رحلة عبر الجزائر".

[3] . سميرة أنساعد . جامعة الشلف . مقال بعنوان صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء التاسع عشر ميلادي.

[4] . المقال نفسه . العدد نفسه.

ذلك بقوله:" ارتدى أحدهم غطاء بطانيّة ذات ثقوب ، ففيها يمشي، وينام من دون شكّ، وسيدفن لاحقا وهو ضرير، حركته وفمه لا يتكلّمان ،كلبه وحده يقود خطواته، كلب مجعّد يتضرّع أيضا بنظرته المصوّبة"[1]

كلّ شيء رآه الرّحّالة في هذه المناطق الّتي زارها من أوضاع اجتماعيّة للأهالي، ومن نشاطات يقومون بها، أو حرف يمتهنوها للتّمكّن من سدّ حاجياتهم إن تمكنوا من ذلك، أو أشياء يرتدونها إلاّ وصفه بأقسى عبارات وألفاظ السّخريّة والتّجريح، فذاك الشّيخ الّذي يرتدي بطانيّة، وهي بلا شكّ كلّ ما يملك، ومع ذلك ينعته بذلك الشّكل، وبالرّغم من أنّه ضرير يقوده كلبه، ذلك الكلب الّذي لم يسلم من سخريّة الرّحّالة، فوصفه بأنّه مجعّد يستعطف النّاس بنظره المصوّب نحوهم.

ثمّ يلفت انتباهه منظر أهل المنطقة في عاداتهم الموروثة عن أجدادهم، تلك الخاصّة بجزّ المواشي في صيف كلّ عام، حيث يراهم يسوقونها إلى مكان الجزّ ، وهم يرتدون ألبسة رثّة باليّة بها ثقوب، سمّاهم بالأعراب، ويؤكّد وصفه لهم في سخريّة واستهزاء:" يمرّ أعراب في ثيابهم القذرة يسوقون قطعانا من الخراف في سكينة تامّة يدفعونها إلى الجزّ."[2]

ألم يجد الرّحّالة في تلك المناطق ما يروقه ويأسره من إبداع وجمال؟ فكلّ شيء بدا له حقيرا يدعو إلى الاشمئزاز، فلم يتوانى في الهجوم عليه بشتّى عبارات السّخريّة والتّهكّم والاستخفاف، فإن كانت عادة الجزّ من أصالة وعراقة الشّعب الجزائريّ؟، وإن كانت ضروريّة لا يمكن الاستغناء عنها؟ ، فلم يسخر منها رحّالة أجنبيّ، وإن كانت تلك ملابس الإنسان العربيّ اللّازمة لعمليّة الجزّ؟، فلم يتهكّم بها ذلك الأجنبيّ.

ويلتفت الرّحّالة مرّة أخرى إلى الحياة اليوميّة العامّة للشّعب الجزائريّ، وأشغالهم الّتي يقومون بها، تلك المحلّات التّجاريّة للجزارة والبقالة، أو مقاهي يتجمّع فيها النّاس فيقول:" في ساحة كبيرة مقهى لها رصيف تظلّله أشجار التّوت يتناول تحتها الزّبائن ما لذّ لهم فيتذوّقونه على مهل."[3]

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص21.
[2] . المرجع نفسه . ص 23.
[3] . المرجع نفسه . ص29.

ثم يضيف في وصف الحلّات التّجاريّة: " تتجمّع محلّات الجزارة والبقالة كما تباع فيها الأواني."[1]

مرة أخرى يعود الرّحّالة إلى وصف الحياة العامّة الّتي يحياها العربيّ الجزائريّ بصورة سلبيّة لها، تلك الخاصّة باختلاطه ببعض الحيوانات الّتي تشكّل جزءا من حياته يعتمد عليها أحيانا في حمل بعض أعبائه ، أو يتّخذها أنيسا له، فتجد بعضها تشاركه طعامه، الشّيء الّذي أنكره الرّحّالة وجعله يرى ذلك المنظر يدعو إلى الاشمئزاز فيقول عنه واصفا إيّاه:"حيث تشارك الحيوانات العائلة باحتلالها موقعا مكمّلا في البيت، فيتكوّم الزّبل إلى درجة تصير فيها رائحته مألوفة محتملة."[2]

هذه هي الحياة البسيطة الّتي يعيشها الإنسان الجزائريّ آنذاك، رآها الرّحّالة قليلة الشّأن، جعلته ينفر منها لأنّها لا ترقى إلى مستواه الأوروبيّ، ولا تليق بمقامه.

إن كانت هذه الصّور السلبيّة الّتي صوّرها الرّحّالة عن الحياة العامّة للشّعب الجزائريّ من ملابس رثّة ومستوى معيشيّ بسيط ،بل حتّى المباني، والمنازل، والشّوارع الضّيّقة المتعرّجة الّتي قال عنها:" هي الصّورة البائسة حيث نحسّ في كلّ مكان هنا، أنّك في متاهة بين الشّوارع الضّيّقة المتعرّجة، والمنازل الّتي تحجب عنك رؤية المدينة... كلّ المباني منخفضة متهالكة." [3] ويمكن أن نضيف وصف **بول بورد** مواطنه الّذي يؤكّد فيه تصويره الرّديء لمنازل العرب قائلا:" الأحياء العربيّة، منازلها منعدمة النّوافذ، وذات الأبواب المغلقة تشيع فيه جوّا مميتا."[4]

إلاّ أنّ هناك صور إيجابيّة صوّرها الرّحّالة لما نالت إعجابه، وشدّت انتباهه وأسرت لبّه، تلك الحرف والمهن التقليديّة الّتي يتميّز بها سكّان تلك المناطق، جعلته يقف عندها مطوّلا، يتأمّل صنع الحرفيّ الجزائريّ ، حيث توجد لنا أنامله أشياء بديعة في غاية الإتقان والجمال، وأوّل حرفة أسره إبداعها، حينما زار منطقة مطرّزي

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص ذاتها.

[2] . المرجع نفسه . ص 112.

[3] . المرجع نفسه . ص . ص113.

[4] . سميرة أنساعد . جامعة الشلف . مقال بعنوان صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء التاسع عشر ميلادي.

الجلد الّتي قال عنها ساحة الجمال:" يستحيل أن تأتي إلى المسيلة من دون أن تختار من مطرّزي أكياس الجلد كيسا مطرّزة بخيوط من حرير، تخطّ بزخرفة عربيّة باهرة تثير الفضول."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة أخيرا وصل إلى شيء راقه وأعجبه، وأثار فضوله جعله يقول عنه إنّها زخرفة عربيّة باهرة، فقد أبهرته تلك الصّنعة المتقنة الّتي تنمّ عن أصالة وعراقة الشّعب الجزائريّ المتقن لحرفته.

فهكذا استطاعت إذن إبداعات الجزائريّين أن ترسم على وجه الرّحّالة انطباعا فيه الكثير من الإعجاب والدّهشة بتلك الزّخارف العربيّة على أكياس الجلد، لتقوده رحلته إلى شيء آخر يثير الإعجاب وهو الحيّ العربيّ، فيقف متأمّلا تلك المنازل المشيّدة بالطّوب، قاده إليها مرشده، فلم يجد بدّا من القول عنه:" شيّدت بالطّوب الممزوج ببقايا التّبن الّذي جفّ على مهل في الهواء الطّلق."[2]

يتّضح من هذا المقطع أنّ الشّعب الجزائريّ في غياب الإمكانات، يخلق من العدم الشّيء الكثير فآنذاك كانت الوسائل منعدمة، أقصد الوسائل الصّلبة لتشييد منازل تقيهم حرّ الصيف، وتحميهم برد الشّتاء، فيكفيهم لذلك الطّوب المخلوط بالتّبن مع قليل من الماء ثمّ يجفّف ليصبح صلبا يمكن بواسطته بناء منزل، الأمر الّذي جعل الرّحّالة يقف مطوّلا، يتمعّن في كيفيّة البناء والوسائل المخصّصة لذلك.

إبداع آخر لفت انتباه الرّحّالة، تأمّله جيّدا، فيبدو أنّه أسره، وأخذه إلى عالم الخيال، فجعل يتصوّر بدقّة خفايا الإبداع، وحسن الصّنيع، وإجادة الزّخرفة، وإتقان العمل، وهو صنع الأحذيّة الجلديّة لدى البوسعاديّين:" في بوسعادة تصنع الأحذيّة الجميلة الشّهيرة بأيدي الاسكافيّين البوسعاديّين، وهي نوع من الخفّ التّقليديّ من جلد أخضر طويل ذي سنّ يتّجه إلى الأمام على شكل قبّة للقدم، مطرّز من الحواشي بحرير أصفر."[3]

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 30.

[2] المرجع نفسه . ص 31.

[3] . المرجع نفسه . ص 47.

يا له من إتقان، وإبداع، وحسن معرفة بالعمل، وإجادة في الطّرز، كلّ ذلك أعجب، وأدهش الرّحّالة وإلاّ لما وقف على كلّ صغيرة وكبيرة في الحرفة . صنع الأحذيّة الجلديّة . فلم يغفل عن دقائق الأمور بداية من مقدّمة الحذاء إلى خلفيّته، من شكل وزخارف وألوان.

هكذا أذهلت تلك الصّناعات التّقليديّة عقل الرّحّالة بإتقانها وزخارفها، فلم يمنع نفسه من شراء أيّ شيء، حتّى يكون تذكارا في أثناء عودته إلى بلده، حيث مرّ بالقرب بائع زرابي، فلفتت انتباهه حقيبة ذات ألوان جميلة، فأبى إلاّ أ ن يقتنيها فوصفها قائلا :" مرّ على الطّريق بائع زرابٍ نسجتها نساء البلد، اشتريت حقيبة ذات جيبين يستعملها العربيّ على حماره، هي عيّنية من الألوان الصّارخة في الصّناعات المحليّة."[1]

إنّ من عادة العرب الرّحيل والانتقال من مكان إلى آخر بحثا عن سبل العيش، وهي ظاهرة التفت إليها الرّحّالة بالوصف الدّقيق، أولئك الّذين يتّخذون من الجمال وسيلة لتنقّلهم، أعجب بهم، ولقّبهم بملوك الصّحراء، فيؤكّد ذلك بقوله:" ملوك الصّحراء من دون وطن مستقرّ، من دون سقوف، هم خ ارج الحضارة كلّها."[2]

بما أنّه رحّالة يجوب البلدان والأوطان لتحقيق أهدافه المنشودة، كما يرحل العرب لتحقيق أهدافهم، وهي البحث عن أمكنة العيش الهنيء، يبدو أنّه أعجب بتلك العيشة الهنيّة في طمأنينة، وراحة بال الّتي يتمتّع بها البدويّ دون سواه، بالرّغم من بساطة العيش، لأنّه يحيا حياة خاليّة من الهموم والمشاكل الّتي يحياها ساكن المدينة وذلك ما يؤكّده في قوله:" البدويّ حتّى في قمّة تعاسته، فحياة الرّحل لا هموم فيها فيبدو واضحا إحساسهم بأنّهم أكثر سعادة من ساكني المدن، هؤلاء الّذين تتضاعف لديهم مطالب حياة الرفاهيّة."[3]

يتّضح من قول الرّحّالة ووصفه لتلك الحياة البسيطة الّتي يعيشها البدويّ المتنقّل من بقعة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر، أنّه يحسده على راحة باله، وطمأنينة نفسه، الّتي يتمنّى من كلّ شخص على وجه

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر : أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 51.
[2] . المرجع نفسه . ص 23.
[3] . المرجع نفسه . ص 24.

الأرض أن يحصل عليها، وأن يدبّ في طلبها، ويسعى جاهدا في إيجادها، وإن كان القول السّابق يقول عنهم أنّهم خارج الحضارة، فهل الحضارة مقتصرة على أهل المدينة دون سواهم، ومحتكرة لديهم، حياة الصّخب والضّجيج، والمرافق العامّة، ألا توجد حضارة في البداوة، وإن كان طبعا يعني بتلك الحضارة التّطوّر والتّقدم، حيث السّعادة الّتي يعيشها البدويّ البسيط، فالسّعادة وحدها هي الحضارة.

والأمر نفسه ـ البدو الرّحّل ـ والحياة الهانئة الّتي يعيشها، كانت تجول بخاطر رحّالة آخر فرنسي آخر هو " **تينا دوفان**" ويؤكّد إعجابه بهم كسابقه، وبساطة العيش لديهم قائلا في وصفهم:" يسكنون قرى تسمّى الدّواوير، ناصبين الخيّام السّوداء ذات القدرة على مقاومة الأحوال الجوّية السّيّئة، يضعونها بشكل دائري لاستقبال قطعان المواشي وإيوائها ليلا."[1]

وعن وسائلهم للرّحيل، يواصل وصفه لهم، وعن رحيلهم كلّما دعت الحاجة إليه باحثين عن سبل العيش قائلا:" لا يستقرّون بالموضع الّذي يختارونه، وإنّما يرحلون باتجاه مكان آخر كلّما حان موعد الرّحيل فينقلون أمتعتهم على ظهور الجمال والثّيران."[2]

يبدو أنّه منظر راق الرّحّالة وأعجبه، لأنّه لم يقل عنه ما يسيء إلى ذلك، بل وصفه على حقيقته فالأمر بالنّسبة إليه عاديّ، كونه رحّالة ينتقل من مكان إلى آخر.

كما يصف الرّحّالة بناياتهم البسيطة، وكيف أنّه لا يجد المنازل الكثيرة، حتّى يمكنها أن تكون مدينة بأتمّ معنى الكلمة، فيقول عنها أنّه عمران بسيط، لا تشييد بنايات ضخمة، ولا منازل فخمة:"إنّ العمران عند البربر قليل، ويقتصر على بناء منزلين، أو ثلاثة بعضها إلى جنب بعض، وتأخذ اسم مدينة"[3]

[1] . ودان بوغفالة . تاريخ الجزائر الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية وملیانة . ص 56.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 57.

من الواضح أنّ الرّحّالة لفت انتباهه ذلك العمران البسيط بساطة أهله، وذلك البناء القليل من المنازل فلا اكتظاظ، ولا فوضى في التّشييد، وبالرّغم من قلّتها إلاّ أنه أطلق عليها اسم المدينة.

هكذا كان تصوير الرّحّالة للحياة العامّة الّتي يعيشها المجتمع الجزائريّ آنذاك، رأ وا فيها ما يدعو إلى سخريّتهم وتهكّمهم بها، من محلّات تجاريّة، ومقاهي، وأسواق، ومعروضات للبيع، وأشكال الباعة، وألبستم الرّثّة ذات الألوان الباهتة، وحياتهم البسيطة، بمشاركة الحيوانات الأليفة لهم طعامهم، الأمر الّذي جعلهم يسخرون من الجزائريّين، إلاّ أنّ حالة البدو، وطريقة عيشهم البسيطة استحوذت على عقولهم، فأعجبتهم وراحوا ينعتون إياها بالحياة الهنيّة السّعيدة الخاليّة من الهموم، والمشاكل، والعراقيل، فلا غموض ولا تعقيد فيها، عكس حياة المدينة ،والّتي بالرّغم من استقرارها إلاّ أنّها حياة مليئة بالهموم بشتّى أشكالها.

4 . **خصوصيّة المرأة:** نظرا للدّور الكبير الّذي تلعبه المرأة في بناء المجتمع، فهي عنصر لا يمكن الاستغناء عنه، وهي المحرك لعجلة الحياة، وهي النّصف الثّاني، إن لم أقل الفعّال لتكوين الأسرة، بالإضافة إلى كلّ ذلك فهي تقوم بعدّة أعمال داخل البيت وخارجه، من طهي لأنواع عديدة من المأكولات، خاصّة الجزائريّة فهي فنّانة في إعداد الكثير من الأطباق الّتي لا يمكن أن توجد إلاّ داخل البيت الجزائريّ.

ونظرا للظّروف الاجتماعيّة الّتي كانت تعيشها الجزائر في أثناء ثورة التّحرير . زمن قيّام الرّحّالة الفرنسيّ **بول أودال** برحلته الّتي سمّاها من الجزائر إلى بوسعادة . لا شكّ أنّها تمسّ المرأة الجزائريّة، فتحيا حياة بسيطة، إن كانت من ناحية اللّباس، أو أشياء الزّينة، أو أطباق الطّعام، كلّ ذلك جعل الرّحّالة **بول أودال** ينظر إليها نظرة احتقار، وتقليل من شأنها، فعن زينة فتيات القبائل قال عنها واصفا إيّاها:" تبدو الفتيات القبائليّات بأثوابهن الرّثّة، وأقراط الفضّة في أذانهن."[1]

وفي كلّ محطّة حطّ بها الرّحّالة رحاله، لم يعجبه منظر النّساء، فراح يصفهنّ وصفا مليئا بعبارات الازدراء والسّخريّة، أشياء خاصّة بالنّساء، يراها هو في غاية التّفاهة والحقارة، فهنّ لم يسلمن من لسانه اللّاذع، فقال عن لباسهنّ:" تخرجن من خيّامهن تنظرن إلينا ونحن نمرّ، هنّ في أثواب بيضاء قذرة، أو حمراء باهتة، على الأجساد أسمال رثّة، على الرّأس عمرة أولاد نايل بشكلها المدوّر."[2]

إلاّ أنّ مواطنه **لويس ريجيس** يخالفه الرّأي فهو يرى جمال المرأة الجزائريّة لا مثيل له، وإن كان إيجاده جمال المرأة العربيّة البدويّة شبيها بجمال القرويّات الفرنسيّات في حالة النّشاط والعمل، وانبهر لجمال النّساء اللّواتي صادفهن في مقبرة قسنطينة وكذلك في منطقة القنطرة الّتي اشتهرت على الخصوص بجمال نسائها."[3]

ويرى **بول بورد** أنّه لا وجود للجمال الجزائريّ، فيقول:" تشترك العربيّة واليهوديّة والقبائليّة في البدانة إضافة إلى كون الجزائريّة انعزالية، ومتخلّفة، ومنعدمة الثّقافة، ليس لها الجمال الفاتن، وليس للجزائريّة تلك الرّقّة واللّطف الّذي تمتاز بهما المرأة المتحضّرة."[4]

كما يضيف عن لباسها، قائلا:" الحايك الّذي تلبسه العربيّة أنّه ذو لون أزرق قبيح، لم ير شيئا أقبح منه وهو يلفّ المرأة، فلا يظهر منها شيء."[5]

---

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي ص 15.

[2] . المرجع نفسه . ص 24.

[3] . سميرة أنساعد . جامعة الشلف . مقال بعنوان صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء القرن التاسع عشر ميلادي.

[4] . المقال نفسه . العدد نفسه.

[5] .المقال نفسه . العدد نفسه.

وتماشيّا مع الأوضاع الاجتماعيّة الّتي تسبّب فيها المستعمر، تعيش المرأة الجزائريّة في فقر مقذع، وأحوال سيّئة للغاية، تترجمها ملابسها، وألوانها، فينعكس ذلك سلبا على أطفالها، أولئك الصّغار الّذي ن يكون الشّارع محيطهم الّذي يحتويهم، يصفهم الرّحّالة بعباراته المملوءة بشتّى أنواع السّخريّة قائلا:" ينتشر الأطفال في كلّ جانب، بأشكال قبيحة، هم موشمون، متورّمون، مصابون بداء الخنازير، أسراب الذّباب تطنّ حولهم من دون أن يحاولوا دفعها عنهم."[1]

يتّضح من وصف الرّحّالة لأولئك الأطفال وهم مسؤوليّة المرأة، فإن رأى عيبا فيهم، فهو عيب ينسبه الرّحّالة للمرأة، إنّ الأطفال الأبرياء لم يسلموا من وصفه اللّاذع المليء بعبارات السّخريّة والتّهكّم، فهي أوضاع اجتماعيّة مزريّة يعيشها المجتمع الجزائريّ آنذاك، السّبب الوحيد فيها المستعمر الفرنسيّ، والرحّالة على علم بذلك، ومع ذلك يصفهم بذلك الشّكل القبيح.

حقّا إنّهم على تلك الحال، لكن ما كان ذلك خطأهم، وبلادهم تعيش حالة حرب، وتصارع الويلات جرّاء تصرّفات مشينة يقهرهم بها المستعمر دون شفقة ولا رحمة، أوضاع متدهورة، وظروف تعيسة، وجدوا فيها وأرغموا على العيش بقربها.

بالرّغم من تلك الأوصاف الّتي نعت بها المرأة الجزائريّة الّتي تعيش تلك الظّروف إلى جانب زوجها وأبنائها، ظلم وقهر، وجهل وفقر وحرمان إلاّ أنّها لم تتخلّ عن مبادئها ووطنيّتها، حتى يجد الرّحّالة جوانب أخرى من حياة تلك المرأة استحق أن ينال إعجاب ه، فراح يصفها أدقّ الوصف، ويصوّرها أبدع التّصوير ويوسمها بعبارات أنقى وأرقى بعيدا عن العبارات المليئة بالقذارة والوساخة، وهو ما يتعلّق بأنواع أطباق الطّعام، والمفروشات الّتي تزيّن بها المرأة بيتها من زراب ذات الألوان الجميلة، حتّى تبدو في أبهى حلّة.

فمثلا عند وصوله إلى مدينة المسيلة، ونزوله ضيفا على إحدى الشّخصيّات الجزائريّة، كان لها وزنا في صفوف جيش التّحرير، راح يصف ديكور بيته البسيط كما قال عنه، بالرّغم من أنه يتولّى منصب مستشار

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 29.

في الإدارة الفرنسيّة:" الغرفة الّتي جرى استقبالنا فيها ضيّقة، ذات جدران مبيّضة، على الأرض بعض الزّرابي الثّخينة."[1]

هكذا كان ديكور مستقبله في مدينة المسيلة، فقُدّم له طعام كثير، ترجم حسن ضيافة الرّجل، وكرمه الزّائد، حيث تحوي المائدة ما لذّ وطاب من شتّى الأطعمة التقليديّة، اختصاص المرأة الجزائريّة المعروف في شتّى مناطق الجزائر، الطّبق المفضّل والأصليّ، وهو الكسكسي فيقول عنه:" أقبلنا إلى المائدة عليها طعام البلد المفضّل، الكسكسى مع المشوي اللّذيذ."[2]

فيتّضح من هذا السّلوك، إقبال الرّحّالة على تلك المائدة إقبال الملهوف، إقبال الضّائع في البراري يستنجد فمن ينجده، يمدّ يده فمن يعينه، ف بالإضافة إلى ذلك الكسكسى الشّهيّ، الّذي لا يمكن لأيّ أسرة جزائريّة الاستغناء عنه مهما كان وضعها الاجتماعيّ، فهو عادة مألوفة لديها وطبقها الرّئيس في المناسبات والاحتفالات، وإلى جانبه أطباق أخرى تتفنّن فيها أيادي الجزائريّات، أعجب بها الرّحّالة، في مدينة أخرى هي بوسعادة، حيث مكث بين البيوت الجزائريّة مطوّلا وتمكّن من الاطلاع على أسلوب إعداد بعض الأطعمة وخاصّة الكسكسى، والرّوينة، والقلّيط.*

فقال الرّحّالة عن القلّيط:" يعدّ من طحين الشّعير، وهو ذو قيمة كبيرة لدى الأهالي."[3]

وتتوالى زيّارات الرّحّالة إلى البيوت الجزائريّة ليصف ويصوّر بإتقان وبراعة ما وقعت عليه عيناه، وخاصّة وأنّ الأسر الجزائريّة تتميّز بخصوصيّات لا مثيل لها في مختلف بقاع العالم، حيث تنفرد بمأكولات خاصّة وزينة للمرأة الجزائريّة خاصّة، وتزيين بيوتها بشكل خاصّ، إلى أن قادته قدماه إلى زيّارة زاوية الهامل الكائنة بمنطقة بوسعادة، ليحطّ الرّحال ببيت السّيّدة زينب . تلك الوليّة الصّالحة . الّتي بدأ الحديث عنها قائلا:" هي

[1]. عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا و إنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 33

[2]. المرجع نفسه . ص 33.

* عبارة عن خبز محمّر من دون خميرة.

[3]. المرجع نفسه . ص 49.

وليّة حيث تداول النّاس حكاية عن عصا والدها الّذي غرزها بجانبه قرب منبع ماء حيث كان يستريح فنجمت منها أوراق صارت شجرة توت."[1]

يبدو أنّ ما أورده الرّحّالة في هذا المقطع من رحلته، روي له عنه، عن ذلك الرّجل الصّالح صاحب اليد المباركة . والد سيّدة الزّاويّة . وكأنّها قوّة سحريّة، بمجرد أن غرز عصاه بمكان استراحته تصبح بدلها شجرة توت، أهي عصا موسى عليه السّلام السّحريّة، والّتي بكلمة من ربّه تصبح عصاه أفعى تزحف على الأرض تأفك أفاعي السّحرة.

ثم يسترسل الرّحّالة بإفاضة المكان المبارك، وعن سيّدته، وعن فضلها وذيوع صيتها الّذي وصل مسامع المحتلّ الفرنسيّ الّذي أصبح يحسب لها ألف حساب، فيقول الرّحّالة:" هنا تقيم المرابطة زينب معشوقة المنطقة، كقوّة روحيّة تضعها الحكومة الفرنسيّة في الحسبان، لذا هي تعفى من كلّ الضّرائب كامتياز ناذر جدّا يخصّها."[2]

لم تكن الوليّة الصّالحة محطّ أنظار الفرنسيّين، وغمروها بتلك الامتيازات والخصوصيّات فحسب، بل حتّى جنود الجيش الجزائريّ، حيث كانوا لا يخرجون إلى معركة ضدّ العدوّ إلاّ ويمرّون بالسّيّدة زينب يتبرّكون ببركتها، ويأخذون منها العون على الاحتلال حتّى يكون النّصر حليفهم، جاء ذلك في قول الرّحّالة: " سلطتها الرّوحيّة القويّة، جعلت الكثير يلتفّون حولها، معتقدين أنّهم يتحوّلون إلى بواسل في الحروب فيجعلهم ذلك يستبسلون حتّى الموت من أجلها."[3]

كلّ ما وصفه الرّحّالة وأورده عن الزّاويّة وعن سيّدتها وبركتها، وفضلها، وعظمتها لم يره بأمّ عينيه، وإنّما سمع عنه من الأهالي، فقرّر أن يزور السّيّدة زينب ليتحقّق ممّا روي له، فكان له ذلك، ليستهلّ حديثه عنها

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا و إنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 64.
[2] . المرجع نفسه . ص 64.
[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

بوصف الباب المؤدّية إلى الزّاويّة، فقال:" قادونا عبر باب عريض عميق مقبّب مفضيّ إلى الزّاويّة، إلاّ أنّ السّيّدة زينب اعتذرت عن استقبالي بسبب وعكة صحيّة."[1]

دخل الرّحّالة عبر تلك الباب إلى غرفة خصّصت لراحته رفقة الوفد الرّحلي المرافق له فقال عنها:" هي قاعة ضخمة طويلة كقاعة عرض بنوافذ عنبيّة عريضة تطلّ على الرّيف في الفضاء البعيد."[2]

لم يتوانى الرّحّالة عن وصف أيّ شيء مهما كان حجمه، ومهما كانت أهميّته عن تلك الغرفة والدّيكور الّذي احتوته، من أثاث للتّزيين بتلك الزّرابي ذات الألوان الزّاهيّة الرّائعة، وتلك الزّخارف المختلفة البديعة الهندسة الّتي تفنّنت فيها أنامل المحترفات الجزائريّات، في نسجها واختلاف الرّسومات والألوان، جعلت الرّحّالة يندهش لذلك، فنطق لسانه ليترجم قلمه على صفحات كتاباته الرّحلية إعجابه اللاّمحدود:" مفروشة بواحدة من هذه الزّرابي الثّخينة من صوف، بألوان حمراء، وخضراء جلبت من جبال عمّور، ما عدا هذا فالأثاث لا شيء فيه شرقيّ، أريكة بمخدّات، سريران من خشب فاخر بزخرفة أوروبيّة، كراسي، ومقاعد وتيرة بمساند للذّراعين."[3]

حتّى وإن كان الرّحّالة قال لا شيء شرقيّ في الأثاث، إلاّ تلك الزّرابي الجميلة ذات الألوان المختلفة أضاف أنّه صنع أوروبيّ، فلا بدّ أن توجد فيه لمسة اليد الجزائريّة، الّتي رتّبته بشكل يلفت الانتباه، وإلاّ كيف شدّ إليه نظر الرّحّالة، فوصفه وبالغ في وصفه بأدقّ التّفاصيل.

بالرّغم من غياب السّيّدة زينب إلاّ أنّ استقبالها لضيوفها كان حاضرا بل مبالغا فيه، وكرمها لا يغيب أبدا شأنها شأن كلّ الجزائريّات، فالتّرحيب بالضّيف واجب، وشيمة من شيم العرب، يظهر ذلك في تلك المائدة الّتي خصّصت لضيوفها ـ الرّحّالة ورفاقه ـ المتنوّعة الأطعمة، المتعدّدة الأصناف، وصفها الرّحّالة بقوله:"صار الغذاء جاهزا... ظهرت الشّربة أوّلا، حساء النّعناع، الشّعيريّة بالطماطم والفلافل الحمراء، ثمّ

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا و إنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 66.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 67.

حنيس Hanis الخروف بالتّمر والبطاطس والحمّص والفطائر بقليل من الدّهن من دون سكّر،والكسكسى الوطنيّ المرصّع بحبّات الزّبيب اليابسة، ارتفع في شكل قبّة المسجد عن صحن من خشب الزّيتون(قصعة)."[1]

يبدو أنّه طعام دسم أسال لعاب الرّحّالة قبل أن يتذوّقه، جعله ذلك يصفه بشكل دقيق، ويصوّر محتوياته، فهذه هي الأكلات الشّعبيّة العربيّة، فيها يتفنّن كلّ بيت عربيّ، وعلى وجه الخصوص كلّ بيت جزائريّ.

كما يبدو أنّ الأمر أعجب الرّحّالة، وأنّ الأكلات والأطعمة الّتي احتواها بيت السّيّدة زينب راقت له فأطال إقامته عندها، لتضيف السّيّدة إلى تلك المائدة طعاما آخر، فهذه مبالغة في الإكرام ما بعدها مبالغة فيواصل الرّحّالة وصفه لكلّ ما لذّ وطاب قائلا:" ظهر أخيرا الصّحن الرئيسيّ الذهبيّ البهيّ: المشوي منضّدا على سفّود طويل."[2]

وكأنّ الرّحّالة كان ينتظره على أحرّ من الجمر حتّى قال في بداية كلامه وأخيرا، فأبدى إعجاب ا بتلك الوجبة الشّهيّة الدّسمة، وملأ بطنه، وما بعد ذلك إلاّ قيلولة نادته لينعم بها في ضيافة سيّدة كريمة كرم أهل الصّحراء، بالرّغم من تكبّده عناء السّفر، ووعرة المسالك إلاّ أنّه في الأخير استوطن بأحد البيوت الكريمة في صحراء سخيّة، وبعد طول انتظار تلك السّيّدة الّتي اعتذرت عن استقبالهم، فيشغل نفسه بالتمعّن والتأمّل في حسن تأثيث المنزل، بالضّبط في تلك الغرفة الّتي يصفها بأدقّ التّفاصيل قائلا:" في قاعة فرشت بالزّرابي وصفّت كراسي حولها طاولة غطّيت بصوف أحمر."[3]

استسلم الرّحّالة للرّاحة بغرفة تلك السّيّدة المباركة الّتي يبدو أنّها حسنة الذّوق، طعامها وفير، وفراشها وثير، يدلّان على تلك الأنامل الّتي أحسنت تزيين غرفة الضّيوف، فها هي الآن تطلّ عليهم بطلّتها البهيّة والّتي سرعان ما إن رآها الرّحّالة حتّى راح مبالغا في وصفها ابتداء من عمرها إلى رشاقتها، إلى هيئتها

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا و إنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 70.
[2] . المرجع نفسه . ص 71.
[3] . المرجع نفسه . ص 73.

وهندامها، تتمايل في مشيتها وسط ملابسها البيضاء:" هي سيّدة في الثّلاثينات من العمر ذات وجه ضامر ونحافة نسكية، ذات نظرات ثاقبة عذبة، ملابسها بيضاء سميكة وثقيلة."[1]

رحبت السّيّدة بالرّحّالة ورفاقه من جديد، وأصغت له بانتباه، وهو يشرح هدف زيارته إليها، وخاصّة بعد أن سمع عنها أنّها تملك عددا هائلا من الحليّ، وأنّ مهمّته هي البحث في كلّ مكان لرؤية الحليّ الّتي تمتلكها الشّخصيّات الكبيرة، حينها لبّت السّيّدة طلبه وحاجته، وأحضرت كلّ ما تملكه من ذهب لتبسطه أمامه، كلّ ذلك والرّحّالة يتأمّل زينتها وطلاء يديها بالحنّاء فوصفها قائلا:" شرعت السّيّدة تبسط محتوياتها بأناملها الدّقيقة الشّريفة المكسوّة بالحنّاء."[2]

فهذه إحدى عادات وتقاليد المرأة الجزائريّة، وهي تزيين اليدين أو القدمين بالحنّاء، وخاصّة في الأفراح والمناسبات السّعيدة.

نستطيع القول: إنّ رحلة **بول أودال** من الجزائر العاصمة وانتهائها في مدينة بوسعادة، ليعود أدراجه من حيث أتى، وعن خصوصيّة المرأة الجزائريّة تميّزت بجانبين، جانب سلبيّ تمثّل في وصفه للّباس وزينة المرأة البسيطة الخاضعة لطغيان الاستعمار، الّذي حرمها أبسط حقوقها، وجعلها أبدا تعيش الحرمان والفقر والجهل، حتّى نعتها الرّحّالة بكلمتي الوساخة والقذارة، وجانب إيجابيّ تمثّل في وصف تلك المرأة المباركة المتعلّمة شيئا ما جعلها محطّ أنظار المستعمر فضلا عن أنظار أبناء بلدها، وما تنعم به من خيرات تظهر في لباسها ومأكلها وأثاث بيتها، حتّى نعتها الرّحّالة بأسمى عبارات التقدير والاحترام.

ويستشف من خلال الوصفين ـ وصف المرأة الجزائريّة البسيطة الفقيرة ـ همّها كلّه ينصبّ في الاهتمام بعائلتها، لا شيء يلهيها عنه، حيث لا وقت للزّينة والمظهر الجميل، ووصف سيّدة الزّاوية، تلك المرأة الرّاقيّة ابنة شيخ الزّاويّة، ذا العصا السّحريّة بمجرّد أن غرسها إلاّ وكانت شجرة يستظلّ بظلالها المارّة وزوّار الزّاويّة

[1] . عمر بن قينة . صورة الجزائر: أرضا و إنسانا لدى رحالة فرنسي . ص 73.
[2] . المرجع نفسه . ص 75.

فهي سيّدة مجتمع، صاحبة زاوية يعود إليها كلّ من كانت لديه حاجة ملحّة، يتبرّك ببركتها، وينتفع بمنافعها فكيف لا تكون السّيّدة زينب بهذا المظهر اللّائق يعجب زوّارها حين تكون في استقبالهم.

المبحث الثاني:صورة الجزائر في عيون الرّحّالـة الألمــان.

تعدّدت الرّحلات الأجنبيّة باتّجاه أرض الجزائر، كلّ حسب هدفها، وبعد أن خصّصنا المبحث السابق للرّحلات الفرنسيّة، فيليه المبحث الخاصّ بالرّحلات الألمانيّة الّتي جابت مناطق مختلفة من الجزائر، وتكون البداية بما قاله أبو العيد دودو في دراسته لكتابات الرّحالة الألمان، وحسب تعبيره أنّها لم تكن حبّا في الجزائر وإنّما كانت بدافع الطّمع والاعتداء والاستغلال حيث قال:" إنّ الرّحّالة الألمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبّا بها، ودفاعا عن حقوقها، وإنّما وضعوا أكثرها، ولاسيما في الفترة الأولى لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر."[1]

وقبل أن يقوم الرّحّالة الألمان بزيّارة نحو الجزائر، اهتمّوا أوّلا بترجمة ما كتبه المؤلّفون الأجانب عن الجزائر" من أمثال **توماس شو** " صاحب كتاب " رحلة في ولاية الجزائر عام 1765 م، و **فيليبو بنانتي** " رحلة إلى سواحل البرابرة" عام 1824م وغيرهم كثير ممّن استهوتهم الجزائر لإقامة وإنشاء المستعمرات" [2] لأنّ الرّحّالين السّابق ذكرهم لم يتركوا بقعة في الجزائر إلاّ وصفوها من مدن، وموانئ، وجبال، ووهاد، وأنهار وبحيرات، وجوّ، ومناخ، وخصوبة أرض، ومنتجات زراعية، ومساجد، ورجال دين، كلّ ذلك كان تمهيدا لإقامة مستعمرات، هذا ما يتّضح من قول الدّكتور أبي العيد دودو، والسّابق بعد أن أدلى بذلك التّصريح أنّه ما كان وصف الرّحّالة الألمان لأرض الجزائر إلاّ لأجل إقامة المستعمرات، إلاّ أنّه يبدو تراجع في ذلك

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 م . 1855م) . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1989 . ص 08.
[2] . المرجع نفسه . ص 09.

في قوله الموالي:" ولكن لا ينبغي أن نتّخذ كلّ ما قاله هؤلاء الرّحّالة بمحلّى الجدّ، والتّصديق،وأنّه قضيّة مسلّمة."[1]

إذن سنرى إن كان ما قاله الدّكتور صحيحا، أو غير ذلك، انطلاقا من الوصف الّذي أعطاه هؤلاء الرّحّالة الألمان لأرض الجزائر، وخاصّة المناطق الّتي قاموا بزيارتها.

2 . 1 الموقع الجغرافي والمناظر الطبيعية:

أوّل الرّحّالين الألمان يمكن أن نسجّل له انطباعا عن الجزائر (**فيلهلم شيمبر**)* قام بزيارة الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831م، واتّخذ عبارة (**فيلهلم شيمبر** إلى الجزائر في سنتي (1831 و1832م) عنوانا لرحلته، وأوّل ما وصل إلى مدينة الجزائر حتّى لف ت انتباهه مناظرها الطّبيعيّة فقال عن ذلك:" دعيت هكذا بسبب الفيضانات الّتي تغمر سهل متّيجة في الشّتاء وتحيله بحيرة كبيرة."[2]

وعن المدينة نفسها . مدينة الجزائر . يعرض رحّالة ألماني آخر (**فرديناند فينكلمان**)* موقعها المطلّ على البحر من خلال كتابه " تاريخ الجزائر من طرف الفرنسيّين سنة 1830م" يعرب فيه عن إعجابه بموقع المدينة السّاحر قائلا: " من موقع مطلّ على البحر، وهضاب، وجبال، ووديان."[3]

فعلا إنّه موقع استراتيجي هامّ تتميّز به مدينة الجزائر على غرار باقي المدن الجزائريّة السّاحليّة، ينبغي به كلّ زائر للجزائر، فيقف بقربه متأمّلا زرقة مياهه، وشساعة ساحله حيث ترسو على مينائه العديد من البواخر المحمّلة بمختلف البضائع، ذلك الميناء الطّويل سحر لبّ رحّالة آخر ألماني **هايزيش فون مالتسان**

---

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 م . 1855م) . ص 12.

* . فيلهلم شيمبر (1804 . 1878م) له إلمام بعلم النبات،(أخو العالم الكبير النباتي كارل فريدويش) قام برحلات في فرنسا . مصر . الجزائر والجزيرة العربية . طبع كتابه في رحلة إلى الجزائر في مدينة تشتوتغارت عام 1834م.

1 . المرجع نفسه . ص23.

* فرديناند فينكلمان رحالة وأديب ألماني نشر كتابه بمدينة إيلمناو عام 1832م.

[3] . المرجع نفسه . ص 23

الّذي قال عنه: " كان شاطئ ميناء الجزائر يمتدّ إلى جانب المدينة على شكل هلاليّ...قطعة فاتنة من طبيعة الجنوب."[1]

فبعد أن ينزل الرّحّالة من أيّة جنسيّة كانت على ميناء الجزائر، فلابدّ بعد ذلك تشدّه تلك المناظر الخلّابة الّتي يتميّز بها من تضاريس لما تحتويها من جبال، ووديان، وسهول، وهضاب، شأنه شأن الرّحّالة الألماني " **مالتسان**"، فبعد أن نزل من على ظهر الباخرة المقلّة له من بلده إلى الجزائر وجد نفسه ينعم بشمس دافئة في سماء صافيّة قائلا عن ذلك:" حيّاني الشاطئ الضّاحك، وقد امتلأ بأشعّة سماء صافيّة عميقة الزّرقة، كأنّها رؤيا جميلة في بلد خرافيّ حلمت به."[2]

وعن سهولها قال:" السّهول متلألئة في ذوب ألوان الجنوب وتلال الشّاطئ رائعة، وقمم الأطلس تغطّيها الثّلوج، وصخور جرجرة بلاد القبائل منحدرة رماديّة اللّون، هذا كلّه فاق كلّ ما كنت أتوقّعه."[3]

كيف بمنظر هكذا لا يعجب به كلّ من رآه، فعلا يقف المرء له متأمّلا دهشا ومبهورا بما صنعته الطّبيعة، حقّا إنّها لوحة فنيّة امتزجت فيها كلّ الألوان من زرقة وبياض ورماديّ، ولابدّ وحتما أن يضاف إلى ذلك اللّون الأخضر، وباقي الألوان عندما نجد الأرض بخصوبتها ذات السّهول الواسعة غرست فوقها مختلف الأشجار المورقة بثمارها وفاكهتها تطلّ عليك لتناجي ك من فوق العصافير المغرّدة، وهكذا أرض الجزائر الخصبة الملائمة لمختلف المنتجات الزراعيّة، رآها الرّحّالة الألمانيّ **فينكلمان** فصوّرها ووصفها بعبارات الإعجاب قائلا عنه ا:" تتوّفر الجزائر على منتجات زراعيّة ذات مقادير هائلة حيث تجني محاصيلها على مدار السّنة."[4]

---

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا . ج 1 . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ص 19.

[2] . المرجع نفسه . ص 19.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[4] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان(1830م . 1855 م) ص 24.

* شونبيرغ رحالة ألماني وأشهر أطباء القرن التاسع عشر اسمه بالكامل (يورغن يوهان ألبير يخت فون شونبيرغ) ولد في 27 سبتمبر 1782م بجزيرة سييلاند بالدانمارك تحصل على شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة فورتسبورغ بألمانيا سنة 1829م.

مناظر أخرى من مناظرها الخلّابة صوّرها الرّحّالة الألمانيّ (**شونبيرغ**)* ألّف كتاب عن الجزائر بعنوان" نظرات على الاحتلال الأخير والتّاريخ الحديث للجزائر واستعمارها بعد أن عمد إلى دراسة موجزة عن الطّب في الجزائر ونشرها في مجلّة ألمانيّة سنة 1837م.

وقبل التّطرق إلى تاريخ الجزائر أبدى إعجابه بالمنطقة ومناظرها الّتي سحرته، وأسرت عقله: " وخلف الجزائر تمتدّ سلسلة جبال الأطلس في انحناء، ولذلك كلّه منظر لطيف خصب يعكس منظر الأهالي تماما."[1]

يبدو أنّ ما من زائر للجزائر إلّا لا يمكنه أن يغفل عن وصف موقعها، وتضاريسها ومناظرها الطّبيعيّة الرّائعة، وخيراتها الهائلة، ومنتجاتها الزّراعيّة الوفيرة، نظرا لخصوبة تربتها، ومع ذلك نجد الرّحّالة الألماني "**مالتسان**" يعيب على الّذين سبقوه إلى زيارة الجزائر أنّهم لم يصوّروا جمالها وروعته إلى حدّ الفتنة حسب تعبيره الّذي قال فيه:" أمّا عن البلاد الجميلة إلى حدّ الفتنة فإنّ أحدا لم يقل ذلك."[2]

كما يضيف عن الّذين لم يسبق لهم أن زاروها فيقول عنهم:" الإنسان الّذي لم يقدم إلى الجزائر لا يمكنه أن يتصوّر أنّ الشّاطئ يجمع بين الجمال الطّبيعيّ، وروعة سلسلة الجبال الشّامخة بجوّها الشّاعريّ."[3]

هذا فعلا رحّالة يعطي للجزائر حقّها ويصفها ويصوّر ما فيها من مناظر تبهج القلب، وترتاح لها العين فتسبح في عالم الجمال الحقيقيّ هو من جمع الجغرافيا بالتّاريخ، وعلم الاجتماع، والنّفس، ولم يغفل عن التّقاليد والعادات الّتي تزخر بها كلّ منطقة زارها، وحتّى يكون منصفا يدوّن كلّ ما رأت عيناه، وما سمعت أذناه.

2 . 2 المساحات الدينية: إنّ الجزائر بلد مسلم، وأوّل ما يلفت انتباه الغريب عنها، وأعني غريب الدّين أي غير مسلم، تلك المساجد، مكان تجمّع المسلمين، وعقد ندواتهم ولقاءاتهم حول أمور تهمّهم، بالإضافة إلى كون المسجد بيت الله، مكان عباداتهم وصلاتهم، فإنّه منتدى اللّقاءات، وقد تميّز عن باقي الأبنيّة

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا . ج 1 . ترجمة أبو العيد دودو . ص 31.
[2] . المرجع نفسه . ص 20.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

بشكل جعل الرّحّالة يلتفتون إليه واصفين إيّاه، مصوّرين له، فعلى سبيل المثال الرّحّالة الألماني " **مالتسان**" أوّل ما خطا في مدينة الجزائر، فاجأه منظر المسجد الرئيسيّ ويدعى الجامع الكبير، فراح يصفه قائلا:" هذا الجامع من ناحيّة الشّارع هناك واجهة جميلة بأعمدة من المرمر، وعدد من الحنيّات، مزيّن داخلها على شكل بديع."[1]

ويواصل الرّحّالة تجواله في شوارع مدينة الجزائر، يتطلّع إلى مساجدها وعمرانها، وبهاء الزّخرفة الّتي تميّزت بها المساجد الجزائريّة، فيبدو أنّها نالت إعجابه، فلم يبخل عنها بتلك العبارات المعبّرة عن اندهاشه لحسن الصّنيع، وبديع البناء والزّخارف، واختلاف الألوان، فبعد المسجد الجامع، وقعت عيناه على المسجد الحقيقيّ، فرآه يشبه سابقه، إلاّ ذلك المحراب الّذي متّع ناظريه بمشاهدته، فوصفه قائلا:" المحراب يحدّد الاتّجاه نحو مكّة، فإنّه يحمل في سقفه زخرفا يشبه الرّسوبيّات المتصاعدة الّتي يتمتّع الإنسان بمشاهدتها فيما بين الحمراء، وطرابلس في كلّ مسجد،وقصر عربيّ، وبه قبّة جميلة تعلو بيت الصّلاة."[2]

لاشكّ أنّ الرّحّالة كانت له رحلات إلى ايطاليا قبل أن يزور قارّة إفريقيا، جعلته يعقد مقارنة بين مناراتها ومنارات المساجد العربيّة، وتلك البروج المسيحيّة، إلاّ أنّ العرب الّذين تعوّدوا على العيش في الخيّام اتّبعوا الأصالة العربيّة في بناء مساجدهم، فقال عنها:" فمنارة الجزائر سوى برج عال مربّع، تغطّي جدرانه زخارف وتحيط بقمّتها شرفة،ينطلق منها صوت المؤذّن."[3]

وعن صوت المؤذّن ذلك الشّخص الّذي مهمّته الإعلان عن موعد الصّلاة، فيدعو المسلمين لأدائها بعبارة حيّ على الصّلاة، حيّ على الفلاح، يمكن أن توكل له مهمّة ثانية في ليلة الإعلان عن أوّل يوم من شهر رمضان المبارك، عادة إسلاميّة جزائريّة خاصّة، أعرب عنها الرّحّالة الألماني (**موريس فاغنر**)* ، وعن تلك العادة الّتي تبهج الصّدور وتثلج القلوب، يفرح لها الصّغير قبل الكبير، فوصف الرّحّالة المشهد الّذي يشعّ بالنّور باختلاف الأنوار، والمصابيح، والعلم المرفرف الأبيض، حتى تكون سنة بيضاء عامرة بالخير

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا . ج 1 . ترجمة أبو العيد دودو . ص 21.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 22.

والبركة والمحبة بين الناس، فيقول عن المناسبة:" توقد المصابيح فوق منارات المساجد، وتضئ الهلال الذي يتوج رؤوسها ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط المصابيح، ويرفع العلم الأبيض، ثم يدعو المؤمنين للصّلاة."[1]

حقّا إنّه مشهد تقشعرّ له الأبدان، وتفرح له القلوب، وترتاح له النّفوس، وتعجب به كلّ نفس شاعرة فينطلق لسانها بالتّعبير عنه، وقد يعبّر عن ذلك الإنسان العاديّ، العربيّ قبل الأجنبيّ، وهو يعيشها في كلّ سنة، في أوّل كلّ شهر رمضان، فما بالك بإنسان غريب عنها، ولاسيّما إن كان رحّالة مهمّته رصد كلّ كبيرة وصغيرة ليدوّنها في كتاباته الرّحلية، حتّى وإن كانت لا أهميّة لها، فكيف هو الأمر إن كان المشهد دينيّا إسلاميّا تحيط به الأنوار المختلفة، والأعلام المرفرفة مرحّبة بضيف عزيز يحلّ مرّة كلّ سنة ، وينتظره المسلمون بفارغ الصّبر.

وبعد تلبيّة المسلمين لنداء المؤذّن، يهرعون نحو المسجد لأداء الصّلاة، فدفع الفضول الرّحّالة إلى الدّخول معهم ما دام لم يمنعوه ليرى تلك الأمور والتّعاليم الّتي يقوم بها المسلمون داخل المسجد سمّاها الأمور الغامضة في تعبيره: " كان الفضول تلك الرّغبة الخاصّة بنا نحن الألمان في مشاهدة المناظر الغامضة يدفعني كلّما سمعت صوت المؤذّن إلى المسجد وكنت أحيانا أشارك في صلاة الجماعة الغامضة."[2]

أشياء غريبة، ومناسك متعارف عليها بين صفوف المسلمين في اعتقاد الرّحّالة أراد رؤيتها، فلم يجد بدّا من الدّخول بينهم، حتّى ولو من أجل تأدية ومشاركة المسلمين صلواتهم،وهو لا يعرف عن تلك الأمور شيئا ولا يفقه منها شيئا، إلاّ أنّ الفضول دفعه إلى ذلك، وحبّه للتطلّع ومعرفة ما يقوم به هؤلاء العرب المسلمون داخل تلك البيوت الّتي يسمّونها مساجد لكونها تختلف عن البيوت العاديّة في البناء ، والتّشييد، والزخارف الّتي تزيّن جدرانها.

---

* موريس فاغنر عالم طبيعي ورحالة ألماني(1813م ـ 11887م) عرف منذ طفولته بميله لمراقبة الحيوانات والنباتات ـ اشتغل كأستاذ بجامعة ارلانغن ثم التحق بوظيفة تجارية في مدينة مرسيليا مكنته من القيام بزيارة إلى الجزائر سنة 1835م، وأعاد الزيارة سنة 1836 كمراقب وجامع للأشياء الطبيعية، زار قسنطينة ـ البليدة والرغاية وتحت حماية الأمير عبد القادر زار معسكر.

1 ـ أبو العيد دودو ـ الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ـ ص 114

2 ـ المرجع نفسه ـ ص نفسها.

تلك المساجد الّتي أعجب بها الرّحّالة وراح يصوّرها ويصفها، تعرّض بعضها إلى الدّمار ، والتّخريب والتّدنيس من قبل الاحتلال الفرنسيّ لتحلّ محلّها بنايات أخرى تفي بأغراضهم الشّخصيّة، رآه الرّحّالة الألماني **شيمبر** عملا شنيعا فيؤكّد ذلك بقوله:" أروع مسجد في الجزائر قد هدّم، لتقام مكانه ساحة للاجتماعات مع أنّه كان بالإمكان إقامة هذه السّاحة قرب مقام الحاكم الفرنسيّ، وهناك مساجد حوّلت مخازن للتّبن، وأخرى بنايات عسكريّة، وأخرى للعزف على الكمان."[1]

إنّ غرض المستعمر الفرنسيّ من وراء هذه الأعمال الشّنيعة المساس بالدين الإسلاميّ، والمقدّسات الإسلاميّة، أنكرها الرّحّالة ورأى أنّه لا يجب السّكوت عنها، فلا بدّ من الثّورة ضدّها، فما دامت المساجد ملكا للمسلمين فلا يجب التّقرّب منها، فقال الرّحّالة بشأن ذلك:" لا يمكن إلاّ أن يثور المرء على مثل هذه الأعمال الفظيعة، لأنّ وثيقة الإسلام تنصّ على عدم المساس بممتلكات الجزائيّين ومقدّساتهم الدّينيّة."[2]

كلّ ما قدّمه الرّحّالة **شيمبر** عن تلك المساحات الدّينيّة بما فيها المساجد بالوصف كان من جانب إنسانيّ، محاولا كشف السّتار عمّا ارتكبه المحتلّ الفرنسيّ في حقّ الجزائريّين من مساس بالممتلكات وتدنيس المقدّسات فأنكر عليهم ذلك.

والأمر ذاته ذكره رحّالة آخر ألماني(**فاغنر**) في رحلته، أي عن تهديم الفرنسيّين للمساجد الجزائريّة بغية إقامة بنايات جديدة خاصّة بحكومتهم وإدارتهم، أو لتوسيع الشّوارع كما ذكر **شيمبر**:" وعن المسجد الكبير والّذي كان يحتلّ وسط السّوق هدّمه الفرنسيّون ورموا بأعمدته المرمريّة إلى أماكن أخرى."[3]

علّق على ذلك الرّحّالة **فاغنر**: " هكذا اعتدت فرنسا على حرمات المسلمين وذلك ما لن يغفره لها الجزائريّون ولن ينسوه أبدا."[4]

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . 21.

[2] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[3] . المرجع نفسه . ص 82.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

لم تتوقّف أعمال التّخريب والتّدمير عند المساجد الجزائريّة، بل تعدّى الأمر إلى القبور والأضرحة الّتي فتحت لإخراج الرّفات بغية الحصول على الأموال من وراء بيع العظام للمعامل حيث يؤكّد ذلك الرّحّالة **فاغنر** بقوله:" تجلّت حقارة الفرنسيّين في فتح القبور والأضرحة، وبيع عظام الموتى لمعامل مسحوق العظام بعد نقلها إلى فرنسا."[1]

مناظر بشعة وأعمال وحشيّة شنيعة لاحظها الرّحّالة، وبالرّغم من إنكارها ، ووقوفه اتّجاهها حائرا متأسّفا ومتحسّرا إلاّ أنّ مهمّته تستوجب منه وصفها وتصويرها، وهي بالفعل حقائق لا يمكن تجاهلها فوظيفة المستعمر وما قدومه وغزوه لبلد ما إلاّ من أجل التّخريب والدّمار والتّهديم، فيشنع الرّحّالة بأعماله وكيف أنّه يقدم على أن يتعدّى على قداسة القبور والأضرحة، فهل مجيء الفرنسيّين من أجل استعمار الأحياء أم الأموات؟.

لا تقتضي المساحات الدّينيّة أن يعبّر الرّحّالة، ويصف تلك المساجد أين يعبد الله، وليس الإسلام هو العبادات وإنّما كذلك المعاملات لقوله صلّى الله عليه وسلّم:" الدّين المعاملة"، وممّا يحثّ عليه الإسلام، هو جمع شمل الأسرة العربيّة المسلمة في جوّ مليء بالسّعادة والهناء، حتّى يسود الحبّ والوفاء والطّاعة بين الزوج وزوجته، وبين الأبناء ووالديهم، وحتّى يتمكّن الرّحّالة الألمانيّ **شيمبر** من التّوغل في إحدى الأسر الجزائريّة ويكون على دراية بتلك السّعادة الأسريّة، ربط علاقة بإحداها فكان له ذلك حيث يؤكّد ذلك بقوله:" وقد أتيح لي أن أراقب أسرة تسكن بجواري، فحين يعود الرّجل إلى البيت تستقبله الزّوجة معانقة إيّاه مقبّلة وتجلسه قربها فوق الأريكة، وتحدّثه ويحدّثها، ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين فيضمّهم إلى صدره في حنان وحبّ، ويأخذ في مداعبتهم."[2]

إنّ ما يجري داخل الأسرة الجزائريّة من حبّ ، وودّ وتعاطف ، وتراحم سلوك عظيم وقويم يحفظ للبيت المسلم وحدته، وتتوثّق الرّوابط الأخويّة والأسريّة بين أفراد الأسرة الصّغيرة لتمتدّ وتشمل الأسرة الكبيرة.

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 85.

[2] . المرجع نفسه . ص 12.

إنّ الرّأفة والشّفقة والطّيبة الّتي يمتاز بها أهل الجزائر، وكذلك رقّة قلوبهم وتعاطفهم وتقديم يد العون لمن هو في حاجة إليها من خصال وشيم الرّجل المسلم، وكلّ ذلك من تعاليم الدّين الإسلاميّ الّتي يجب أن تتوّفر لدينا، وكلّ تلك الأمور وجدها الرّحّالة **شيمبر** متعارف عليها ومتداولة في صفوف المسلمين الجزائريّين، وقد ضرب لنا مثلا عن فئة العميان وكيف يعاملون من قبل الجزائريّين بطيبة قلب، وصدر رحب، وكيف يحتقرهم المعمّر ويسخر منهم قائلا في ذلك الشّأن واصفا الفرق الشّاسع بين المعاملتين: " إنّ الأوروبيّين يعاملون العميان في منتهى القسوة، ولم أر أوروبيّا واحدا يقدّم لهم أيّة مساعدة، وعلى العكس من هذا كان موقف المواطنين يشفقون عليهم ويساعدونهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة رقيق القلب، مرهف المشاعر والأحاسيس، لما بدر منه من أسف عل ى معاملة الفرنسيّين على فئة العميان، وأعجب بتصرّف الجزائريّين اتّجاههم، فهو مشهد من الإنسانيّة الحقّة الّ ذي وصفه الرّحّالة ليظهر لنا إعجابه بشيم وخصال الرّجل المسلم.

بالإضافة إلى كلّ هذه الخصال الحميدة المميّزة للإنسان الجزائريّ المستمدّة من تعاليم دينه الإسلاميّ السّمحة جدير بالذّكر صفة الكرم وحسن الضّيافة وحفاوة الاستقبال للزّائر وعابر السّبيل، فشاءت الأقدار أن يحلّ الرّحّالة **شيمبر** بالبداوة في ضيافة إحدى البيوت العربيّة: " استقبل استقبالا حارّا واقتربوا منه وصافحوه وقدّمت له أطعمة من كلّ صنف."[2]

هذه الطّباع والشّيم ليست غريبة على مجتمع مسلم، فلن يتركوا عابر السّبيل عرضة لقطّاع الطّرق فما أن يحلّ على البيت العربيّ ضيف غريب، حتّى يهبّ أهل البيت لاستقباله والتّرحيب به وإكرامه، فالجود كما تقول العرب من الموجود، فليس شرطا أن يكلّف المضيف نفسه فوق طاقته ا، المهمّ في الأمر أن لا يردّ الزّائر خائبا، وتغلق في وجهه الأبواب.

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 15.

[2] . المرجع نفسه . ص 18.

الحياة العامة: سبق وأن ذكرنا انطباعات أولئك الرّحّالة الفرنسيّين عن الجزائريّين وعن أوضاعهم الاجتماعيّة ونشاطاتهم اليومية من أسواق ومحلّات تجاريّة ومعروضات ومقاهي، وسلوك بيات الجزائريّين وهم يعرضون سلعهم، فما وجدنا فيها سوى ألفاظ تهكّميّة، وعبارات كلّها تجريح وسخريّة، وأساليب استهزائيّة، اللّهم إلاّ تلك الحرف التّقليديّة ذات الألوان الزّاهيّة، والزّخارف البديعة، الّتي نالت إعجابهم، فراحوا يصوّرونها ويصفونها، بل وصل بهم الأمر إلى اقتناء بعضها، والآن ونحن نتجوّل بين صفحات الرّحّالة الألمان عن الحياة العامّة الّتي يحياها السّكّان الجزائريّون، سوف نرى هل ح ذوا فيها حذو الفرنسيّين أم غيّروا الاتّجاه نحو الأفضل وعرض الصّور الإيجابيّة.

وإنّ أوّل ما يشدّ انتباه الرّحّالة الأجنبيّ وهو يطأ أرض الجزائر ميناؤها، وسلوك الحمّالين مع بعضهم البعض، وعن المشهد يعبّر الرّحّالة **شيمبر** قائلا:" إنّ الحمّالين في الجزائر لهم عكس ما للأوروبيّين من خلال حميدة."[1]

تدعو الحاجة والفقر الجزائريّين إلى اشتغالهم حمّالين لكسب قوتهم وقوت عيالهم بدل التّسوّل فتجدهم متجمهرين في الموانئ لحمل بضائع الوافدين إلى الجزائر، ووصول السّفن يعتبر عيدا بالنّسبة لهم، لأنّها مصدر رزقهم، والرّحّالة طبعا من بين أولئك القادمين لزيارة الجزائر فاشتغل بوصف ذلك المنظر، تسابق أهل البلاد نحو المسافرين، فشغلهم حمل أمتعتهم فقال:" هم يشتغلون حمّالين ويكسبون من وراء ذلك في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدّة أيّام."[2]

ثمّ بعد ذلك يصف ثيابهم الرّثّة في أثناء قيامهم بعملهم حيث يقول عنها أنّها لا تدلّ على فقرهم أبدا وحاجتهم:" هناك من يحمل تحت ثيابه خمسين دولارا اسبانيّا، ويشدّ عليها كما يشدّ على أمعائه، ومع هذا فإنّ ورائح المطاعم الفرنسيّة الطّيّبة لا تثير شهيّته بأيّ حال من الأحوال، وإنّما يكتفي بالخبز الرّديء بأكله

[1]. أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 12.
[2]. المرجع نفسه . ص 80.

مع الشّاي، أو التّفّاح، ويتناول طعامه في قاعة أكله تحت النّجوم الجميلة، وهي في الوقت نفسه بهوه وغرفة نومه."[1]

هذا هو الإنسان الجزائريّ يفضّل تناول طعامه في جوّه البسيط، ذلك الجوّ الرّومانسيّ تحت ضوء القمر ونجوم السّماء الصّافيّة، يفضّل البساطة على الجلوس في المطاعم الفرنسيّة الفخمة، يفضّل مشاركة أبنائه طعامه البسيط المكوّن من الخبز ومنتجات بلده الغنيّة على الاختلاط والجلوس وسط جماهير الفرنسيّين، فهو يكسب الخمسين دولارا ويدّخر منها لوقت الحاجة، بدل تضييعها على كؤوس النّبيذ والمأكولات الفرنسيّة.

ما أروع الجزائريّ البسيط القنوع، الرّاضي بعيشه الهنيء وسط أفراد عائلته، ينعم بالدّفء والطّمأنينة وراحة البال معهم، إلاّ أنّ الرّحّالة وصف المنظر كما هو، ولم يحدّد اتّجاهه، إن كان بالإعجاب وإن كان بالسّخريّة، والحقّ يقال إن كان ساخرا منهم، فإنّه يكون ظالما لهم، فالعمل لا يكون إلاّ باللّباس المخصّص لذلك، أمّا من ناحية ولوج العربيّ باب داره والبقاء مع أهله فلأنّه يعرف أنّ ذلك هو الواجب، فلقمة هنيّة وسط أبنائه تغنيه عن تلك المطاعم الفخمة بمأكولاتها الوفيرة وسط جماهير الفرنسيّين الغفيرة.

جانب آخر صوّره الرّحّالة الألمان عن الحياة العامّة للجزائريّين آنذاك وهو إقامة أسواقهم العربيّة الشّعبيّة بمختلف معروضاتها، والّتي قد تصطفّ بعضها إلى بعض، كما جاء في وصف الرّحّالة الألمانيّ " **مالتسان**" قائلا:" في الجزائر عدد كبير من الدّكاكين والحوانيت الّتي يصطفّ بعضها إلى جانب بعض، ويطلق عليها العرب اسم السّوق، والأوروبيّون اسم البازار."[2]

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 80.

[2] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا. ترجمة أبو العيد دودو . ص 29.

ومن جانب آخر في تعبير مواطنه **فاغنر** عن تلك السّلع والمعروضات للبيع فهي تختلف باختلاف الجرميّات المستوطنة في الجزائر، وعن ذلك يقول:" الأسبان يبيعون الورود و الأزهار، والمالطيّون الأسماك والخضر والبرتغال والعرب الطّيور والحيوانات البريّة."[1]

وأغلب المعروضات حسب تعبير الرّحّالة أدوات للزّينة، الّتي يبدو أنّها أعجبته ونالت استحسانه، ويبدو أنّه يميل إلى الجمال قائلا عنها وواصفا إيّاها:" تتكوّن البضائع الأكثر من العطور مثل الورد والياسمين والمصنوعات الحريريّة وهي جميلة إلى حدّ بعيد على الرّغم من أنّها مصنوعة يدويّا."[2]

هو الإبداع والتّفنّن الّذي يتميّز به الإنسان العربيّ، بحيث يجد راحته في ذلك الإتقان، ويقضي جلّ أوقاته في صناعته، حتّى يخرج لنا تحفا فنيّة رائعة تبهر الزّائر ، وتثلج صدره، وتفرح لها عينيه، نحن أهل البلد فما بالك بالغريب عن الوطن، ولاسيّما إن كان لديه حسّا مرهفا، وذوقا رفيعا.

وعن الصّناعات التّقليديّة، والزّخارف المتنوّعة الّتي تعمر بها دكاكين وحوانيت الجزائريّين، حيث يبدعون فيها بأشكال بديعة تسرّ النّاظر إليها، فيقف مطوّلا أمامها مبهورا ، محاولا أن يكتشف سرّ روعتها، وخبايا صنعها، إن كان الزّائر عربيّا أو غربيّ ا، ومن بين هؤلاء الّذين سحرتهم صناعات الجزائريّين، الرّحّالة الألمانيّ "**مالتسان**" فقال عنها إنّها بضائع فاخرة: " من أكبر الدّكاكين وأشهرها دكّان خاصّ بالبضائع الفاخرة يقع قرب الميدان الرئيسيّ، ويستطيع أن يشتري منه أدوات الزّينة والحليّ."[3]

وعن تلك التّحف الفنيّة المطرّزة بالذّهب الموجودة بالدّكّان، والّتي أعجب بها **مالتسان،** وهي الأحذيّة النّسائيّة الجزائريّة فقال عنها:" تلك الأحذيّة النّسائيّة الجزائريّة اللّطيفة، وتدعى البلغات، وهي معقوفة الرّأس ومخملها مطرّز بالذّهب بكثرة."[4]

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 81.

[2] . المرجع نفسه . ص 83.

[3] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا. ترجمة أبو العيد دودو . ص 29.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

هذا كان عن الدّكاكين الجزائريّة والحوانيت، في كتابات الرّحّالين الألمان، ومن مناظر الحياة العامّة الّتي يحياها الجزائريّون، الجلوس في المقاهي ولاسيّما المقاهي العربيّة وما يحيط بها، وما يمكن أن يتوفّر فيها ، ومن الرّحّالين الألمان الّذين أعجبوا بالمقاهي العربيّة، نجد الرّحّالة "**موريس فاغنر**" قد جاء في تعبيره ووصفه لتلك المقهى العربيّة، الّذي يبدو أنّه دخلها وتذوّق قهوته فنالت استحسانه فقال عنها:" وأحسن مقهى عربيّ يكثر فيه الرّوّاد، ويزو رهـ عدد من الأوروبيّين لجودة القهوة في هـ ولوجود الموسيقى، ويدير الفرقة عربيّ يمتاز بالمهارة في العزف، والقيّام في أثناء ذلك بحركات غريبة جدّا تجلب أنظار النّاس إليه."[1]

لقد جلب نظر الرّحّالة **فاغنر** شأنه شأن الحاضرين في المقهى، العزف العربيّ، وقيام قائد الفرقة بحركات غريبة، كما سمّاها الرّحّالة كانت كافيّة، لأن يتجمهر النّاس، ويمتلئ المقهى العربيّ بالوافدين إليها مهما اختلفت الجنسيّات، وإن كان بالمقابل مقهى آخر يونانيّ، عاب عليه الرّحّالة طرقه لجلب النّاس إليها، فهي طرق محرّمة، طرق ملتويّة، فيؤكّد ذلك بقوله:" تجتمع في مقهاه حثالات البشر من كلّ جنس، من غير تمييز عنصريّا كان أو دينيّا، فكان فيهم المسلم والمسيحيّ واليهوديّ والأوروبيّ والإفريقيّ، وفي هذا المقهى تختلط أصوات السّكارى رجالا ونساء بأصوات الآلات الموسيقيّة بشكل غريب."[2]

وفي هذا المقتطف يخفي الرّحّالة إعجابه بالإنسان العربيّ الّذي لا يتردّد على مثل هذه المقاهي، وإن كان لم يصرّح بذلك، فيتّضح من خلال عبارته الصّريحة " يجتمع في مقهاه حثالات البشر" فالإنسان العربيّ تحكمه الأعراف والمثل العليا، فلا يمكن أن يختلط بالرّذالة في الأماكن الوسخة، ولا يمكنه أن يقلّل من شأنه

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 83.

[2] . المرجع نفسه . الصفحة نفسها.

ما دام رفعه الإسلام، وحفظه له، ومن جانب الرّحّالة يبدو أنّه ذواق، يميل إلى الموسيقى العربيّة الأصيلة، الّتي ذهبت بعقله شأنه شأن الحاضرين، ويبتعد عن الأمور المشبوهة من سكر واختلاط بين الجنسين، فبالرّغم من كونه غريب اللّغة عن العربيّة، إلاّ أنّه يبدو أنّه يستسيغ ويميل إلى كلّ ما هو عربيّ.

خصوصية المرأة: بما أنّ المرأة تعدّ عمود الأسرة، وركيزتها الّتي تعتمد عليها في وقوفها كما تتّخذ الخيمة من عمودها الرّكيزة الّتي بفضلها تنتصب، فكذلك تعتبر المرأة، وبفضل تلك الأعمال الّتي تقوم بها في البيت، من رعاية للأطفال، والتّكفّل بمتطلّبات الزّوج، وكما جاء في تعبير الرّحّالة **شيمبر** عن المرأة الجزائريّة، أنّها تستقبل زوجها، وتسهر على راحته، وراحة أبنائها، حتّى تعيش الأسرة في سعادة دائمة، بتوثيق تلك الرّوابط الأخويّة والأسريّة، وكلّ ذلك بفضل المرأة، ودورها الفعّال في تماسك أفراد أسرتها، إلاّ أنّه عدّها سجينة البيت، همّها ينحصر في الاهتمام بشؤون البيت، والسّهر على راحة أفراده، فقال:" إنّ المرأة تعيش كالسّجينة تقريبا وليس مردّه إلى غيرة الزّوج، وإنّما ذلك راجع إلى العادة المتّبعة، فالرّجل الجزائريّ ليس غيورا جدّا، بل هو في غيرته لا يختلف عن أيّ إنسان ينتمي إلى شعب آخر، إن هو وجد في بيته، فإنّ تصرّفه في هذه الحالة لن يختلف عن تصرّف رجل ألمانيّ مثلا."[1]

إنّ عيش المرأة داخل بيتها، ومكوثها فيه أبدا ليس عيبا، وليس إنقاصا من دورها في المجتمع فعملها واهتمامها بزوجها ورعايتها لأبنائها، وتلبيّتها لحاجيّات كل فرد من أفراد أسرتها لا يعدّ سجنا، بل هو أشرف الأعمال، إذ ليس ممّن تقضي وقتها كلّه خارج بيتها في عمل هي فقط العاملة، فهذا خطأ وقع فيه الرّحّالة.

وعن إكرام ذلك الضّيف الكريم الّذي يحلّ على الجزائريّين كباقي المسلمين في كافة بقاع الدّنيا، وعن دور المرأة في الشّهر الفضيل، شهر رمضان المبارك، وما يمكن للمرأة أن تؤدّي دورها فيه على أكمل وجه

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 13.

وما يمكنها أن تقوم به، وما بوسعها أن تعدّ من مختلف أصناف الطعام، فيؤكّد الرّحّالة الألمانيّ "**فاغنر**" ذلك بقوله:" طعام الصّائمين في اللّيل الكسكسى بالزّيت، ويضاف إليه اللّحم المقليّ والفواكه."[1]

هكذا تعيش المرأة الجزائريّة وسط أفراد عائلتها كبيرة كانت أو صغيرة، تلبّي حاجيّاتهم الواحدة تلو الأخرى من طاعة للزّوج، واهتمام بشؤونه، ورعاية للأبناء، والسّهر على راحتهم، فهي ترى سعادتها في سعادتهم، وشفاءها في شفائهم، وهناءها في هنائهم، وراحتها في راحتهم، فلا شيء يكون ينقصها ما دام لا ينقصهم شيء.

المبحث الثالث: صورة الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز

رحّالون آخرون من جنسيّة أجنبيّة عن الجزائر، هم الإنجليز، سنرى إن كانت ما هو بالنّسبة لهم يعدّ مجهولا أم كانت بدافع أطماع شخصيّة لتحقيق المصالح الخاصّة لأغراض توسعيّة، وكباقي الوافدين إلى الجزائر لا بدّ أن يشغلهم الموقع الجغرافي بطابعه السّاحر بمناظره الخلاّبة.

3 . 1 . <u>الموقع الجغرافي والمناظر الطبيعية</u>: وعلى رأس الرّحّالة الإنجليز، وفي مقدّمتهم ممّن شدّوا الرّحال نحو الجزائر، ودوّنوا كلّ ما وقعت عليه أعينهم، الرّحّالة " **هيلتون سيمبسون**"* الّذي بدأ رحلته من بلدة القنطرة وهي بوّابة الأوراس، وبما أنّه عالم جغرافيا، فكان من الطّبيعيّ أن تكون أوّل عبارة عن هذه المنطقة موقعها الجغرافي:" والجبال المحيطة بها مثل متليلي، وسكّانها العرب، ووجود السّكّة الحديديّة فيها ومدرسة فرنسيّة هذه كلّها تجعل منها بلدة مميّزة، فهي البرزخ لمن يصعد إلى الأوراس، أو ينزل إلى الصّحراء."[2]

يبدو أنّ الرّحّالة له علم بمعنى كلمة البرزخ، حتّى أعطى بلدة القنطرة ذلك التّشبيه البليغ، كما أنّ البلدة أعجبته، وتركت لديه انطباعا خاصّا، فوصفها وصوّرها أحسن تصوير، فكلّ ما جاء في تعبيره عن

---

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 117.

* **هيلتون سيمبسون** رحالة ألماني صاحب كتاب (رحلة في ربوع الأوراس) قام بثلاث رحلات إلى الجزائر (1912م . 1913م . 1914) كان هدفه جمع عينات من الصناعات التقليدية الأوراسية بالرغم من كونه عالما جغرافيا.

2 . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . دار الكتاب العربي 2009 . ص 32.

المنطقة، ما يحيط بها من مناظر خلّابة، تلك الجبال، ووجود السّكّة الحديديّة، وكونها بوّابة الأوراس ، فهي عبارة عن هضبة على الزّائر أن يصعدها ليصل الأوراس، وينزلها ليصل الصّحراء ليمتّع ناظريه بمشاهد قلّما يجدها في مكان غيره، فكيف لا يسمّيها الرّحّالة بلدة مميّزة عن بقيّة المناطق الأوراسيّة، كما يضيف الرّحّالة وصفه للمنطقة، فيقول:" لأهميّة القنطرة، فهي الواحة."[1]

أشرنا سابقا إلى أنّ الرّحّالة " **سيمبسون**" عالم جغرافيا إذ مهمّته تقتضي منه التّجوال في مناطق مختلفة من البلاد الّتي يقصدها، فيجوب البراري، والصّحاري، والوسط، وكلّ الاتّجاهات، حتّى يتمكّن من رصد مشاهد جغرافيّة عديدة، ويمتّع نظره بمختلف التّضاريس الّتي تحتويها تلك المناطق، وبعد مدينة القنطرة بوّابة الأوراس، عرّج إلى بلدة " بني فرح "، فبدأ وصفها جغرافيّا بتلك التّضاريس السّاحرة، والمناظر الخلّابة ممّا جعله يلقّبها ببانوراما مختلفة الألوان، متجدّدة الملامح، ويؤكّد أنّ الطّبيعة صنعت ونسجت لمن يتأمّلها ويمعن النّظر فيها لباسا مزخرفا، باهي الألوان:" والشّيء الّذي أعجبني، هو تلك المناظر الّتي مررت بها في طريقي، والوديان الّتي رأيتها، ثمّ الجبال الّتي شاهدتها، وكأنّها بانوراما مختلفة الألوان متجدّدة الملامح."[2]

هكذا هي الطّبيعة، حيث تتضافر عناصرها من جبال، ووديان، وأنهار، وسهول، وهضاب، وأشجار وأزهار لترسم لوحة فنيّة يعجز الرّسام الماهر أن يبدع مثلها، فهي يد الإله فوق أرضه، يغدق علينا من نعمه الّتي لا تعدّ ولا تحصى، وجدها الرّحّالة مرجعا ومصدرا ينهل منه ما شاء من عبارات يسخّرها في وصفه وتصويره ليملأ سطور كتاباته الرّحلية عن الجزائر أرض العطاء والخير.

مناظر أخرى طبيعيّة استطاعت أن تبهر الرّحّالة ويندهش لها باختلاف ألوانها وتنوّع تضاريسها في منطقة أخرى قصدها، ودائما في جبال الأوراس، هي منطقة جمّورة، المنطقة الثّالثة في مشواره الرّحلي مستهلّا وصفه لها بتلك الجغرافيّا السّاحرة، فقال:" هي في سفح الأوراس تطلّ هذه الواحات على

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الإنجليز . ص 33.
[2] .المرجع نفسه . ص 35.

منحدرات تصطبغ تربتها بالعديد من الألوان كالأصفر، والأرجوانيّ مع جبال تحيط بها من الجانبين، فتبدو الواحة الممتدّة على الوادي الكبير، وكأنّها لبست حلّة زاهيّة في فصل الشّتاء."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة غير اتّجاهه الّذي من أجله زار الجزائر، من كونه عالما جغرافيّا إلى أديب رومانسي أطلق العنان لقلبه ليعبّر بما يجول في خاطره، ولقلمه حتّى ينظم أروع القصائد، فقد استهوته الطّبيعة، استقى منها ألفاظا توحي بمعاني الوصف البديع والتّصوير الرّائع، تلك الطّبيعة الغنّاء الّتي امتزجت فيها الألوان من أصفر، وأرجوانيّ، وأبيض، وبطبيعة الحال الأخضر لتشكّل لوحة زيتيّة لو عرضت في أرقى المعارض لحازت على أفضل جائزة في العالم.

ومنظر آخر شدّ انتباهه وأدهشه، فوصفه وصفا يجعل القارئ يتخيّله ويتمنّى زيّارته، وهو منظر المياه المتدفّقة على التّلال وصورة الشّمس المنعكسة عليها فما يزيدها إلاّ جمالا وبهجة:" رأيت المياه وهي تتدفّق من التّلال المحيطة بجمّورة ويزيدها منظر الغروب فتنة حيث تتهادى أشعة الشّمس من فوق هذه التّلال."[2]

فعلا ودون شكّ إنّ المنظر ليدهش من خلال ما قرأ ناه في وصف الرّحّالة له ، فكيف سيكون الأمر عندما نراه، فوجود الجبال، وتدفّق المياه من خلالها، بالإضافة إلى أشعة الشّمس الّتي تغازل تلك المياه بأشعّتها الذّهبيّة، فتنعكس عليها، ويزيدها غروبها جمالا ورونقا وبهاء، فهذا منظر ساحر للقلب والعقل معا ووصف الرّحّالة له بتلك العبارات يمكن أن تنظم قصيدة رائعة لتصبح ألحانا عذبة بتدفّق المياه على الصّخور.

ولابدّ أنّ الرّحّالة كان يهيم في المناطق الّتي زارها، الواحدة تلو الأخرى، يرصد مناظرها، ويكشف أسرار الطّبيعة فيها الّتي بسطت له بساطا يطير فوقه ليمتّع نظره بتلك التّضاريس، ليعرّج إلى منطقة" منعة" الأوراسيّة الّتي سيطرت على عقله كسابقتيها بمناظرها الخلّابة البديعة إلى درجة أنّها أدهشته وجعلته يقول

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الإنجليز . ص 38.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

عنها:" تتميّز بموقعها وحدائقها ومياهها العذبة الغزيرة، وحيويّة سكّانها." [1] ، لذلك أطنب في وصفها فأصبحت في نظره " قرية نموذجيّة".[2]

استطاعت المناظر الطّبيعيّة بتضاريسها المختلفة أن تشغل حيّزا كبيرا في رحلات الرّحّالة الإنجليزيّ "**هيلتون سيمبسون**" الّتي قادته نحو الجزائر، فهذه هي الجزائر السّاحرة بجنّاتها الغنّاء، ورياضها الفيحاء بأشجارها الباسقة المورقة، بودیانها وأنهارها، وجبالها الشّامخة، ومياهها المتدفّقة فوق الصّخور محدثة ذبذبات موسيقيّة تطرب لها الأذن، ويرتاح لها القلب، تجعل المتجوّل بين أحضانها أن يعيش في عالم خياليّ تقوده إلى دنيا بديعة، لو أسعفه الحظّ وأسعفته الظّروف لما أعاد أدراجه.

2 . 3 المساحات الدينية: بالإضافة المساجد الّتي تلفت انتباه كلّ من مرّ بها عموما، والرّحّالة على وجه الخصوص بمختلف مناطق الجزائر، والّتي لا تكاد أيّ منطقة من مناطقها أن تخلو منها، لأنها رمز الدّين فيلفت ذلك العمران الّذي تمتاز به وميّزها عن باقي البنايات الأخرى إلاّ أنّ الإنجليزيّ" **سيمبسون**" شدّ انتباهه زاوية " **جمّورة** " الأوراسيّة حيث على رأسها شيخها، وتعدّ الزّاوية مركز تقديم الخدمات لزوّارها، ولها أدوار عديدة حسب تعبيره فقال عنها:" تحتضن الزّاوية الطّلبة من أجل التّعلّم ودراسة ال دّين، ثمّ أنّها تأوي المسلمين الّذين يقصدونها للنّوم والطّعام."[3]

3 . 3 الحياة العامة: يندرج ضمنها العمل اليوميّ لسكّان المناطق الّتي زارها الرّحّالة من أجل تلبيّة الحاجيّات، إلاّ أنّ الفقر كان منتشرا آنذاك، ذكر ذلك الرّحّالة" **هيلتون سيمبسون**" في أوّل منطقة وطئها هي القنطرة الأوراسيّة، ومع أنّه يدرك تماما أنّ الاحتلال هو المتسبّب في أن تعيش الأسر الجزائريّة في تلك الأوضاع المزريّة أي في فقر مقذع، وجهل مستفحل في جميع أوساط أفراد الشّعب الجزائريّ، إلاّ أنّه لا يقرّ

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الإنجليز ص 44

[2] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[3] . المرجع نفسه . ص 45.

بذلك، ولم يذكر ذلك في كتاباته الرّحليّة، ثمّ " عقد مقارنة بين سكّان الحضر والبدو الرّحّل الّذين يقصدون المنطقة في أوقات معيّنة."[1]

فما يكون قصد هؤلاء البدو الرّحّل إلى منطقة القنطرة إلاّ لأنّها تتوّفر على سبل العيش الّتي يجري وراءها البدو الرّحّل، فلا يخفى على أحد أنّهم إنّما ينتقلون من منطقة إلى أخرى بوجود مواشيهم باحثين عن الكلأ والماء، وكما سبق الذّكر أنّ المنطقة تحتوي على أماكن للرّعي، وقد جاء في وصف الرّحّالة **سيمبسون** لتلك المناظر التي تزخر بها بلدة القنطرة، فلا شكّ أنّ العشب والماء فيها متوفر بكميات كبيرة.

3 . 4 خصوصية المرأة:

لا بدّ للعجلة أن تدور وتقوم بعملها المسطّر لها، فكذلك عجلة الحياة محرّكها المرأة ، فحتّى تسير المركب لا بدّ لها من ربّان، وربّان مركب البيت هو المرأة، وبدونها لا تقوم أعمدة الأسرة، فهي عمودها الّذي ترتكز عليه، إلاّ أنّ الرّحّالة الإنجليزيّ " **سيمبسون**" صوّرها بشكل سلبيّ، وقال عنها إنّ المرأة العربيّة عكس الأوروبيّة، فينحصر عملها داخل بيتها،ولا يمكنها مغادرته إلاّ للضّرورة القصوى، كما سبقه الألمانيّ إلى اعتبارها سجينة أولادها، وزوجها، فقال عنها **سيمبسون**:" فهي تقضي وقتها في البيت وخروجها ناذر، إذ مهمّتها تنحصر في تربية الأولاد ، عكس الأوروبيّة، وإذا خرجت لجلب الماء، أو غسل الثّيّاب فإنّ هذا يحدث تحت رقابة الزّوج أو أقاربه."[2]

كما يضيف الرّحّالة، ولا أدري إن كان ذلك تهكّما وسخريّة من أحوال، وأوضاع المرأة الجزائريّة آنذاك أو إشفاقا عليها من الظّروف الّتي تعيشها:" أنّ رجلا كسر ذراع أخته لمجرّد أنّها نظرت من خلال الباب إلى رجل أجنبيّ."[3]

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الإنجليز . ص 33.
[2] . المرجع نفسه . ص 34.
[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

بالإضافة إلى أعمال البيت الّتي تقوم بها المرأة الجزائريّة عن طيب خاطر دون كلل، أو ملل من اهتمام بالزّوج، والأولاد، فضلا عن الأعمال المنزليّة، فهناك ما تقوم به من أشغال يدويّة، كالنّسيج والتّطريز،استطاع الرّحّالة أن يتطلّع عليها ويكشف أسرارها نتيجة اختلاطه بالأهالي رفقة زوجته، ومن بين هذه الأعمال: " صناعة الحايك، والبرنوس، إضافة إلى الأغطيّة والزرابي."[1]

فمجالات إبداع المرأة الجزائريّة عديدة، ومتنوّعة، فقد تضطرّها الحاجة وتلبيّة متطلّبات أسرتها فتعمد إلى الخروج من بيتها، فلا يكون مجال عملها بالبيت فقط، وينحصر فيه، فتجد ضالّتها خارجه في صناعة بعض التّحف بقصد الاستعمال،وهنا ما وج ده الرّحّالة " **سيمبسون**" في منطقة " **بني فرح** " الأوراسيّة، فعبّر ووصف قائلا:" المرأة في "**بني فرح**" تتمتّع بالحريّة، وتخرج من المنزل، وتشارك في الحياة نسبيّا، بل تصنع الفخّار الّتي تتفنّن في صناعته أشكالا، وألوانا سواء بقصد الاستعمال، أو البيع."[2]

نجد الرّحّالة متناقض مع نفسه، فبعد أن نعت المرأة الجزائريّة في المنطقة السّابقة . **القنطرة** . بالسّجينة وأنّها حبيسة بيتها، وينحصر عملها في الاهتمام بالزّوج، ورعايّة الأبناء، ولا يكون انشغالها إلاّ بالأعمال المنزليّة، فها هو الآن يعطيها بعض الحريّة . وإن كانت نسبيّة . بوصف عملها خارج البيت.

وصادف أن حضر الرّحّالة حفل زفاف جزائريّ في منطقة **بني فرح**، حيث رصد لنا، وتتبّع كافّة المراسيم المقامة هناك قائلا:" أوّل ما يظهر تلك الرّاقصة ترفل في ثوب حريريّ، بينما يطلق البارود فوق رأسها، والنّاس يتحلّقون في جمع غفير."[3]

أمّا عن خصوصيّات النّساء الحاضرات في الحفل فقال عنهنّ أنّهنّ يتجمّعن وحدهنّ دون اختلاط بالرّجال، وهذا طبعا من شيم وحشمة المرأة الجزائريّة، ولا يمكن أن نصفه بالإعجاب من قبل الرّحّالة

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . ص34.
[2] . المرجع نفسه . ص 35.
[3] ـ المرجع نفسه . ص 38.

أو بالاحتقار لهنّ من قبله:" تأتي العروس إلى عريسها، لكن النّساء وحدهنّ، والرّجال كذلك، فلا وجود للاختلاط بين الجنسين."[1]

أمّا عن زينة المرأة في مثل هذه الاحتفالات والمناسبات، فهي نموذج عن المرأة الشّاويّة، فيصف لباسها وحسن اختيارها للألوان، فكلّ لون له مناسبة خاصّة به، فيقول:" يتألّف لباس المرأة في منطقة **بني فرح** من قطعتين داخليّة، وخارجيّة خاصّة الغنيّة."[2]

ويضيف:" الدّاكن يلبس في النّهار، أمّا اللّون الزّاهي أو الورديّ فتلبسه الفتيات الصّغيرات، أو العرائس، والشّال عادة تلبسه المرأة في المنزل، وهو من الصّوف، أو الحرير... ويلصق بدبّوس للزّينة، وفوق الرّأس تضع المرأة مناديل مختلفة الألوان."[3]

يبدو أنّ الرّحّالة أعجبه تفنّن المرأة في اختيار ألوان لباسها، وتشكيلاتها المختلفة، وحسن اختيارها لأوقات ارتدائه، وما يمكن أن تضع من أشياء للزّينة، حتّى سمّاها المرأة النّموذجيّة الشّاويّة، فهذا اللّباس خاصّ بها دون سواها.

إلاّ أنّ الرّحّالة لفت انتباهه عادات وتقاليد تقوم بها المرأة الجزائريّة، وعلى وجه الخصوص الأوراسيّة وإن كان الأمر منتشرا في ربوع الوطن الجزائريّ بل عند العرب جميعا، وهو التّجمهر أمام أضرحة الأوليّاء الصّالحين، والجلوس بقربها للدّعاء، اعتقادا منهنّ بأنّها سخّرت لقضاء حوائجهنّ، وأنّ كلّ ما تفعله يكون في صلاحهنّ، فرأى الرّحّالة **سيمبسون** اهتمام المرأة الشّاويّة بالأضرحة، وخاصّة في المناسبات،و عمّم الحال على سكّان الأوراس، وبسكرة، وأنّه لا يكون خاصّا بنساء منطقة **القنطرة**، فقال:" العنايّة بالأضرحة ليس

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . . ص33.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

خاصّا بالقنطرة، ولكنّها عامّة في بسكرة، وفي الأوراس حين يحتفلون سنويّا بهذا الوليّ، أو ذلك، فتقام المآدب، وتذبح الخرفان، وتوزّع المأكولات على الفقراء، كما يتصدّق عليهم النّاس بالدّراهم."[1]

إن كان ما رآه الرّحّالة صحيحا، وفعلا يتمّ في مثل هذه المناسبات توزيع المأكولات على الفقراء والمحتاجين، وما يجمعونه من أموال تعود لفائدة تنفع المحتاجين والمساكين والفقراء، وعابري السّبيل، أو يسخّرونها لبناء المساجد، والمدارس، فلا ضير في ذلك مادامت أعمال وتصرّفات ترضي المولى عزّ وجلّ.

وعن عادات أخرى، وتقاليد يكون المشارك فيها الرئيسيّ المرأة، وما يمكنها أن تنجزه، وما تقوم به من طقوس ومراسيم متعارف عليها في أوساطها إلى جانب مثيلاتها، ومنها المحبّبة إلى النّفوس، وأخرى يقشعرّ مرها البدن، وتشمئزّ منها النّفوس عند مشاهدتها، أو حتّى عن طريق السّماع عنها، رواها لنا الرّحّالة الإنجليزيّ قائلا:" شاهدت مجموعة من الفتيات يتهادين في الطّريق وهنّ يحملن ملاعق خشبيّة، ويلبسن ثيابا من الحرير، وفي معاصمهنّ أساور من فضّة، والكلّ ينشد " الملعقة تمرح في الطّريق... السّحب تعلو في الفضاء آن للمطر أن يسقط."[2]

هذا احتفاء بنزول المطر، وعلى إثره توزعّ الأطعمة، وهي عادة كريمة، وسنّة حميدة يقوم بها مجتمع منطقة **القنطرة** على غرار باقي مناطق القطر الجزائريّ، فهي ظاهرة وإن كانت غريبة، فهي محبّبة إلى النّفوس لأنّ المطر رمز الخصوبة، والنّماء، وما من أحد إلاّ وتبهجه تلك القطرات الّتي تنزل من السّماء كرما من الله سبحانه وتعالى على عباده، والفتيات لازلن يردّدن تلك العبارات أملا في سقوط المطر.

أمّا عن الظّاهرة الثّانية وتلك العادة السّيّئة، والقبيحة في الوقت نفسه، والّتي جذبت اهتمام الرّحّالة انتشار عادة السّحر، وكثيرا ما تكون ملجأ الكثيرات من النّساء أملا في خلاصهنّ من همومهنّ وأحزانهنّ أو مشاكلهنّ الأسريّة عادة، اعتقادا منهنّ أنّ السّاحر له قوّة غيبيّة خارقة، يكلّم جنوده في الخفاء فيخبرونه بحلّ تلك المشاكل الّتي تقصده المرأة من أجلها، وقد يكلّفها ذلك كلّ ما تملك من أموال، أو قطع من

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . ص 46.
[2] . المرجع نفسه . ص 36.

الذّهب، وانطلاقا من هذا يعمد الرّحّالة **سيمبسون** إلى وصف السّاحرة قائلا عنها:" هي عجوز يطلقون عليها ساحرة القمر."[1]

وقد حضر إحدى جلساتها في أوّل فرصة مواتية، ليكشف أسرارها وخباياها، فوصف ما تقوله، وما تقوم به:" تدّعي السّاحرة أنّها تنزل القمر من السّماء، وتسقطه في صحن مليء بالماء، ثمّ تسكبه في الأرض وتأمر القمر بالعودة من حيث أتى، وفجأة يقع ما يشبه الزّلزال."[2]

ممّا سبق في رحلة **سيمبسون** يلاحظ أنّ المرأة الجزائريّة قد احتلّت جزءا كبيرا في كتاباته، فنراه اهتمّ بها وبلباسها، حيث أولى لها عناية كبيرة وبأدقّ التّفاصيل لكلّ ما يتعلّق بها وبمجتمعها، وبظروفها الاجتماعيّة الّتي تعيشها وتحيط بها من كلّ جانب، فأحيانا يراها حبيسة بيتها، وأخرى عكس ذلك، حيث يمكنها الخروج منه لأداء أعمال أخرى خارجه، تدخل ضمن اختصاصاتها، فلم يترك صغيرة، ولا كبيرة إلاّ ودقّق النّظر فيها ووصفها على حالها،أو أضاف بعضا من عنده.

المبحث الثالث: صورة الجزائر في عيون الرّحّالة الأمريكيّين

أجانب آخرون كانت زيارتهم للجزائر، ووصفهم لها كرحّالة لم يفتهم أدقّ التّفاصيل، وأصغر الصّغائر إلاّ ودوّنوها في كتاباتهم الرّحليّة، وإن اختلفت الأهداف من أجنبيّ إلى آخر، فهؤلاء رحّالة أمريكيّين، وإن اقتصر الأمر على أسير الدّاي : كاتكارت" قنصل أمريكا في المغرب، كانت له انطباعات عن الجزائر لكونه أسيرا سجّلها في مذكّراته، وبما أنّه أسير فما بوسعه إلاّ تدوين رحلته في أمور سياسيّة، وعسكريّة تشمل كلّا من المحكمة، وقاضيها، وحرّاسها، ونوعيّة الحكم فيها، وعدد أيّام الأسر، وأساليب التّعذيب إن وجدت ومع ذلك فأوّل ما استهلّ به كتاباته عن الجزائر وصفه لمينائها قائلا:" بنيت الجزائر على منحدر هضبة

[1] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . ص 37.

[2] ـ المرجع نفسه . ص نفسها.

مرتفعة ومن القصبة الّتي أعلى أطراف المدينة يمتدّ بنيانها حتّى الجزيرة الّتي تشكّل جزء المرفأ، والّتي أخذت منه المدينة اسمها، وهذا الامتداد يشكّل زاوية على نحو خمس وثلاثين درجة."[1]

وبالرّغم من كون الرّحّالة أسيرا إلاّ أنّه ذوّاق جلبته تلك المناظر الخلّابة، الّتي تزخر بها أرض الجزائر فيواصل وصفه لها، ولجغرافيّتها، وموقع مينائها السّاحر، وفي حديثه عن الجزيرة يقول:" تقع الجزيرة على مسافة مائتان وعشرين باردة من البحريّة، وترتبط باليابسة."[2]

وعن ارتباط تلك اليّابسة بالمرافئ الواقعة على البحر الأبيض المتوسّط:" يربط اليابسة ممرّ معبّد بالحجر يشكّل حاجزا للبحر من الشّمال وهو أعلى بكثير من الحاجز الجنوبيّ الشّرقيّ، يمتدّ قريبا من المرفأ، وهو لا يزال أرضا على غرار مرفأ **جنوة**."[3]

يبدو أنّ الرّحّالة، أو أسير الدّاي بعيد كلّ البعد عن الحياة العامّة، الّتي يحياها الشّعب الجزائريّ كإنشائهم للمحلّات التّجاريّة، والدّكاكين،والحوانيت، وإقامتهم للأسواق وعرضهم لمختلف السّلع والبضائع فيها، واختلاف الباعة وأداتهم للتّجارة، وألبستهم، وسبل عيشهم، وظروف معيشتهم، وفقرهم وجهلهم وأوضاعهم الاجتماعيّة، ومخلّفات الاستعمار الّتي يتخبّط فيها الجزائريّون، وحرفهم ومهنهم الّتي يمتهنونها وأشياء زينة نسائهم، بالإضافة إلى بعده عن المساحات الدّينيّة، وقيم الجزائريّين الّتي أورثهم إيّاها دينهم الحنيف، وشيمهم الّتي تميّزهم عن غيرهم، إلاّ أنّ ذلك المسجد الّذي رآه، والّذي أنشئ بالقرب من كشك الواقع في آخر الممرّ إلى الجزيرة، سمّاه بالمسجد الجميل، فوصفه قائلا:" وقريبا من الكشك يقع مسجد جميل بناه السّيّد عليّ حينما كان وزيرا للحربيّة، ويقوم على أعمدة ومفروش بالمرمر."[4]

بالإضافة إلى عدم التفاته إلى المرأة الجزائريّة، وخصوصيّتها الّتي تميزها عن باقي نساء العالم آنذاك فلا يصفها، كما وصفها الرّحّالة الآخرون الأجانب السّابق ذكرهم من ألمان، وفرنسيّين، وإنجليز، وما يتعلّق

[1] . اسماعيل العربي . ترجمة وتعليق على مذكرات أسير الداي كاتكارت قنصل أمريكا . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1982 . ص 68.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[4] . المرجع نفسه . ص 69.

بتلك المرأة من رعاية للبيت واهتمامها بزوجها وأبنائها، وبقائها في المنزل أو الخروج منه لقضاء حاجيّاتها فكلّ ما كان يشغله وجاء ذكره في مذكّراته تلك المعدّات الحربيّة، واللوازم العسكريّة، والشّخصيّات القياديّة فلا نجد في رحلته إلاّ الحديث عن القذائف، والمدافع، والجنود، والحراسات، فالموقف يفرض نفسه، والرّحّالة أسير عيناه لا تقعان إلاّ على القيود المكبّلة لحريّته، والجنود المنفّذة لأوامر الحاكم، أو الدّاي الّذي يقرّر ويأمر فيصفه قائلا:" هو الآن رجل عجوز ومقعد، وقد ترك في جهل تامّ كلّ ما يتصلّ بشؤون الأيّالة الدّاخليّة، وكلّ وزير يحكم في إدارته الخاصّة حسب رأيه، وحسب ما يراه ملائما."[1]

وعن الأجواء واللّوازم العربيّة، وتلك الحصون المنيعة يصفها قائلا:" في النّهاية الأخرى للمرتفع الأبواب الخارجيّة للوزارة البحريّة، وأبوابها قويّة وكلا البابين يقع في زاويّة مستقيمة بالنّسبة للآخر لو سقطت قذيفة مدفع لما أصابتهما معا."[2]

كلّ ما وصفه الرّحّالة أو بالأحرى أسير الدّاي في مذكّراته من مناظر ومعدّات تتعلّق بكونه أسير حرب لا يرى طوال الوقت إلاّ الحرب، ولوازمها من قنابل، وسفن حربيّة، وأسلحة، ومدافع، ومخازن وأسرى وسجون، وأصوات المعذبّين، وممرّات ، ومسالك، وخنادق، وبنادق، وسردابات مؤديّة إلى أماكن لتخزين الأسلحة، وهي بحقّ لا شيء فيها يبهج، أو يسرّ.

[1] . اسماعيل العربي . ترجمة وتعليق على مذكرات أسير الداي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب . ص 68.

[2] . المرجع نفسه . ص 69.

الفصل الثالث

مدن جزائرية في عيون الرحالة

قسنطينة الجزائر العاصمة تلمسان

ولايات جزائريّة ثلاث، اخترتها لتكون نموذجا في دراستي، حظيّت بقسط وافر في كتابات الرّحّالة سواء عربا كانوا، أو أجانب، وربمّا كانت أكثر ذكرا في صفحاتها، حيث أولوها عناية كبيرة فكلّ رحالّة زار الجزائر، إلاّ وجعلها محطّات في رحلته، حيث صالوا، وجالوا في ربوعها، فأعجبوا بمناظرها وبعد أن تأمّلوا جيّدا عظمة الخالق فيها، راحوا يصوّرونها ويصفونها، بكلّ دقّة تفاصيلها،وما تحتويه هذه المدن الثلاث وهي قسنطينة في شرقها، والجزائر العاصمة في وسطها، وتلمسان في غربها.

1 . مدينة قسنطينة في عيون الرحالة:

1 . 1 تاريخها، موقعها الجغرافي:

أولى هذه المدن قسنطينة المعروفة باسم "سرتا" أو "كرتا" أو "فينيقي" [1]، وقد أطلق عليها ابن الأنبا ري اسما جديدا، وهو مدينة الجابيّة لوجود الجابيّة الّتي يحفظ فيها الماء."[2]

وقد أطلق عليها اسم مدينة الجسور المعلّقة حيث شيّدت على صخرتين مرتفعتين، ويربط قسما قسنطينة بأكثر من سبعة جسور معلّقة أشهرها:

1 . جسر باب القنطرة: وهو أقدم الجسور بناه الأتراك عام 1792م، وهدّمه الفرنسيّون ليبنوا على أنقاضه الجسر القائم حاليّا، وذلك سنة 1863م.

2 . جسر سيدي راشد: ويحمله 27 قوسا، ويبلغ قطر أكبرها 70 م، ويقدّر علوه ب 105م وطوله 447م، وعرضه 12 م، وبدأت حركة المرور به سنة 1912م، وهو أعلى وأضخم جسر حجريّ في العالم.

3 . جسر سيدي مسيد: بناه الفرنسيّون عام 1912م، ويسمّى أيضا بالجسر المعلّق، ويقدّر ارتفاعه ب 175م ، وطوله 168م ، وهو أعلى جسور المدينة.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 3 . مدن الشرق . دار الحكمة . الجزائر 2007 . ص 84.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

4 . جسر ملّاح سليمان: وهو ممّر حديديّ خصّص للرّاجلين فقط، ويبلغ طوله 15 م، وعرضه مترين ونصف، وهو يربط بين شارع محطّة السّكك الحديديّة، ووسط المدينة.

5 . جسر مجازن الغنم: هو امتداد لشارع رحماني عاشور، ونظرا لضيقه فهو أحادي الاتّجاه.

6 . جسر الشّيطان: جسر صغير يربط بين ضفّتي وادي الرّمال، ويقع في أسفل الأخدود.

7 . جسر الشّلّالات: يوجد على الطّريق المؤدّي إلى المسبح، وتعلو الجسر مياه وادي الرّمال الّتي تمرّ تحته مكوّنة شلّالات، وبُني عام 1928م.

8 . مشروع جسر الرّمال العملاق: نسبة إلى وادي الرّمال، وسيكون بطول 1150م، وبعرض 25م طريقين ذهابا، وطريقين إيّابا، بالإضافة إلى سكّتي " ترامواي" في وسط الجسر، وعلى ارتفاع أكثر من 100م، وسيمتدّ من مرتفعات" حيّ منصورة" وصولا إلى " حيّ جنان الزّيتون."[1]

هذه المدينة العريقة الّتي يعود تاريخ تأسيسها إلى سنة ألف وأربعمائة وخمسين قبل الميلاد حيث بعد ذلك كانت تجمّعا لقبيلة أمازيغيّة، ومن قبلهم الفينيقيّون، ثمّ القرطاجنيّون، ثمّ النّوميديّون والرّومانيّون، والبيزنطيّون، ثمّ العهد الإسلاميّ، حيث تعرّض لها الرّحّالة، ومن هؤلاء ياقوت الحموي فسمّاها مدينة الهوى، ولعلّ ما جعله يطلق عليها ذلك الاسم هو شدّة ارتفاعها، وتشبه للنّاظر من بعيد بأنّها عبارة عن قلعة فوق هضبة صخريّة."[2]

وقد قال ابن الأنباري أنّ الّذي فتح قسنطينة عبد الله بن الزّبير، بينما تشير بعض المصادر التّاريخيّة إلى أنّه لم يشارك في الفتوحات الإسلاميّة بالمغرب الإسلاميّ.

أمّا عن سكّانها المسيحيّين فيجهل تماما إن كانوا اعتنقوا الإسلام، أو غير ذلك، أمّا سكّانها القبائل البربريّة لم توضّح المصادر أيّ القبائل الّتي ينتسبون إليها.

[1] . موقع: Islam story . com

[2] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 3 . ص 84.عن ابن الانباري . تاريخ قسنطينة

أمّا فيما يخصّ الدّول الّتي توالت على مدينة قسنطينة، فهناك دولة الموحّدين الّتي كانت تحت إمرة الأمير الموحّدي النّاصري، الّذي وجد ترحيبا من قبل سكّانها حيث سارع لنجدتها، وتلي ذلك دولة الحفصيّين الّتي دخلتها على يد سلطانها الأوّل أبو زكرياء الّذي أوكل لابنه يحي أمر قسنطينة التّابعة لبجاية، إلاّ أنّ الوضع لم يبق على حاله، بل توالى على مدينة قسنطينة عدّة ولاّة أهمّهم عبد الواحد في عهد حكم المنتصر الّذي حاول أن يتّخذها عاصمة لدولته بعد تعرّضه للحملة الفرنسيّة، أمّا في

عهد الواثق فقد تولّى قسنطينة عبد العزيز بن داود الهنتاني، وخلال حكمه حاول أبو اسحاق الحفصي السّيطرة عليها سنة 678 هـ / 1279م لكنّ واليها لم يفتح له الأبواب فحاصرها مدّة.

يلاحظ أنّ المدينة قد شهدت اضطرابات كغيرها من مدن المغرب الإسلاميّ، حيث بعد الدّولة الحفصيّة، جاء دور هجوم بني عبد الواد عليها حيث قاموا بحصارها، فتعلّق المحاصرون بالأسوار، وفرغ الحجر الّذي يضرب به، وهو ما جعل الشّيخ خلف الله بن حسن بن قنفذ يقول:" من يأتي بحجر فله درهم" واجتمع الحجر بالثّمن الكثير."[1]

وبعدها سيطر المرينيّون على مدينة قسنطينة، وهي أصعب مرحلة عرفها أهل المدينة، حيث انعدم الأمن، وارتفعت أسعار الموادّ الغذائيّة بها ممّا أحدث مجاعة."[2]

وتمتدّ هذه المدينة من البحر شمالا إلى ما وراء بسكرة، ووادي سوف في حوض ريغ، وايغرغر جنوبا، ومن الحدود التّونسية شرقا ما وراء اقليم ونّوغة وبرج حمزة (البويرة)، وسفوح جبال جرجرة."[3]

وتتميّز قسنطينة بطابعها الجبليّ من حيث المظهر التّضاريسيّ المتكوّن من جبال الأطلس الشّماليّة التّليّة، والجنوبيّة الصّحراويّة عند كتلة الأوراس، ومن الأحواض، والسّهول، حوض وادي الصّومام، والسّهول العليا لقسنطينة، تنالها نسبة لا بأس بها من الرّطوبة في الشّتاء لارتفاعها، وقربها

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 3 . ص 94.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . محمد الصالح العنتري . تاريخ قسنطينة . مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور يحي بوعزيز . دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع . الجزائر 2007 . ص 25.

من جهة البحر الشّماليّة المتوسّطيّة، وذلك في القسم الشّماليّ، أمّا الجنوبيّ الصّحراويّ فالجفاف أهمّ ظاهرة فيه، وتعتمد على المياه الجوفيّة أكثر من غيرها، ونسبة السّكّان فيها عاليّة إذا ما قورنت بوسط البلاد وغربها، وذلك لظروف تاريخيّة وطبيعيّة كذلك."[1]

وعن هؤلاء السّكّان، فإنّهم يتشكّلون من عناصر عربيّة، وأخرى من نقراوة." [2]، ومن إقليم قسنطينة بلاد الجريد فضلا عن سكّانها الأصليّين من الكتّاميّين، والمهاجرين إليها من مجالات هذه القبيلة خاصّة من ميلة، وسكيكدة."[3]

وما زاد في جمال مدينة قسنطينة وبهائها حيث احتلّت المكانة الأولى من بين مدن الجزائر، تلك البساتين والحدائق الغنّاء، الشّيء الّذي جعل الشّعراء يطلقون عليها اسم مدينة الهوى والهواء، وهذا نظرا إلى لطافة جوّها، وانتشار البساتين، والأشجار في كلّ أرجائها، وبذلك تتوفّر المدينة على حدائق عدّة، ومن أشهرها: حديقة " جنان الأغنياء"، وتتوسّط شارع باب الواد، وبحيّ سيدي مبروك توجد حديقتان، إحداهما تقع بالمنطقة العليا، والأخرى تقع بالمنطقة السّفلى، كما توجد حديقة بحيّ المنظر الجميل تحمل اسم" فرفي عبد الحميد"، " وقصر " أحمد باي" به حديقة رائعة الجمال يقال كان الباي بنفسه يشرف عليها، وأشهر حديقة" سكورا قامبيطة" الكائنة خلف شارع بلوزداد، تفنّن المؤرّخون في وصفها، والرّحّالة كذلك لجمالها وكثافة أشجارها.[4]

حقّا إنّ المدينة رائعة الجمال من حيث موقعها، وتضاريسها الجغرافيّة، ومناظرها وطبيعتها الخلّابة، لما تحتويه من حدائق، وبساتين ذات الأشجار الكثيفة، والأزهار والرّيّاض والرّياحين، ولاشكّ أنّ الماء جار بها، فيزيدها بخريره نغما موسيقيّا تطرب له الأذن، بعد أن تشبّعت العين بجمال المنظر

[1] . محمد الصالح العنتري . تاريخ قسنطينة . مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور يحي بوعزيز . ص 26.
[2] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 3 مدن الشرق . ص 63.
[3] . المرجع نفسه ص 84 . عن ابن خلدون . العبر . الجزء 7 .
[4] موقع WWW.CARABIYA.NET

وبهجة الرؤيا، فمن لا تستهويه المدينة، يكون خارجا بعيدا عن معنى الجمال في أبهى حلّة، وأزهى رونق.

1 . 2 الحياة الدينية:

لاشكّ أنّه بعد الفتح الإسلاميّ أصبحت المدينة . قسنطينة . تنعم وتحيا حياة جديدة في ظلّ الدّين الإسلاميّ، فسعت إلى بناء بيوت الله، الّتي ولاشكّ أنّها ستعمر بأحباب الإسلام من أهل المدينة، حيث طبعت الصّبغة الدّينيّة عليها، وتكرس هذا المظهر بعد استقرار الإسلام بها، فعرفت عمليّة بناء المساجد بها سيرورة دائمة، وأشهرها:

1. الجامع الكبير: بني في عهد الدّولة الزّيريّة سنة 503 هـ / 1136م، وقد أقيم على أنقاض المعبد الرّومانيّ الكائن بنهج العربي بن مهيدي حاليّا، وتغيّرت هندسته الخارجيّة من جراء التّرميم، ويتميّز بالكتابات العربيّة المنقوشة على جدرانه.

2 . جامع سوق الغزل: أمر ببنائه الباي حسين، وكان ذلك عام 1143 هـ / 1730م، حوّلته القيادة العسكريّة الفرنسيّة إلى كاتدرائية، وظلّ كذلك إلى أن عاد إلى أصله.

3 . جامع سيدي الأخضر: أمر ببنائه الباي حسن بن حسين الملقّب أبو حنك في عام 1157هـ/1743م، كما يدلّ عليه النّقش الكتابيّ المثبت على لوح من الرّخام فوق باب المدخل وتوجد بجانب المسجد مقبرة تضمّ عدّة قبور من بينها قبر الباي حسن.

4 . جامع سيدي الكتاني: يوجد بساحة سوق العصر حاليّا، أمر صالح باي بن مصطفى ببنائه في عام 1190هـ/1776م، وإلى جانبه توجد مقبرة عائلة صالح باي.

5 . مسجد الأمير عبد القادر: وضع حجر أساسه الرّئيس هواري بومدين، ودشّن من قبل الرّئيس الشّاذلي بن جديد، وهو أكبر مساجد شمال إفريقيّا، يتميّز بعلو مئذنتيه اللّتين يبلغ ارتفاع كلّ واحدة

منهما 107م، وارتفاع قبته 64م، بهندسته المعماريّة الرّائعة، انجازه بهذا التّصميم يوافق النّمط المشرقيّ الأندلسيّ، يتّسع لنحو 15 ألف مصلّ، كما تزخر المدينة بمساجد أخرى، من بينها: جامع سيدي قعّان، جامع سيدي محمد بن عمّون، جامع سيدي بوعنّابة، جامع السّيّدة حفصة، جامع سيدي راشد.

والمدينة محصّنة بأبواب سبعة متخلّلة عبر سور وهي:

1 . باب الحنانشة: يسمح بالخروج عبره من شمال المدينة عبر وادي الرّمال، ويؤدّي إلى الينابيع الّتي تصبّ في أحواض مسبح سيدي مسيد.

2 . باب الرّواح: يمتدّ عبر سلّم مثير للدّوار يؤدّي إلى النّاحيّة الشّماليّة من وادي الرّمال، ويوصل هذا الباب إلى منابع سيدي ميمون الّتي تصبّ في المغسل.

3 . باب القنطرة: يصل المدينة بالضفّة الجنوبيّة لوادي الرّمال.

4 . باب الجابيّة: ينفتح على الطّريق الممتدّ إلى سيدي راشد، ويقع على ارتفاع 510م.

5 . باب الحديد: يقع شمال ساحة أوّل نوفمبر، هدّم سنة 1925م.

6 . باب الواد أو باب ميلة: يسمح بالوصول إلى روابي كدية عاتي، وقد كان يوجد بمكان قصر العدالة حاليّا.[1]

ووظيفة هذه الأبواب التّحصين للمدينة ضدّ الغرباء، وبدأت تختفي بالتّدريج إلى أن أزالها الاحتلال الفرنسيّ كليّة.

[1]. موقع Cirta award space.com

1 . 3 الحياة الاجتماعيّة:

هي الحركة اليوميّة السّائدة في أوساط أيّ مجتمع، وما يقوم به أفراده من أشغال، ونشاطات يوميّة وما يمارسونه بشكل دائم، وتتميّز قسنطينة بعدّة أسواق لممارسة تلك النّشاطات ،وعرض سلعها ومنتجاتها لتلبيّة حاجات ومتطلّبات سكّانها، وأشهرها: سوق الخزّازين، وسوق العطّارين وسوق الصّاغة، وسوق الصّبّاغين، حيث تتنوّع المعروضات بها من خضر، وفواكه، ولحوم، وأقمشة.

وهناك أيضا الحمّامات الّتي تشتهر بها مدينة قسنطينة، والّتي يعود بناؤها إلى تاريخ العهد العثمانيّ محافظة على شكلها وهندستها ووظيفتها، فيقصدها سكّان المدينة، ويفضّلونها على الحمّامات العصريّة، وأوّل حمّام بناه الأتراك حمّام "ثلاثة" الكائن بحيّ الشّطّ، يطلق عليه اسم "حمّام الهوى" نسبة إلى بنائه فوق منحدر.

بالإضافة إلى ذلك هناك ما يعرف بالرّحبات، هي مساحات شاسعة، تستعمل لأغراض تجاريّة، حيث تباع فيها مختلف السّلع والبضائع، كالملابس والأقمشة وأبرزها: رحبة الزّرع الّتي كانت تتوسّط المدينة، وتقام فيها عدّة نشاطات تجاريّة كبيع الحبوب، والتّمور، والزّيوت، ومن الرّحبات المعروفة قديما في قسنطينة رحبة الشّبرلين.[1]

1 . 4 العادات والتقاليد:

لأهل قسنطينة عادات وتقاليد قد تكون خاصّة بهم، وقد يشاركهم فيها أهالي آخرون، وأوّل عادة نشير إليها في هذا الصّدد، معرفة هلال رمضان، حيث يضع السّكّان النّار فوق رؤوس الجبال عند رؤية الهلال، وهكذا يتمّ الإعلان عن بداية شهر رمضان فيصومون، وكذلك الأمر بالنّسبة لهلال شوّال، فكلّ قبيلة سبّاقة إلى رؤية الهلال تقوم بإشعال النّار، وهي علامة على الصّيام أو الإفطار."[2]

عادة أخرى قد لا تكون خاصّة بأهل قسنطينة، وقد تشمل ولايات أخرى من المجتمع الجزائريّ، ألا وهي عادة الصّداق، أي ما يقدّم للعروس من مهر من قبل العريس، وهي شرط من شروط الزّواج، وما عرف

[1] . موقع معالم وآثار . aawardspace.cimà(Cirt

[2] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 3 . مدن الشرق . ص 120.

عن المجتمع القسنطينيّ أنّ الصّداق لا يسلّم لصاحبته كما ينصّ عليه الشّرع الإسلاميّ، بل يحتفظ به الأب وفي ذلك إجحاف في حقّ صاحبة الصّداق، ولعلّ ذلك ظاهرة تشمل وتسود معظم مناطق القطر الجزائريّ إن لم يكن كلّها.[1]

وقبل أن تكون المرأة الجزائريّة عروسا، وتقدّم لخطبتها شخص، فإنّ الوالد يقرّر مصيرها، ويرغمها على الزّواج منه دون أيّة مشورة، أو أخذ رأيها بصفتها المعنيّة بالأمر، وهي من سيتزّوج، وخاصّة كان ذلك إبّان الثّورة التّحريريّة، خوفا عليها من أن تكون عرضة للاعتداء من قبل الاحتلال الفرنسيّ، لذلك كان الأولياء يلجئون إلى تزويج بناتهم إلى أوّل من يتقدّم لخطبتهنّ.

ونعود مرّة أخرى إلى أمر الصّداق، وعن الشّائع في مدينة قسنطينة رفع قيمته حتّى يصبح سببا في عدم الاستقرار الأسريّ، ويرجع ذلك إلى التّفاخر به لأنّ المعروف عندهم لابدّ أن تعرض كلّ الأشياء الّتي دفعت للعروس عند تصديرها على الملأ، أمام أعين الحضور، حتّى تعرف مكانة الأسرة في المجتمع من حيث الغنى والمسؤوليّة الّتي يتولّاها أب العريس، أو العريس نفسه.

يفهم من خلال ما ورد أنّ المرأة لا تنكح لجمالها، ولا لدينها، وإنّما لمكانة والدها، وفي ذلك مخالفة للشّرع الإسلاميّ، ويصبح المجتمع لا يطبّق تعاليم الشّريعة الإسلاميّة، وإن كان قد جاء في الحديث الشّريف: " تنكح المرأة لمالها، أو لجمالها، أو لدينها، فاظفر بذات الدّين."

هذا باختصار عن بعض عادات مدينة قسنطينة، وإن كان غلاء المهور لم يقتصر عليها فقط، بل أصبحت ظاهرة عامّة منتشرة في كل ولايات الجزائر، وأصبح الشّباب يعاني الويلات بسبب ذلك، وحال ذلك بينهم وبين الإقبال على الزّواج سنة الله في الكون، وأحد الأسس الشّرعية لبناء أسرة قويمة متماسكة، ينعم أفرادها في الهناء والسّعادة.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 3 . مدن الشرق . ص 121.

1 . 4 صورة المدينة في عيون الرحالة:

أ . الرّحّالة العرب:

من أجل كلّ ما ذكر، ومن أجل كلّ ما تحفل به قسنطينة من مناظر طبيعيّة خلّابة، وموقع جغرافيّ استراتيجيّ هامّ، وأمجاد بطوليّة، وتاريخيّة، ومآثر عمرانيّة، وبناءات، وحدائق وبساتين، كانت قسنطينة . مدينة العلم والمعرفة . قبلة السّيّاح، والمتجوّلين، وعلى رأسهم الرّحّالة الّذين أبهرهم صنع الخالق بهذه المدينة، وما أبدعته أيادي فنّانين مختصّين في مجال العمران، أو الزّراعة، أو التّشييد، فكلّ له ميوله، وما تجيش به عواطفه

وكلّ كيف رأى قسنطينة، وإلى أيّ جانب مال، فمنهم من رأى علماءها فروى عنهم، وكمثال عن ذلك الرّحّالة المغربيّ العبد ري قائلا:" لم أر بها من ينتمي إلى علم، ولا من له في فنّ من الفنون إرب سوى الشّيخ أبي عليّ حسن بن بلقاسم بن باديس، وهكذا قيد لي اسم أبيه بخطّه مخلوطا وقال لي إنّه اسم وكنية،هو شيخ من أهل العلم يذكر فقها ومسائل ذو سمت وهيبة ووقار، وليس في البلد من يذكر سواه."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة قد أعجب بالشّيخ الفقيه أبي عليّ بن حسن بن باديس، وقد يكون ربّما قد حضر مجالس علمه، وتشبّع من زاده المعرفيّ، ونهل من نبعه العلميّ، الشّيء الّذي جعله يشيد بفضله، حتّى قال عنه لا يمكن في البلد كلّها أن يذكر أحد في مجال العلم، والفكر، والفقه، والأدب، فهو أحد أقطاب الحياة الفكريّة في قسنطينة، ولأنّها كانت منارة العلم، فقد كانت تستقطب العديد من العلماء، والفقهاء، يأتون إليها من الدّول، والإمارات المجاورة لها، ومن بين هؤلاء العالم الجليل" أبو القاسم الوشتاني" الّذي أخذ العلم على يد علماء مدينة قسنطينة.

وكما لا يخفى على أحد أنّ أبرز علماء قسنطينة، رائد النّهضة الجزائريّة ككلّ الإمام الفقيه العالم الجليل الّذي ترك بصماته خالدة عبر تاريخ الجزائر، ولا يمكن لأيّ مجال من مجالات الحياة الجزائريّة، إلاّ أن تشهد بعظمته ، ألا وهو الحكيم المفكر عبد الحميد بن باديس الذي كان له دور كبير في نهضتنا الفكريّة والأدبيّة

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 3 . مدن الشرق . ص 97.

وعلى الخصوص مهمّة الدّفاع عن الثّوابت الوطنيّة، ذو الإسهامات الجبّارة في الحياة السّياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة إبّان الاحتلال الفرنسيّ للجزائر.

وقد كان بدوره الرّحّالة يحوب معظم المدن الجزائريّة دون تفرقة بين شرقها وغربها، ولا بين شمالها وجنوبها فقد كان محبوبا مطلوبا يرشد النّاس إلى تعاليم الدّين الإسلاميّ، ويوحّد صفوف محبّيه ويوطّد علاقاتهم فقد قال عن نفسه:" ما حللت ببقعة إلاّ التفّ أهلها حولي، يسألون ويستمعون في هدوء وسكون."[1]

وإن كانت رحلته ليس فيها ما يذكر عن قسنطينة وهو ابنها، فيكفي أن يكون أحد أبنائها البررة وأحد رجالها العظماء ، وعلمائها الأجلّاء، وفقهائها الأتقياء.

وهي قسنطينة إضافة إلى كونها عاصمة الشّرق، إحدى معالم الفكر والثّقافة، منبع العلماء، ورجال الدّين فهي كذلك مدينة جميلة، ساحرة، حصينة، وعجيبة، يسرّ النّاظر منظرها، وترتاح لبهائها العين، ويثلج لرونقها القلب، حازت على إعجاب الكثيرين من السّيّاح والرّحّالة، فوصفوها، ودقّقوا الوصف، وصوّروها وأبدعوا التّصوير، وشبّهوها بالحسناوات، وفي ذلك قال العبد ري:" هي مدينة عجيبة، حصينة، غير أنّها لخطوب الزّمن مستكينة، وأضاف:" هي كالحسناء لبست أسمالا، والكريم فقد مالا، والبطل أثخنته الجراحة حتّى لا يطيق احتمالا."[2] ثمّ فيها قائلا:

مُنْ رَأَيْتُ المِنُونُ خَلَدْنَ أَمْ مُنْ ذَا لَدَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ[3]

ويؤكّد الوصف ذاته البلوي صاحب تاج المفرق أنّها حصينة، فيقول:" هي حصن حصين، ومكان مكين وربوة ذات قرار معين، وقاعدة أمن وتأمين صحيحة الهوى."[4]

[1] . عمر بن قينة . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة . ص 27.

[2] . العبدري . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . منشورات بونة . الجزائر 2007 . ص 57.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[4] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج3 مدن الشرق . ص 85.

لقد تناول الرّحّالان البلوي والعبد ري كلمة السّوار بالمعصم، تعبيرا عن إحاطة السّور للتّحصين الّذي يحيط بمدينة قسنطينة، فعبّر الأوّل قائلا:" يدور بها دور السّوار بالمعصم."[1]

أمّا العبد ري فكان تعبيره بالشّكل التّالي:" وبها للأوائل آثار عجيبة، ومبان متقنة الوضع، غريبة، وأكثرها من حجر منحوت، يعجز الوصف إتقانه ويفوت، وقد دار بها واد شديد الوعر، بعيد القعر، أحاط بها كما أحاط السّوار بالمعصم، ومنعها كما يمنع النّوق الأعصم."[2]

كان العبدري أبلغ وصفا من سابقه، فقد أضاف عنه إتقان البنيان، حتّى بدت البنايات آثارا عجيبة غريبة، كما قال يعجز الوصف إتقانه، أيّ مهما سخّر العبارات والكلمات لإعطاء الوصف حقّه، فإنّه سوف يعجز عن ذلك وعن الواد المحيط شبّهه بالسّوار الّذي يحيط بالمعصم، وقوّتها بقوّة النّوق.

وعن مناظر المدينة الخلّابة الّتي تسحر الألباب، وبالإضافة إلى الوديان والأنهار الكائنة بها، زادها جمالا منظر القنطرة الّتي نصبت على ذلك الوادي المحيط بالمدينة والّتي أقامها سكّانها لتسهيل العبور فوقها، وعن وصفها وتشييدها قال البكري:" أقام سكّانها قناطر حيث عقد في أسفل الوادي قنطرة على أربع حنايا ثم بني عليها قنطرة ثانية، وفوقها رابعة، أعلاها شيّد منزل يعرف بمنزل المرور يعبر عليه السّكّان، وبذلك حلّ مشكلة التّنقّل بين أجزائها."[3]

وعن تلك القنطرة وعن موقعها، ودقّة بنيانها، وتشييده قال الإدريسي:" تقع في الجهة الشّرقيّة من المدينة واعتبرها من أعجب البناءات لأنّ علوّها يزيد عن مائة ذراع بالذّراع الرّشّاشيّ، وهي عبارة عن قسيّ بعضها فوق بعض، وعددها في سعة الوادي خمسة والماء يدخل على ثلاثة منها وتوجد بعض الفراغات الّتي يدخل منها الماء."[4]

[1] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج3 مدن الشرق . ص 85.

[2] . العبدري . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 58.

[3] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج3 . مدن الشرق . ص 85 . عن البكري . المغرب . ص 63.

[4] . الإدريسي . المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق . الجزائر 1983 . ص 31.

كما تعرّض الإدريسي إلى بقايا المدينة فذكر المقابر الّتي تعود إلى العهد الرّومانيّ، وتهدّم ذلك القصر القديم بها إلاّ جزء منه.

وعن منازل قسنطينة القديمة قال الإدريسي:" ليس بالمدينة كلّها دار كبيرة ولا صغيرة ولا عتبة، إلاّ بها حجر واحد صلب وعضاضات منها ما هو مكوّن من حجرين والبعض الآخر من أربعة أحجار."[1]

ويضيف رحّالة آخر . حسن الوزّان . عن المنازل ذاتها، وعن كبرها وسعتها الّتي يمكن أن تتّسع للعديد من السّكّان، فقال:" إنّها من بين المدن الكبرى حيث تستطيع أن تضمّ ثمانية آلاف أسرة ومنازلها كبيرة من أبرز مرافقها الجامع الكبير ومدرستين وكذلك ثلاثة زوايا أو أربعة."[2]

وفي نزهة المشتاق جاء أيضا:" وقسنطينة عامرة وبها أسواق وتجارات والحنطة تقيم في مطاميرها مائة سنة لا تفسد."[3]

وأضاف: " وقسنطينة على جبل منقطع مرتفع فيه بعض الاستدارة لا يتوصّل إليه إلاّ من جهة بابه من غربها، ليس بكبير السّعة، ويحيط بقسنطينة الواد من جميع جهاتها وبينها وبين مدينة مسيلا ثمانية عشر ميلا."[4]

هكذا كانت قسنطينة محور كتابات الرّحّالة العرب وهكذا أبدعوا في وصفها ونعتوها بشتّى النعوت وأطلقوا عليها عديد الأسماء، فكلّ منهم ما رأى شيئا إلاّ وصفه، إعجابا واندهاشا بعظمة الخالق في مدينة قسنطينة، وإبداع الفنّانين في تشييد بناياتها، وإقامة جسورها للعبور عليها وقضاء الحاجات، كما أضافوا إلى ذلك الحدائق والبساتين لتكون قسنطينة بأبهى حلّة، يتمنّى كلّ من سمع عنها زيارتها.

[1] . الإدريسي . المغرب العربي من نزهة المشتاق . ص 68.

[2] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج3 مدن الشرق . ص 86 . عن الحسن الوزان . وصف إفريقية . ص 55.

[3] . نقولا زيادة . الجغرافيا والرحلات . دار الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت 1980 . ص 88.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

ب . الرّحّالة الأجانب:

إن كان الرّحّالة العرب قد أعجبوا بمدينة قسنطينة، بكلّ شيء احتوته من موقع جغرافيّ وتاريخ مجيد حافل بالبطولات، ومناظر طبيعيّة جذّابة، وعمران، ومباني، فإنّ الرّحّالة الأجانب ممّن تتعدّد أوصافهم لهذه المدينة كذكر عمرانها فعلى رأسهم الرّحّالة الاسباني" مارمول" وأوّل ما شدّ انتباهه وهو على مشارفها موقعها فقال عنه واصفا إيّاه:" إنّها ذات موقع ممتاز، فوق جبال، تجاورها من طرف الجنوب صخرة شديدة الانحدار، ينبع منها نهر بومرزاق، يشقّ في الأرض مجرى عميق واسع."[1]

وعن تاريخ المنطقة قال :" مدينة عتيقة كبيرة، وهي عاصمة إقليم نوميديا الحصين، ومقرّ قوّتهم العظمى، ودام ذلك مدّة طويلة، كما أنّها من بناء الرّومان، تشهد على ذلك جدرانها المبنيّة بحجارة منحوتة ضخمة وسميكة."[2]

ويواصل الرّحّالة وصفه لقسنطينة، الّذي يبدو أنّه أعجب بها مضيفا إلى ذلك أنّ طابعها وبناءها يعودان إلى العهد الرّوماني في الفترة الّتي استوطنوها فيشير إلى ذلك بقوله:" في أعالي المدينة حصن حصين عظيم يغلب على الظّن أنّه من بناء الرّومان، جدّد ترميمه وتحصينه."[3]

ويضيف الرّحّالة "مارمول" في وصف المدينة وما تحتويه من مآثر وبناءات مشيّدة عتيقة، قديمة جدّا ضاربة جذورها في أعماق التّاريخ، ويؤكّد أنّها تعود أيضا إلى العهد الرّوماني:" بظاهر المدينة توجد آثار قديمة رائعة وأطلال وبنايات عظيمة وقوس نصب على بعد نصف فرسخ شبيه بقوس النّصر الّذي يوجد في روما وعلى مقربة من وسط المدينة الكابتول."[4]

أي أنّ الرّومان وفي أثناء إقامتهم بالمدينة قسنطينة شيّدوا ذلك القوس الشّبيه بذلك الموجود ببلادهم

[1] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 3 . مدن الشرق . ص 87.
[2] . المرجع نفسه . نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[4] . المرجع نفسه . ص نفسها .

كي يكون شاهدا على تواجدهم ، وأنّ كلّ من زار قسنطينة، وكان فيما سبق زار روما، يتأكّد له أنّ الرّومان كانوا يوما ما، أو عهدا ما لهم بقسنطينة وجود، وقد تركوا بصماتهم تشهد على ذلك.

كما يضيف الرّحّالة قائلا:" تلك الأطلال من بقايا قصر قديم سكنته الأرواح الشّرّيرة، وأنّ الأمر يتعلّق ببناية شيّدت تخليدا لأحد الانتصارات الرّومانيّة، ويوجد بناء آخر غير بعيد من مشاهد قسنطينة."[1]

كما لا يفوت أحد أنّ المدينة مدينة العلم ومنبر العلماء ومنبع الفكر والأدب، ومصدر الدّين الإسلاميّ ويشهد على ذلك عدد المساجد الموجودة بها .كما أشرنا سابقا . أنّ الرّحّالة الاسباني لم يلفت انتباهه سوى مسجد عتيق كبير يوجد بها فقال عنه:" بها مسجد كبير، رافق، ومدرستان تدرس بها مختلف العلوم وبناياتها منتظمة غير متصلّ بعضها ببعض، وتمتاز أزقّتها وساحاتها بمنظر بديع."[2]

كما لفت انتباه الرّحّالة ذلك السّرداب الّذي يعود عهده أيضا إلى عهد الرّومان الّذين يبدو أنّهم كانت لهم مشاهد كثيرة بالمنطقة، حيث شيّدوا بها حضارة رائدة لا تزال تلك المناظر والمآثر تدلّ على مدّة تواجدهم بها، والّتي دون شك لم تكن قصيرة، فقال الرّحّالة" مارمول" واصفا أحد المعالم الأثريّة الرّومانيّة قائلا:" بها سرداب مدرّج منحوت من الصّخر، وفي أسفله توجد قبّة جدرانها وأعمدتها وأزقّتها وسقفها في الصّخر بواسطة فؤوس عادة، وبالقرب من المدينة يوجد حمّام كبير تنبعث منه عين."[3]

وعن الوجود الرّوماني نفسه، وما شيّده بأرض قسنطينة ذلك المتحف العتيق ذا النّقوش الّتي تشهد على تواجد الرّومان بالمنطقة، فيصفها الرّحّالة الألماني مالتسان:" لقسنطينة متحف يحتوي على نقوش كثيرة رومانيّة، وفينيقيّة، ونوميديّة."[4]

وكنّا سابقا أشرنا إلى أنّ قسنطينة مدينة الجسور المعلّقة . وقد سبق ذكرها الشّيء الّذي يجعلها مميّزة عن باقي مدن الجزائر، الّتي لفتت انتباه كلّ زائر لها وعلى الأخصّ الرّحّالة عربا كانوا أو أجانب، وكمثال عن

[1] . مختار حساني . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج3 . مدن الشرق . ص 87.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص 88.

[4] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفؤيقية ج 1 . ترجمة أبي العيد دودو . ص 35.

أولئك الرّحّالة الّذين أبهرتهم جسور قسنطينة، الرّحّالة الألماني" **مالتسان**" الّذي قضى مدّة ثلاث سنوات بشمال غربي إفريقيّا، حيث كانت قسنطينة ضمن مجموعات محطّاته، ومن بين المناظر الّتي أعجب بها جسورها، وفي مقدّمتها الجسر القديم الجبّار.كما سمّاه . وعدّه أهمّ آثار قسنطينة، ووصفه بقوله:" يمتدّ فوق هوّة وادي الرّمال الرّهيبة، ويشكّل المدخل الخارجيّ الوحيد إلى هذه الجزيرة الّتي تتوسّط الأرض، وهذا الجسر يربط باب القنطرة مباشرة قبل المنصورة المواجه له."[1]

إلاّ أنّه يتأسّف على حال هذا الجسر، وكيف أنّه أصبح، فيبدو أنّ الرّحّالة عرف الكثير عنه، إلاّ أنّه في أثناء رحلته لم يجده كما كانت معلوماته عنه، فقال:" عندما قمت برحلتي هذه، كان قد أصبح عبارة عن كومة من الأنقاض نتيجة الانهيار الّذي حلّ به قبل فترة وجيزة."[2]

منظر كهذا فعلا يتأسّف له المرء، فالجسر أحد المعالم الأثريّة الّتي تحظى بها مدينة قسنطينة، فلا بدّ من ترميمه وإعادة بنائه لتكون صورة المدينة غاية في الجمال، والبهاء لجلب السّيّاح إليها.

ويواصل الرّحّالة إبداء إعجابه بمدينة الجسور المعلّقة، وخاصّة إعجابه بالجسر الرّومانيّ، فأبدع في وصفه له قائلا:" الجسر الرّومانيّ لوحة حجريّة غريبة منحوتة فوق أحد أعمدته، وكانت تقدّم صورة امرأة، ترتدي قميصا فقط، رفعته إلى صدرها."[3]

وبعيد عن الآثار والمعالم الأثريّة، ظاهرة اجتماعية شعبيّة، تدخل في باب التّصّوف لفتت انتباه الرّحّالة "**مالتسان**"، وهي فرقة العيساوة الّتي شاهدها، فعلّق عليها ساخراً منها اعتقادا منه أنّ كلّ من أصابه الفقر انضمّ إلى هذه الطّائفة، فقال بداية:" تلك الطّائفة الّتي يدّعي أفرادها القدرة على أكل النّار واللّعب بالحيوانات السّامة دون أن يصيبهم أذى."[4]

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقية ج 1 . ترجمة أبي العيد دودو . ص 34.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[4] . المرجع نفسه . ص 39.

وعن انضمام الفقراء إلى الفرقة، قال:" انضمّ إليها أستاذي في العربيّة بدافع الفقر، بعد أن باءت مشاريعه بالفشل...ذلك أنّ العيساويّ ينتظر أن يأكل الطّعام مجّانا مرّة في الأسبوع على الأقلّ فيوفر بعدئذ البحث عن قوته لمدة ثلاثة أيام."[1]

هي عادات وتقاليد يقوم بها أهل قسنطينة على غرار باقي سكّان الجزائر، وهي ظاهرة شعبيّة يلتفّ النّاس حولها للفرجة والبهجة مقابل دفع بعض المال، لذلك قال عنها الرّحّالة ذلك، وربّما هناك من يقوم بإطعام أفراد الطّائفة العيساويّة، إلاّ أنّ ما يقومون بها من أعمال كأكل النّار، أو اللّعب بالحيوانات السّامة أمر غير مستحبّ يدعو إلى الاشمئزاز، ونفور النّفس، أظنّ ليس هناك ما يبعث على الإعجاب أو الدّهشة.

عادة أخرى حضرها الرّحّالة بين أهالي مدينة قسنطينة، وهي استقبال شهر الرّحمة والبركة، شهر رمضان الفضيل، حيث يتمّ الإعلان عن أوّل يوم منه بإطلاق نار من مدفع حسب تعبير الرّحّالة وضعته الحكومة الفرنسيّة تحت تصرّف المسلمين، إلاّ أنّنا نلمس في تعبيره نبرة السّخريّة، والتّهكّم حين قال:" ينتظر الجيّاع طلقة المدفع بفارغ الصّبر."[2] لأنّ المدفع سخّر للإعلان عن موعد الإفطار بعد يوم من الصّيّام في آخره، ويواصل سخريّته قائلا:" كلّهم تقريبا يبدون مصفرّين شاحبي اللّون، لأنّ العمل طوال اليوم كلّه من غير أكل، ولا شرب لا يخلو من مشقّة كبيرة."[3]

هي أحوال المجتمع القسنطينيّ شأنه شأن المجتمع الجزائريّ ككلّ، مزريّة قاسيّة جراء معاناتهم الفقر والحرمان بفعل المحتلّ الفرنسيّ، فما طعامهم بعد يوم من الصّوم إلاّ قطعة خبز، أو برتقالة، أو حبّات من التّمر، أو أيّ شيء يصلح للأكل، اللّهم إلاّ بعض العائلات الميسورة، أصحاب النّفوذ، والسّلطة كما ذكر الرّحّالة عن بعض معارفه، الّتي تحوي مائدة إفطارهم أنواعا كثيرة من الأطعمة، فأكّد قائلا:

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقية ج 1 . ترجمة أبي العيد دودو . ص 39 .

[2] . المرجع نفسه . ص 53.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

" أعدّ سيّدي عليّ أنواعا كثيرة من الأطعمة، كالكسكسى، والحلويّات، والكعك."[1]

ثمّ عمد الرّحّالة إلى وصف أحد أنواع المأكولات، وكيف يتمّ صنعه: " أحد هذه الأطعمة يدعى المشلوش، وهو عبارة عن قطع صغيرة من الطّحين تشبه الشّعيريّة، تصنع بالعسل، وتنقع في الزّيت ثمّ يذرذر فوقها السّكر، وتوضع فوقها بعد ذلك قطع من البيض المسلوق."[2]

يواصل الرّحّالة وصف أنواع الأطباق المقدّمة في شهر رمضان عند العائلات الميسورة الحال، والملاحظ أنها كلّها مصنوعة بالعسل على حدّ تعبيره، لأنّ الشّهر يتسمّ بالحلاوة كالقطايف، نوع من الطّعام اشتهرت به أغلب العائلات الجزائريّة، ولا يخلو أيّ بيت من وجوده على مائدة الإفطار في رمضان.

فيصفه الرّحّالة قائلا:" القطايف تشبه الشّعيريّة، لكنّه دقيق جدّا، وعلى شكل دود من العجين المقطع، وكانت القطايف محلاة بالعسل، والسّكر إلى درجة أنّ من يأكلها تؤلمه أسنانه."[3]

يبدو أن الرّحّالة كان ضيفا في قسنطينة، طالت مدّة إقامته حتّى تمكّن من الولوج إلى بيوتها والانغماس داخل أسرها، بل داخل مطابخها، والجلوس إلى نسائها، حتّى استطاع أن يعرف خبايا المطبخ الجزائريّ، أو القسنطينيّ بالأحرى، ويتعرّف على تفاصيل إعداد المأكولات، وأصناف الأطعمة وربّما كان مشاركا في إعدادها، وإلاّ كيف تسنّى له أن يدرك كيفية تجهيز الطّعام بأدقّ التّفاصيل، وما هي محتوياته الّتي تدخل ضمن إعداده، ومراحله إلى أن يصبح جاهزا فوق مائدة الإفطار.

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقية ج 1 . ترجمة أبي العيد دودو . ص 54.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص 53.

وبعيداً عن مائدة الطّعام، وعن أصناف المأكولات الّتي تشتهر بها مدينة قسنطينة، وبعيداً عن غذاء البطن وشهوته، إلى مائدة أخرى، ومن نوع ثان، وآخر إلى غذاء الرّوح، والفكر، إلى غذاء العقل، وما غذاؤه إلاّ العلم، والمعرفة، والتّعليم، وإن كانت الفترة فترة احتلال، إلاّ أنّ هناك من يتميزون بالثّقافة، والنّور، والعلم، حيث عبّر الرّحّالة الألماني " **فيلهلم شيمبر** "*:" لقد بحثت قصدا عن عربيّ واحد في الجزائر يجهل القراءة، والكتابة غير أنّي لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلّما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشّعب."[1]

يعني ذلك أنّ الجزائر تتمتّع بطاقات فكريّة، بالرّغم من أنّها دولة من دول لعالم الثّالث، إلاّ أنّ الرّحّالة لم يجد فيها من يجهل القراءة، والكتابة على حسب تعبيره، ووجد ذلك في جنوب أوروبّا وهي من الدّول الرّائدة في سماء الفكر، والثّقافة.

ونتيجة ذلك برز في الجزائر، وبالضّبط في مدينة قسنطينة علماء أجلّاء أمثال البشير الإبراهيميّ وابن باديس أثروا المكتبات العربيّة عامّة، والجزائريّة خاصّة بالعديد من المؤلّفات في شتّى الميادين الفكريّة، والأدبيّة منها العلوم النّقليّة، و العلوم العقليّة، إلاّ أنّ المستعمر الغاشم عبث بها سلبا، وحرقا في همجيّة لا حدود لها، لم يشهد التّاريخ لها مثيلا، فيقول أحد الغربيّين واصفا ذلك:" إنّ الفرنسيّين عندما فتحوا مدينة قسنطينة في شمال إفريقيّا، أحرقوا كلّ الكتب والمخطوطات الّتي وقعت في أيديهم كأنّهم من صميم الهمج."[2]

وكيف لا يكون التّعليم مزدهرا، وتكون الثّقافة رائدة في الجزائر، وأهلها مسلمون، منهج حياتهم القرآن الكريم، ودستور مسلكهم في الحياة، منه يستمدّون ثقافتهم وتعليمهم، شهد بذلك الغرباء عن من أمثال **لويس رين** حيث قال في تقرير له حول التّعليم في الجزائر:" كان القرآن في الجزائر هو كلّ

* رحالة الماني زار الجزائر في ديسمبر عام ألف وثمانمائة وواحد وثلاثين.

[1] . موقع:http://islamstory.com

[2] . الموقع نفسه

شيء، هو المعلّم والتّعليم...لقد كان هدف فرنسا منذ 1830 هو الحط من التّعليم القرآني وتعويضه تدريجيا بتعليم أكثر عقلنة وأكثر علميّة وبالخصوص أكثر فرنسة."[1]

لقد صدق **لويس رين** في قوله، وخاصّة في آخر(أكثر فرنسة) لأنّ فرنسا كان هدفها الأوّل منذ دخولها إلى الجزائر هو القضاء على القرآن، والدّين الإسلاميّ لأنّه المقوّم الأوّل لتكوين شخصيّة الجزائريّين، فإن تمّ القضاء عليه، ما الّذي تبقّى لهم، فهو أساس عروبتهم وأصالتهم، ومسيّر أمورهم ومنبع أنافتهم، بفضله حافظت الجزائر على مكانتها، وبواسطته استطاعت أن تخرج المحتلّ من ديارها ولأنّ المدارس التّعليميّة كانت مرتبطة بالمساجد في أغلب الأحيان، ويشرف على إدارتها وكلاء الشّؤون الدّينيّة، وهي تتغذّى على أملاك الأوقاف الخيريّة، إلاّ أنّ فرنسا حاولت في كلّ جهودها أن تفصل بين الدّين، والتّعليم، وبذلك أهملت المدارس الإسلاميّة، ولم يبق منها إلاّ بعض الزّوايا المعزولة خاصّة في المناطق النّائيّة البعيدة عن المدينة.

إذن تؤكّد مختلف الكتابات والتّقارير عن التّعليم في الجزائر أنّه تراجع في أثناء الاحتلال الفرنسيّ فتحوّل من رائد إلى راكد، من ناجح إلى فاشل، من متطوّر إلى متراجع، من جيّد إلى رديء، بسبب توقّفه عن أداء مهمّته النّبيلة جرّاء الاحتلال، ولظروف الحرب من جهة، والاستيلاء على الأوقاف من جهة أخرى، وهجرة المعلّمين، أو نفيهم من جهة ثالثة، وتوقّف الأولياء عن بعث أبنائهم إلى المدارس الفرنسيّة، لأنّ التّعليم في نظرهم هو تعليم القرآن الكريم، وأداء الصّلوات، وقواعد الدّين، بينما تعلّمهم المدرسة الفرنسيّة تعاليم دين آخر هو المسيحيّة، ولغة أخرى هي الفرنسيّة.

هذا عن التّعليم في الجزائر ككلّ، أمّا في مدينة قسنطينة، وبعد احتلال فرنسا لها كتب الجنرال "**بيدو**" تقريرا عن التّعليم فيها جاء فيه ما يلي:" إنّ التّعليم في قسنطينة كان منتشرا بصورة غير متوقّعة للفرنسيّين، فقد كان فيها مدارس من مختلف المستويّات الإقليميّة."[2]

[1]. موقع: Http :ll islamstory.com

[2]. الموقع نفسه.

حيث تشعّبت مختلف العلوم في مدارس قسنطينة، فهناك علوم التّفسير، وعلوم الحديث ومحاضرات في الحساب، والفلك، والبلاغة، والفلسفة، وبالموازاة مع دروس المساجد الّتي يشرف عليها فقهاء وعلماء المدينة، لتعمّ الفائدة بتلك الازدواجيّة بين العلوم النقليّة، والعلوم العقليّة، لكنّ دوام الحال من المحال، فمنذ الاحتلال تدهور كلّ ذلك، وكاد أن يختفي التّعليم من المدينة العريقة ليحلّ محلّه الجهل، وتغيب العقول النّيّرة من السّاحة الفكريّة الثّقافيّة، والأدبيّة القسنطينيّة جرّاء نقص المدارس، والمساجد، اللّهم إلاّ تلك الزّوايا المنتشرة هنا وهناك، والّتي بالرّغم من سيطرة المستعمر إلاّ أنّها ظلّت وفيّة للعهد، وبقيّت مناضلة محافظة على أداء مهمّتها.

المبحث الثاني:مدينة الجزائر العاصمة في عيون الرّحّالة

2-1 تاريخها و أسماؤها :

هي العاصمة الجزائريّة مزغنّة، ولاية الجزائر، أو بني مزغنّة كما تسمّى، وإنّما سميّت كذلك"لوجود ثلاث جزر كانت مقابلة لها، وبني مزغنّة إحدى بطون قبيلة صنهاجة، لأنّ الجزائر تندرج ضمن مضاربها."[1]

إذن هذه الجزائر الإفريقيّة، بوّابة القارّة، الجزائر المتوسّطية، مرسى على أقدم بحار العالم، ولذلك أطلق عليها اسم الجزائر، أمّا إذا عدنا إلى المصادر والمراجع الّتي بحثت بشأن اسمها، فتوصل لنا معلومة بعيدة المدى غابرة في عهدها السّحيق، أنّها كانت قطعة أرض لا شأن لها، وتسمى بلغة القوم" أرغل" ومعناه المكان المستور العميق."[2]

وغاب التّعريف بهذه المدينة والأسماء الّتي أطلقت عليها إلى عهد الفينيقيّين، الّذين وطئتها أقدامهم سنة 880 ق م، وأعطوها اسم" إيكوسيم" هذا الاسم الّذي ذهب العلماء في تفسيرهم إلى مذاهب ثلاثة فمنهم من قال معناه ما يؤدّيه اللّفظ العربيّ لكلمة الجزائر" أي جمع جزيرة، ومنهم من قال نعم فيه معنى الجزيرة بالإضافة إلى كلمة الشّوك، أي جزيرة الشّوك، ومنهم من حلّل كلمة" ايكوسيم" إلى كلمتين أي أنّها مركبّة من جزأين اثنين: الكلمة الأولى" إي" ومعناها جزيرة، وكلمة" كوسيم" ومعناها الشّوك، أي أنّ معنى الاسم" إيكوسيم" جزيرة الشّوك."[3]

وبعد أن استولى الرّومان على الجزائر(146 ق م . 431 م) قاموا ولا شكّ بأعمال كثيرة في هذا المكان وأصبحت تابعة لمملكة موريتانيّة القيصريّة، ثمّ تحوّلت ابتداء من القرن الأول الميلاديّ إلى مستعمرة رومانيّة وحملت اسم ايكوسيم أو اكوزيوم على أن الاسم مشتقّ من لفظ ايكوسي."[4]

---

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج1 . مدن الوسط . دار الحكمة . الجزائر2007 . ص 17.

[2] . الشيخ عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) . منشورات وزارة الثقافة . ط2 . الجزائر 2005 . ص 11.

[3] . المرجع نفسه . ص 12.

[4] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج1 . مدن الوسط . ص 08.

وقد ورد أيضا في بعض المراجع، أن مدينة الجزائر نالت في القديم اسم" اقسيوم"، وأسّسها هركول الفينيقيّ وأصحابه العشرون فردا، الّتي يدلّ باللّغة اليونانيّة القديمة على عدد عشرين إشارة إلى بناتها."[1]

وكانت أيّام الرّومان قليلة الأهميّة ثمّ خرّبت أثناء هجمات الوندال، وثورات البربر، وفي منتصف القرن الرّابع هجري، العاشر ميلادي، أسّس بُلكين بن زيري بن مناد الصّنهاجيّ مدينة جزائر بني مزغنّة." [2]الّتي بنيت على أنقاض المدينة الفينيقيّة، وأخذ نموّ الجزائر يتزايد إلى أن هاجمت قبائل بني هلّال سهول متيجة

فاستولت قبيلة الثّعالبة عليها وسكنتها، ولما ضعفت الدّولة الزّيانية، وتكالب الأسبان على السّواحل الإفريقيّة، فاحتلّوا الجزائر، وأسّس"بيدونفارو" حصنا في أكبر جزائرها، وهو مكان برج الفنار اليوم يبعد عن المدينة نحو 300م فضاق سكّانها بالإهانة الاسبانيّة ذرعا، فاستنجدوا بالأخوين بربروس خير الدّين وعرّوج رايس، فكسرت شوكة الأسبان، وعيّن خير الدّين ملكا على الجزائر، وازدادت أيّامه عدلا، وخيرا، اعترف بفضائله حتّى أعداؤه، ومنذ ذلك العهد أصبحت الجزائر عاصمة للقطر الجزائريّ، واستمرّت كذلك زهاء خمسة قرون تبسط نفوذها على كامل البلاد التّونسيّة."[3]

ومهما اختلفت الأسماء والألقاب الّتي أطلقت على مدينة الجزائر، فإنّ المتفّق عليه، والمتعارف إلى حدّ الآن، أنّ الجزائر جمع لكلمة جزيرة الّتي تناولها أغلب الجغرافيّين العرب في كتاباتهم كالمقدسيّ، والأسطخري فجاء في كتاب الأوّل (أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم):" جزيرة بني زغناية على ساحل البحر..."[4]

وجاء في كتاب الثّاني (مسالك الممالك): " وجزيرة بني مزغنّا مدينة عامرة يحفّ بها طوائف من البربر."[5]

---

[1] . عزيز سماعيل – بحث حول الرحالة العرب في المغرب العربي من موقع:http :llWWW ahrab.com

[2] . الموقع نفسه.

[3] ..الموقع نفسه

[4] . الشيخ عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) ص 15 . عن المقدسي . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ط ليدن 1906 . ص 246 و 375.

[5] . المرجع نفسه . عن الأسطخري . مسالك الممالك . ط ليدن 1927 . ص 37،38،39،46.

هذا عن المدينة، وعن الحضارات الّتي تعاقبت عليها، والأسماء الّتي أطلقوها عليها، أمّا عنها في العهد العثمانيّ، وبعد ضعف الدّولة الزّيانيّة في بداية القرن العاشر الهجري، والسّادس عشر ميلادي جعلت مدينة الجزائر تنفصل عن هذه الدّولة، وتشكّل إمارة بقيادة آل سالم من قبيلة الثّعالبة، وكانت من بين المدن المرشّحة للسّقوط تحت ضربات القوّة الأسبانيّة."[1]

2-2 موقعها الجغرافي:

تقع مدينة الجزائر في السّاحل الشّمالي لإفريقيّة، على خطّ عرض 47 و36 شمالا وخطّ طول 44 شرقا، الجبال الشّامخة، والسّهول، والهضاب المرتفعة، ووديان، وأنهار تزيدها جمالا وبهاء، ممّا يجعلها قبلة السّيّاح والمتجوّلين، أمّا داخلها، فأهمّ، وأبرز معلم فيها تلك القصبة، أحياء ضيّقة وهي : تقع بأقصى جنوب المدينة بين الجامع البرّانين ودار الأغا، وبيت المال، والمحكمة لاغا المتلاصقين بالجامع البرّاني على ربوة أشبه بمصطبة تشرف على منحدر المدينة المنزلق نحو البحر."[2]

يحدّها من الجهة الشّماليّة الحدائق الّتي تحمل حدائق الرّنق، ومن الجهة الجنوبيّة حيّ التّغرين، أمّا من الجهة الجنوبيّة الشّرقيّة فتتّصل بأسوار المدينة الشّرقيّة.

كان فيما سبق عن القصبة القديمة الّتي كان توسيعها من الشّمال نحو الجنوب بعد أن تحوّلت إلى عاصمة للدّولة الجزائريّة.

بعد ذلك تمّ تشييد القصبة الجديدة عام 1516م، وهي عبارة عن قلعة ذات برجين: الأوّل على مدخل القلعة، والثّاني على المساحة، فهي من أعظم البنايات التّاريخيّة."[3]

ككلّ مدينة جزائريّة، تميّز مدينة الجزائر العاصمة، أسوار تحيط بها فتجعلها محصّنة ضدّ الأعداء وأسوارها كانت في العصور الحديثة تتّبع المخطّط نفسه الّتي قامت عليه أسوار العصور الوسطى، فتمتدّ من قصبة

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج1 . مدن الوسط . ص 08.
[2] . المرجع نفسه . ص 25.
[3] . المرجع نفسه . ص 26.

سيّدي رمضان، وفي سنة 1540م أضاف الحسن باشا مثلّثا متساوي الأضلاع يكون رأسه قصبة المدينة وتكون قاعدته جنوب المدينة، فأصبحت المدينة عبارة عن مثلّث رأسه القلعة."[1]

يبدو أنّ السّور المحيط بالمدينة ـ الجزائر ـ قديم جدّا ضاربة جذوره في أعماق التّاريخ، حتّى وصفه صاحب كتاب الاستبصار المجهول* حيث جاء فيه:" مدينة الجزائر بني مزغنّة مدينة على ضفّة البحر والبحر يضرب في سورها، وهي قديمة البناء أزليّة، فيها آثار عجيبة، تدلّ على أنّها كانت دار مملكة لسابق الأمم وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملفّقة مثل الفسيفساء."[2]

2-3 الحياة الدينية:

والّتي تبرز في تلك المساجد المشيّدة على الطّراز الإسلاميّ، حيث القباب تعلوها، ومساحاتها الشّاسعة لمصلّيها تميّزها عن باقي البنايات الأخرى، ولقد لعبت دورا كبيرا في حياة المجتمع، وكانت، ولا تزال أهمّ المراكز للعبادة، والإرشاد، والوعظ، وتخلق جوّا من التّعارف، والتّقارب بين أفراد المجتمع، ومن أهمّ المساجد الّتي تحفل بها مدينة الجزائر العاصمة، وكما أطلعتنا المصادر:

الجامع الأعظم الّذي يقع بالقرب من الميناء، وشيّد في الرّابع من شهر جوان من عام ألف وسبعمائة وتسعين من قبل يوسف بن تاشفين، ولعب دورا هامّا في النّشاط الدّينيّ، والقضائيّ، ولم يتوقّف دور المسجد على ذلك، بل اعتبر مؤسّسة تعليميّة تقام بها حلقات العلم.[3]

ـ مسجد الجامع الجديد: ولقب بمسجد الصّيّادة، شيّد سنة أل وستمائة وستين فوق موقع مدرسة أبو عنان.

ـ مسجد الحاج ميزومورتوا: شيّد فوق عدّة حوانيت وحمّام، كان له إمام خطيب وإمام للصّلوات، وفقيه للفقه المالكي.

---

[1] . مختار حساني ـ موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج1 ـ مدن الوسط ـ ص 27.

* . وجد هذا المكتوب عام 587 هـ الموافق ل 1191م

[2] . عبد الرحمان الجيلالي ـ تاريخ المدن الثلاث (الجزائر. المدية ـ مليانة) ـ ص 141.

[3] . المرجع نفسه ـ ص 92.

– مسجد عليّ بتشين: شيّده من ماله الخاصّ حوالي سنة ألف وستمائة واثنان وعشرين ويقع في نهج باب الوادي.

– مسجد جامع سفير: تمّ بناؤه سنة ألف وخمسمائة وأربعة وثلاثين بيد القائد سفير بن عبد الله، من أصل مسيحيّ اعتنق الإسلام، ويقع في حومة سيّدي بالقدور بالجهة.

. مسجد السّيّدة: لم يعرف لا تاريخ بنائه، ولا موقعه، لأنّه دمّر خلال احتلال فرنسا لمدينة الجزائر.

إلى جانب هذه المساجد، معلم آخر، ربمّا يؤدّي الدّور نفسه الّذي يؤدّيه المسجد، هو الزّوايا، ولمدينة الجزائر عدد هائل منها، بما في ذلك الأضرحة، وأبرزها: زاوية الشّيخ عبد الرّحمان الثّعالبي، وزاوية الوالي دادة وزاوية عبد القادر الجيلالي.

. زاوية الجامع، زاوية سيّدي محمد الشّريف الكبير: تقع بنهج باب الجزيرة بالقرب من الجامع الكبير مشتملة على مسجد بدون منارة، ومدرسة للصّغار، وكانت تضم بناء يحوي طابقين بهما غرف للعلماء من عابري السّبيل، والفقراء الّذين لا مأوى لهم.

كما تحتوي الزّاوية حجرة مربّعة عاريّة من أيّ زخرفة، والقائم على الزّاوية هو الوكيل الّذي ينسب إلى الشّيخ، ومؤذّن وحزّاب، وقارئ القرآن، وشاوش، ومكلّف بإنارة المصابيح، والشّموع.[1]

وللزّاوية دور هامّ، فبالإضافة إلى كونها مركز علم ومحفل وعظ وإرشاد، فهي تسهم في إطعام الفقراء والمساكين، وبالخصوص في المناسبات الدّينيّة كالمولد النّبويّ الشّريف.

. زاوية الأندلسيّين: ويتمثّل دورها في تقديم يد العون للمساكين، والفقراء، وكنتيجة لتلك الزّوايا، والمساجد وبالإضافة إلى المدارس، فلابدّ أن تكون معلم تخرّج الكثيرين من العلماء الّذين رفعوا راية العلم والإسلام عاليا وكان لهم الدّور الكبير في النّهوض بالجزائر، وجعلها حضارة التّفقّه والدّين والعلم والأدب.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 2 . مد ن الوسط . ص 96.

وأبرز هؤلاء قطبها اللّامع الثّعالبيّ عيسى بن محمّد الجزائريّ، كنيته أبو مهدي أصله من ناحية وادي يسّر وهو أصل الثّعالبة الّذين رحلوا من متّيجة بعد قيام الدّولة الجزائريّة الحديثة، تلقّى تعليمه الأوّل في مسقط رأسه بمضارب قبيلة الثّعالبة بعدها انتقل إلى تونس، ثمّ نحو الشّرق، وأخذ عن العلماء الّذين التقى بهم سنة 1064م، وأبرز مؤلّفاته المخطوطة" شرح العقيدة الصّغرى".[1]

وغيره كثيرون، إلاّ أنّنا سنذكر أحد الرّحّالين بما أنّنا بصدد دراسة أدب الرّحلة في الجزائر، وأبرزهم ممّن كانت لهم وقفة في الجزائر، ألا وهو عبد الرّزّاق بن حماد و ش الجزائريّ، المولود في الجزائر سنة (1107هـ /1695م)، ودرس على يد شيوخها الأجلّاء، ثمّ انتقل إلى المغرب الأقصى ليواصل تعلّمه على يد علمائها الّذين ذكرهم في رحلته كالفاسيّ، ومحمّد بن أحمد القسنطينيّ، وبن مسعود اليوسيّ، وغيرهم.

وقد أثرى ابن حماد و ش المكتبة العربيّة بعديد المؤلّفات منها: تخريج الدّرر على المختصر، مختصر البخاري وله كذلك في الطّب من مثل: في السّموم وذوات السّموم وعلاجها، في التّرياقات وما يجري مجراها، في الأمراض مرتّب على جدول حنين بن اسحاق.

يبدو أنّ الجزائر لها من الأعلام في مختلف الميادين وشتّى التّخصّصات، فمنهم من برز في الفقه وتعاليم الإسلام، ومنهم من برز في الأدب والفكر، وغيرها من مجالات الثّقافة الّتي لا حدود لها في بلادنا.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج1 . مدن الوسط . ص 83 . 84.

2-4 الحياة الاجتماعية:

وعلى غرار الحياة الدّينيّة هناك حياة أخرى لا تقلّ عنها أهميّة هي الحياة الاجتماعيّة اليوميّة لسكّان الجزائر، حيث تختلف نشاطاتهم في جوّ من الحركة والحيويّة داخل مساحات هي الأسواق الّتي يجتمع النّاس فيها بين بائع ومشتر، ومتفرّج على أنواع السّلع والمعروضات، فهذا يعلو صوته لعرض ما لديه حتّى يقبل المشترون نحوه لاقتناء ما يرغبون فيه حسب متطلّبات حياتهم، فهذا يشتري ما يحتاجه وهذا لإعادة بيعه من جديد، ومن أبرز الأسواق المنتشرة في أحياء الجزائر العاصمة نذكر:

. سوق المقايسة: وخصّص لبيع الأساور من العاج، وقرون الفيلة، والثّيران.

. سوق الخرّاطين: وشهد قتالا كبيرا على منتجات الخرّاطة الّتي تتمثّل في الملاعق، والغراريف، وألعاب الأطفال، وآلات النّسيج.

. سوق الدّبّاغين: وكان يعرف بدار الدّبّاغين، وهي عبارة عن فندقين صغيرين يقعان بشارع باب عزّوز، وأين تصبغ الجلود، وهي صناعة رائجة في الجزائر لكثرة استعمالاتها كالأحذية، وجلود للتّزيين في المنازل، وفي بعض الأحيان يجلسون عليها، وأكياس توضع فيها النّقود مطرّزة.[1]

ويندرج أيضا ضمن الحياة الاجتماعيّة عناصر السّكّان بالجزائر العاصمة، فنجدهم يتشكّلون من العناصر البربريّة وعلى الخصوص الصّنهاجيّين الّذين استقرّوا بريف المدينة، والبعض منهم بداخلها زيادة على التّجّار المتواجدين به، واستمرّ الوضع كذلك إلى القرن السّابع هجري، الثّالث عشر ميلادي، وخلال هذه المدّة استقرّت بها القبائل العربيّة من الثّعالبة، وربّما الزّناتيّين خلال سلطة هؤلاء عليها.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 2 . مد ن الوسط . ص 31 . 32.

وقد تناول بعض الرّحّالة المدينة من حيث العناصر السّكّانية وتزايدها مثل الحسن الوزّان، فقال: " كانت تضمّ حوالي أربعة آلاف أسرة، وإذا قمنا بضرب هذا الرّقم في خمسة نجد بأنّ سكّانها قد زاد على ستّة عشر ألف نسمة، وهذا مقبول في مدينة خلال العصور الوسطى."[1]

كان هذا باختصار عن المدينة، فيما يخصّ تاريخها، وموقعها الجغرافيّ، وعناصرها السّكّانية، بالإضافة إلى ما تزخر به من مناظر طبيعيّة، وتضاريس، وأقاليم، وكذلك ما تحيا به بين أحيائها، وشوارعها وأسواقها، وسلعها المعروضة للبيع، دون أن ننسى أسوارها الّتي تحصّنها من كل جانب.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية ج 2 . مد ن الوسط . ص 57. عن الحسن الوزان . وصف إفريقية . ص 46.

2 . 5 صورة الجزائر في عيون الرّحّالة:

أ . الرّحّالة العرب:

بما أنّ الجزائر تتوسّط القطر الجزائريّ، وهي ممرّ كلّ راحل، ومتجوّل، وسائح، إن كان من الشّرق متّجها نحو الغرب، وإن كان العكس، أي آتيّا من الغرب ومتّجها نحو الشّرق، فإنّه لا بدّ أن تكون موضع القدم، ومحطّ الأنظار، وبالتّالي تكون ضمن كتابات الرّحّالة عربا، أو أجانب، فلا أحد يرى ما تحفل به هذه المدينة، ولا أحد ينكر مميّزاتها عن باقي مدن الجزائر، ولا سيّما وقوعها عل شطّ البحر ولا يمكنه أن يتمتّع بمناظرها، ولا يدّقق النّظر في مبهجاتها، ودون شعور منه تراه يطلق العنان للسانه بالوصف ومترجما ذلك على صفحات كتاباته، فهناك من أطال إقامته، وهناك من خفّفها، وجعلها قصيرة، ربّما لظروف قاهرة، لأنّه لو كان الأمر بيده لما غادرها، المهمّ من كلّ ذلك ما قيل عنها، وما شهدت به الأقلام على الدّفاتر.

وأوّل وصف لها، يخصّ اسمها وتحصينها ما جاء في قول ابن حوقل:" وجزائر بني مزغنّة مدينة عليها سور في نحو البحر، ولها باديّة كبيرة، وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة... ولها جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدوّ لجئوا إليها، فكانوا بها في منعة، وأمن ممّن يحذرونه ويخافونه."[1]

سمّى ابن حوقل الجزائر بني مزغنّة كما جاء سابقا في المراجع السّالفة الذكر، قال عن موقعها بقرب البحر، وأنّها باديّة كبيرة إلّا أن سكّانها بربر، فهو وصف عاديّ لم يبد فيه الرّحّالة إعجابه، أو اندهاشه، وإنّما وصفها كما هي على حقيقتها، وختم وصفه بتلك الجزيرة المحاذيّة للمدينة، وملجأ سكّانها إن أحذق بهم خطر، أو هاجمهم عدوّ، حتّى تكون مأمنا لهم من أيّ شيء داهمهم كان فيه خطورة فخافوا على حياتهم منه.

[1] . عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) ص 149 . عن ابن حوقل . أبو القاسم محمد . المسالك والممالك والمفاوز والمهالك.

وتتمّة لقول ابن حوقل في وصف الجزائر العاصمة، وما قاله أولئك البربر سكّانها أضاف الإدريسي قولا عن زراعتهم:" فيها قبائل البربر، وزراعتهم الحنطة والشّعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ويتّخذون النّحل كثيرا، فلذلك العسل والسّمن في بلادهم كثير، وربّما يتجمهر بهما سائر البلاد، والأقطار المجاورة لهم، والمتباعدة عنهم، وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة."[1]

لم يقف الإدريسي عند وصف القبائل البربريّة . سكّان المدينة . وإنّما تعدّى إلى وصف غلالهم ومواشيهم، وما يمكنهم تصديره إلى البلاد المجاورة، أو المتباعدة، وكذلك شيمهم بأنّهم حرمة، إذن تعمّق الإدريسي في الحياة العمليّة، والاجتماعيّة، بل اليوميّة لهؤلاء السّكّان.

والتفت كلّ من العبد ر ي* والجامعي إلى مناظر مدينة الجزائر ووصفاها في أبهى حلّة، وأروع بهاء حيث أشادا، وأبدعا في وصفها، فقال الأوّل:" هي مدينة تستوقف بحسنها ناظر النّاظر، ويقف على جمالها الخاطر، فقد حازت مزيّتي البرّ، والبحر، وفضيلتي السّهل، والوعر، لها منظر معجب أنيق وسور معجز وثيق."[2]

هكذا استطاعت العاصمة أن تستوقف الرّحّالة العبدري، فلم يستطع مواصلة المسير والرّحلة باتّجاه غايته، قبل أن يتأمّل جمالها السّاحر الّذي جمعت فيه ما بين البرّ والبحر، والسّهل والوعر، هو إعجاب ما بعده إعجاب، واندهاش يفوق الاندهاش نفسه، كيف لا وهي التاّج المرصّع بأبهى الحليّ وأغلى المجوهرات، كلّلت به قارّة إفريقيّة، تنادي كلّ من مرّ بها إلى التّوقّف للتّمتّع بجمالها الخلاّب وحسنها الجذّاب، حتّى وصفها أحد المولوعين بجمالها الّذي يبدو أنّه شلّت قدماه في أثناء المرور بها فكلّ يغنّي وينشد في بهائها ورونقها ما شاء من العبارات الّتي كلّما ردّدت إلاّ وزادت المدينة جوّا من

[1] . الإدريسي . نزعة المشتاق في اختراق الآفاق حققه ونقله إلى الى الفرنسية محمد الحاج صادق . الجزائر 1983 . ص 120.

*محمد ين محمدالبلنسي الشهير بالعبدري(ت 720هـ / 1325م) حج نصف رحلة مسجوعة إلى المشرق، بدأها من أقصى جنوب المغرب مارا بتلمسانومليانة والجزائر(677هـ / 1283م).

[2] . العبدري . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة ، منشورات بونة . الجزائر 2007 . ص 85.

الرّومانسيّة البديعة: " إنّها صوت ينادي للتّسلّل نحو مشاجر حضار تعرض لنا بانوراما لا مثيل لها وبالتّالي تظهر المدينة، وكأنّها معلّقة في السّماء."[1]

أمّا الجامعي فقد فاق العبد ري وصفا وتعبيرا، وسجعا، وجناسا في تصوير مدينة الجزائر، لأنّه استعمل ما جمع من الألفاظ البلاغيّة، فيبدو أنّ دهشته وانبهاره فاق الحدود، فرصد كلّ العبارات الّتي تخدم إعجابه ليزيدها سحرا حيث قال:" مدينة الجزائر ذات جمال الباهر، وحلول مغانيها النّواضر الّتي غصّ ببهجتها كلّ عدوّ كافر."[2]

ولم يتوقّف في تعبيره عند هذا الحدّ، بل أضاف قائلا:" فيها ما شئت من حدائق كالنّمارق وقصور نوع المحاسن عليها مقصور، والّذي أعارها ذلك المرسى الجميل، وأصارها فضّيّة الصّباح عسجديّة الأصيل، وألحقها بهجة، وإشراقا، وألبسها نضرة، وإيراقا."[3]

وعن هوائها الّذي يشفي العليل، وبهائها الّذي ليس له مثيل، ويخفّف من معاناة المحبّ الّذي فارق حبيبه، ويذهب نوعا ما عنه وجده واشتياقه، قال الجامعي:" أبراني من عليلي ووجدي من روائها العسجديّ وبحرها اللّازورديّ، إذ هي كما قيل:

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ حُلَّةً رِيشَهُ الطَّاوُوسُ[4]

فَكَأَنَّمَا الأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةٌ وَكَأَنَّ سَاحَاتُ الدِّيارِ كُؤُوسُ

ما هذا الوصف، وما هذا التّشبيه أيّها الجامعي، لقد جعلت المدينة ترياقا، ودواء يشفى بنسيمها كلّ عليل، وتبرئ كلّ مشتاق ولهان، حتّى أوردت تلك الأبيات للشّاعر الأندلسي لابن اللّباقة، فهو وصف لجزيرة ميورقة الّتي استعارت من الحمامة طوقا، ومن الطّاووس ريشا براقا لتظهر في أبهى حلّة

[1] . توفيق بن داوود . الجزائر وجوه ومناظر . عن وزارة الثقافة . جويلية 2005 . ص 03.

[2] . عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) ص 155 . عن رحلة الجامعي.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[4] . ينسب هذا البيت إلى الشاعر الأندلسي ابن اللباقة(ت 505 هـ / 1113م) في وصفه لجزيرة ميورقة.

وكأنّها عروس تزيّنت وتصدّرت لتبهر النّاظرين إليها، ولتسحر بجمالها عيون المحبّين، فأضفت في وصف مدينة الجزائر إنشادا موحيّا بأنّه لا نظير لها من بين المدن، فقلت فيها:

بِلاَدٌ بِرَأْسِ الغَرْبِ تَاجٌ مُكَلَّلٌ وَخُلْخَالُ سُوقِ الشَّرْقِ غَيْرِ ضَوَاجِرِ

بَدَتْ بِمِنَصَّاتِ الزَّمَـانِ كَأَنَّهَا عَرُوسٌ تَجَلَّتْ فِي أَعَالِي المَنَـــــابِرِ[1]

وَقَدْ قَلَّدَتْ مِنْ بَحْرِهَا بِمُوشَّحٍ وَصِيغَتْ لَهَا الأَمْوَاجُ خَلْخَالَ حَاسِرِ

من خلال هذا الوصف، وهذا التّصوير لمدينة الجزائر، ما من أحد يمرّ بها إلاّ وتستوقفه مبهورا مدهوشا لجمالها، فيظهر ذلك الانفعال على وجوه المارّين بها، أكانت نظرات عميقة، مرتابة أو متعجّبة لدى البالغين، وابتسامات برّاقة لدى الأطفال الأبرياء.

أمّا عن وصف البنيان، والعمران القديم قدم المدينة، سواء أكانت أسوارها المحيطة بها، أو بناياتها الغريبة بكنائسها العتيقة، يقول صاحب كتاب الاستبصار:" كانت بمدينة بني مزغنّة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان، بقي اليوم منه جدار هو قبلة الشّريعة في العيدين، وهو كثير النّقوش والصّور، إليها أصحاب السّفن."[2]

ليس هذا فحسب في وصف المدينة، بل تعدّى إلى كلّ صغيرة وكبيرة فيها، ولم يغفل الرّحّالة عن شيء، حتّى علماءها نالهم وصفهم، فهناك منهم من أفاض وأشاد، ومنهم من اختصر واقتصر ومنهم من لم يجد فيها من ينتمي إلى دار العلم والفكر، ولا يمت للتّفقه بصلة، مثل عن ذلك الرّحّالة المغربيّ العبدري، فبعد أن أعجب بجمال المنظر، الّذي استوقفه بين زرقة البحر، وخضرة البرّ، تأسّف لعدم وجود من يكشف كربته، ويؤنس وحشته، ووحدته، وغربته، فقال:" لها أبواب محكمة العمل يسرح الطّرف فيها حتّى يملّ، ولكنّها قد أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفرت من أهله ملحوب فلم يبق

[1] . عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) ص 159 . عن رحلة الجامعي.

[2] . العبدري . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 48.

بها من هو أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فنّ من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، أو أديب يؤنس غربة، فكأنّني أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض النّوق."[1]

غير أنّ الجامعيّ، وابن زاكور كانا على عكس العبدري، فقد وجدا في الجزائر العاصمة كلّ ما يبهج النّفس، ويثلج الصّدر، ويروي الظّمأ، والتّعطّش إلى العلم والمعرفة، وجدا فيها العلماء الأجلّاء والفقهاء الأكفّاء، من أخذوا عنهم، وتتلمذوا على أيديهم، فلم ينسوا فضلهم، ولم ينكروا دورهم في تثبيت العلوم والمعارف في قلوبهم، فأنساهم ذلك تعب السّفر وغربة الدّيار، ووحشة الأهل، ومعاناة الابتعاد، فكان هؤلاء العلماء نورا يضيء دروبهم، ومنهلا يروي ظمأهم، وزادا يغذي نهمهم وتعطّشهم إلى شتّى أنواع المعارف في جميع مجالات.

فهذا الجامعي لم يحسّ غربة أبدا، وهو بمدينة الجزائر، لأنّه وجد فيها ما تركه في بلده، ولاسيّما حينما التقى بأديب الأدباء، وفقيه الحكماء، وعالم العلماء حسب ما جاء في رحلته قائلا:" وأمّا مدينة الجزائر، فأوّل بلد لقيت بها مثل من فارقته من أدباء بلدي، وبها تذكّرت بعض ما كان منية خلدي لاجتماعي فيها بالأديب الماهر الدّالّ وجوده على صحّة القول بوجود الجوهر الفرد في سائر الجواهر أديب العلماء، وعالم الأدباء محي طريقة لسان الدّين بن الخطيب... أبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن عليّ."[2]

هذا عن عالمها الجليل، وإن كان ليس الوحيد في مدينة الجزائر، فهناك علماء، وفقهاء، وخطباء تفخر بهم المدينة، أحيوا مجدها، ورفعوا رايتها، وبرعوا في شتّى أنواع المعارف كالنّحو، والفقه والحديث، وغيرها، ولهذا سمّيت الجزائر دار العلوم، كما وصفها الجامعي أيضا، ووصف علماءها قائلا:" فهي . الجزائر . والحمد لله دار الجوهر الفرد في الأدب، وعلم العقل، والنّقل، وتنبت العلماء

[1] . العبدري . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . ص 48

[2] . عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) ص 154 . عن رحلة الجامعي.

والصّالحين كما تنبت السّماء البقل...وهذه المدينة لا تخلو من قرّاء نجباء وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتّدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة، ومشهورة، وقد ذكرت مافيه غنيمة من علمائها الأخيار وكلّهم متحلّون بأحسن الصّفات متضلّعون بعلم المحو والفقه والحديث وإحياء ليلة المولد النّبويّ."[1]

وأكّد ذلك الرّحّالة المغربيّ ابن زاكور أنّ الجزائر العاصمة دار المعارف، ومنبر العلوم، وكأنّها السّماء تنبت البقل بمائها الغزار، فالأرض الطّيّبة لا تنبت إلاّ طيّبا، وكذلك وجد ابن زاكور المغربيّ ضالّته في المدينة، وعن علمائها يروي قائلا:" فيها غرر أعلام ينجلي بهم الظّلام، وشموس أئمّة تنفرج بهم كلّ غمة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمّة، من رجال كالجبال، وأحبار كالأقمار، طلعوا إلى قطف ما راق من أنوارهم الجنيّة، ورتعت في رياض آدابهم فتمتّعت، ونهلت من حياض علومهم حتّى تضلّعت، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتّى رويت، وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت، ونسيت ببشرهم وتأنيسهم وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم، وما عاينته من رهج القفار وقابسته في لجج البحار."[2]

فرق شاسع بين وصف العبد ر ي الّذي لم يجد بمدينة الجزائر أيّ عالم، أو مفكّر، أو مهمّتهم بمجال المعارف، والعلوم، حتّى أنّه استعمل لفظة ملحوب مستعيرا إيّاها من العصر الجاهلي في قول الشّاعر عبيد بن الأبرص في معلّقته الشهيرة:

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالقُطْبِيَّاتُ فَالدَّنُوبُ

ولفظة ملحوب اسم مكان، أي ذلك المكان أصبح خاليّا من أهله، لا يوجد لهم أثر فيه فكذلك حسب العبد ري أنّه لم يجد في المدينة من يمتّ للعلم بصلة، أي أنّها خاليّة من العلماء تماما

[1] . عبد الرحمان الجيلالي . تاريخ المدن الثلاث (الجزائر . المدية . مليانة) ص 154 . عن رحلة الجامعي.

[2] . المرجع نفسه . ص 156 . عن ابن زاكور . نشر أزاهير البستان . ص 43.

على عكس الرّحّالان الجامعي، وابن زاكور اللّذان وجدا فيها العديد من العلماء، وأنّ المدينة تنبتهم كما تنبت السّماء كرما منها بالماء البقل.

ب . الرحالة الأجانب:

كانت مدينة الجزائر قبلة العديد من المتجوّلين، والمتّجهين نحو الجزائر، وقد كانت أوّل محطّة ينزلون بها نظرا لوفودهم اتّجاهها عن طريق البحر، وبطبيعة الحال ينزلون في مينائها، الّذي كان أوّل ما يلفت انتباههم، وسيصفونه بالدّرجة الأولى نظرا لشاسعته، وموقعه الاستراتيجي الهامّ الّذي يتوسّط الشّمال الإفريقيّ، ومن هؤلاء الرّحّالة الألمان " **مالتسان**"،الّذي أعادنا إلى العصور القديمة للمدينة حيث لم يكن لها ميناء، وإنّما كان عبارة عن جزر أربع، أو بالأحرى صخور فقال واصفا إيّاه:" فالجزائر بطبيعتها لم يكن لها ميناء، فقد كانت هناك جزر أربع، أو بالأحرى صخور، تبعد عن الأرض ببضع مئات من الأقدام تقدّم للسّفن فيما بين الصّخور المسنّة، والبرّ ملجأ متعبا جدّا."[1]

إلاّ أنّ الوضع لم يضلّ على حاله، بل عرف عدّة تجارب، ومجهودات إنسانيّة جمّة، وتحسينات متواصلة، حتّى أصبح ميناء بحقّ لا تشبع العين من رؤيته، والنّظر مطوّلا إليه دون توقّف، أو ملل فعاد الرّحّالة إلى وصفه من جديد بشكله الرّائع جمالا، يعجز اللّسان عن وصفه من فرط امتداده على شاطئ خلّاب تمتزج فيه زرقة البحر بلون الرّمال الذّهبيّ، حتّى قال " **مالتسان**"الألماني:" لقد كان شاطئ ميناء الجزائر يمتدّ إلى جانب المدينة على شكل هلاليّ، قطعة فاتنة من طبيعة الجنوب:"[2]

ليضيف:" هذا كلّه ما كنت أتوقّعه، فلم أكن في الحقّ أنتظر أن أجد جمالا طبيعيّا بالمرّة."[3]

لم يكن الرّحّالة الألمانيّ " **مالتسان**" يتوقّع أن يجد هذا الجمال الّذي تحظى به المدينة الجزائر والّذي حباها إيّاه الله، فقد تمّ له رؤيته، وتمتّع به بعد أن أعجبه، وأدهشه، وهكذا أصبحت له زيارة

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 19.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

الجزائر حقيقة بعدما ما كانت حلما، ظنّ أنّه لن يتحقّق، فهو بجانبها، وعلى أرضها يحدثها قائلا:" يا أرض الفتنة الغريبة الّتي كنت ما حلمت بها،، أرض المنارات الرّقيقة، والصّحاري، والواحات، كم كنت لطيفة، وأنت غافية في ذهني."[1]

وعن الجمال المحيط بساحل البحر، أين تصطبغ زرقة مياهه الصّافية بلون السّماء، واخضرار النّباتات، فيبدو المنظر في غاية الجمال، لذا نجد الرّحّالة الإنجليزي(**م . د. ستوت**) في كتابه " الجزائر على حقيقتها" واصفا إيّاه:" بالجزائر العاصمة يمتدّ ساحل البحر بزرقة مياهه الصّافية."[2]

مواطنه(**ل. ج.سيقوين**) أيضا سحرته المدينة بكلّ ما احتوته من مناظر طبيعيّة، وأزقّة، وشوارع وممرّات حتّى جعل يلوم الرّحّالة الإنجليز سابقيه إلى زيارة الجزائر على عدم اهتمامهم الكافي بالعاصمة فقرّر أن يكرّس رحلته للحديث عنها بالتّفصيل الكبير، أو كما يقولون بالتّفصيل المملّ، وأول ما لفت انتباهه ذلك المنظر على الشّاطئ حين انعكاس أشعّة الشّمس الذّهبيّة على سطح مياه البحر، فمن فندقه الّذي أقام فيه، وعبر نافذة غرفته شرع يصف المنظر السّاحر قائلا:" تلك الشّمس المشرقة تنساب بأشعّتها داخل مياه البحر، فتحسّ بروعة الطّبيعة وسحرها، ولاسيّما منظر الجبال المحيطة وكذلك مشهد الميناء الرّائع."[3]

ما من قاصد للجزائر العاصمة، أمثال هؤلاء الغربيّين عنها، ذوو الجنسيّات المختلفة، إلاّ واستوقفتهم بجمالها الجذّاب، ذو المناظر الطّبيعيّة الّتي قلّما تجد لها مثيلا في مختلف البقاع المجاورة، أو البعيدة عنها.

---

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 19.

[2] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . ص 172 عن M.D.STOTT _ The Real Algeria _ by Hurst and BLACKET LIMITED _ LONDON 1914.

3. المرجع نفسه . ص 156 . عن ل. ج. سيقوين . جولات في الجزائر وما حولها L.G.SEGUIN _ WALKSN ALGERIERS AND ITS SURROUNDINGS _ LONDON 1888[2]

.

كلّ رحّالة استقرّ به المقام في مدينة الجزائر العاصمة، وبعد الرّاحة في فندق من فنادقها، إلاّ وتدفعه الرّغبة الملحّة الجامحة لاكتشاف أزقّتها وشوارعها، وأسواقها، وأنواع المعروضات فيها، وخبايا الحياة الاجتماعيّة الّتي يعيشها سكّانها، بعد أن اكتشف ووصف تلك الشّواطئ المائلة إلى الزّرقة عند البحر المتوسّط، وقمم مغطّاة بالثّلوج في القبائل والأوراس وتلك المساحات الخضراء على الهضاب العليا، وسط تلألؤ الاخضرار الدّائم ينبعث من حقول القمح والأشجار.

بالإضافة إلى اصطفاف الحوانيت بداخل المدينة، وسط الأزقّة الرّائعة تطلّ عليها البنايات فكما قال توفيق داوود:" تنتصب أزقّة رائعة الجمال كانت في الأصل طرقا تاريخيّة على شكل أدراج، وتلتفّ العديد من الشّوارع الصّغيرة على نفسها في الضّواحي في حين تتّجه الحانات الواسعة الّتي تشكّل كورنيشات تكلّل أعالي المدينة، وتفضي إلى البنايات البيضاء، كلّ هذا ليس دعوة فحسب بل هو مزيج مفعم بالتّناسق."[1]

فهذا الرّحّالة الإنجليزيّ " **سيقوين**" في وصفه للعاصمة ركّز على"باب عزّون بأعمدته الجميلة ومتاجره المتميّزة مثل الأسواق المحيطة وكيف يتزاحم على مداخلها الصّبية الفقراء ماسحوا الأحذيّة وبائعوا الفواكه."[2]

وهذا رحّالة آخر من جنسيّة ألمانيّة " **مالتسان**" يصف أزقّة الجزائر العاصمة قائلا:" أزقّة غريبة ضيّقة متداعيّة تعلوها بيوت تتكوّن من طابقين، أو ثلاثة طوابق، وقد بنيّت بصورة تجعل الطّابق الأعلى يمتدّ عرضا فوق الأسفل."[3] ثمّ يضيف:" وهذه الأزقّة لا يدخلها ضوء كثير بطبيعة الحال، والبيوت نفسها ليس لها سوى نوافذ قليلة صغيرة من ناحيّة الشّارع، ويفصل بينها وبين العالم الخارجي على الدّوام تقريبا، شبّاك من حديد يزيد من انغلاقها."[4]

[1] . توفيق داوود . الجزائر . وجوه ومناظر . عن وزارة الثقافة . جويلية 2005 . ص 03.

[2] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . ص 158.

[3] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 26.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

وعن الهرم الخالد . القصبة . التّذكار الّذي تنعم به الجزائر العاصمة، الشّاهد على بطولاتها المعمار الأبديّ الّذي لا يتزعزع، ويظلّ هكذا قابعا يبهر كلّ مار به بزخرفته، ويكون النص الرائد في كتابات الرحالة عربا، أو أجانب، ومن بين هؤلاء الألماني"**مالتسان**" فقال في وصفه:" هناك أزقّة كثيرة تفضي إليه، وتنتهي قرب القصبة، قلعة الجزائر وقصر الدّاي قديما الّتي تعتلي قمّة التّلّ."[1]

ويشاطره الرّأي الرّحّالة الإنجليزي (**ل.ج.سيقوين**) إذ يصف القصبة ذات المنظر الجذّاب ويفيض في ذلك حتّى تكون كتاباته عنها محلّ تشويق كلّ قارئ لها لزيارتها، ولاسيّما كما قال في اللّيالي المقمرة: " إن منظر الجزائر العاصمة يبدو من القصبة رائعا، وأنصح من يريد زيارتها أن يذهب في الأمسيّات المقمرة حيث يسمّر النّاس في اللّيالي، ويغمر المساكن ضوء القمر الهادئ ممّا يضفي عليها مسحة شاعريّة جذّابة."[2]

إنّه وصف بديع رائع للقصبة . الحيّ الشّعبيّ في مدينة الجزائر العاصمة . وفعلا إنّ الرّحّالة قد يشوق القارئ لرحلته، وبالضّبط لهذا المقتطف الخاصّ بالقصبة، ولاسيّما كما قال في اللّيالي المقمرة، وذلك الشّعاع السّاحر المنبعث من ضوء القمر فما يزيد المدينة إلاّ جمالا وحسنا، يرغب في رؤيته كلّ من سمع عنه.

ورحّالة إنجليزي آخر (**هـ.ت.كيني**)* وبالرّغم من أنّ خطّ سير رحلته كان باتّجاه الصّحراء إلاّ أنّه مرّ بها ككلّ أجنبيّ كان نزوله بها قادما إليها عبر البحر فوقف مبهورا أمام قصبتها:" ذكّرتني القصبة بماضي الجزائر العريق، وبالأحداث الّتي عرفتها، وبتاريخها الغابر الّتي بقيت آثاره في هذه العمارة الشّامخة."[3]

---

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 26.

[2] . عبد الله الركيبي . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . ص 160..

* رحالة إنجليزي زار الجزائر أوائل سنة 1930م رفقة زوجته لغرض الاستجمام والراحة بين أبناء العرب.

[3] . المرجع نفسه . ص 186.عنه . ت. كيني . إفريقيا المستنيرة H.T.KENNY _ INLIGHTEST AFRICA _ LONDON 1935

هكذا حظيّت القصبة بوصف الرّحّالة الأجانب الّذين قاموا بزيّارات باتّجاه الجزائر، وخاصّة مدينة الجزائر العاصمة، وقطبها اللّامع، وشمعتها المنيرة، وبرجها الخالد، الشّاهد على ماضيها، وتاريخها الحافل بالبطولات، والأمجاد، فأفاضوا في وصفها، وبرعوا في تصويرها، ولاسيّما وقت المساء.

وغير بعيد عن ذلك العمران الرّائد، والبناء المشيّد، هناك بنايات أخرى، ومعالم أخرى تفخر بها المدينة، تلك المساجد الّتي تتميّز ببنائها العديد يقول عنها الرّحّالة الألماني:" **ج. أو. هابنسترايت**":"مساجد الجزائر العاصمة متقنة البناء منها عشرة مساجد كبيرة ذات منارات "[1] .

ومع تفصيل نوعا ما عن تلك المساجد، والّتي تفخر بها المدينة، جامعها العظيم، المسمّى الجامع الكبير الّذي يقف أمامه الرّحّالة العرب، والأجانب مدهوشين مبهورين بجمال بنائه ونوع زخرفته إلى جانب مساجد أخرى في المدينة وللأسف تعرّض معظمها للدّمار، أو حوّل إلى كنائس في الفترة الاستعماريّة، أقول هذا لأنّ أغلب الرّحّالة الّذين زاروا الجزائر كان في تلك الفترة، فهذا الرّحّالة الإنجليزي (**ل.ج.سيقوين**) يصف الجامع قائلا:" هو أقدم مسجد بالعاصمة، إذ يعود بناؤه إلى القرن الحادي عشر أو قبله." [2] ويضيف:" إنّه قبل الغزو الفرنسيّ كان هناك ما لا يقلّ عن مائة مسجد بالجزائر العاصمة وحدها، والآن لا يوجد منه إلاّ خمسة والباقي كلّه إمّا تهدّم، أو حوّل إلى كنائس، أو إلى أغراض أخرى."[3]

وأكثر ما أثّر في نفس هذا الرّحّالة وهو يشاهد جامع المدينة، جموع المصلّين يسجدون للواحد القهّار في مشهد مهيب، يملؤهم الخشوع، وتوحّدهم الشّريعة المحمّديّة، فزاده ذلك إعجابا ودهشة فأصبح يقول:" إنّ مشهد المسلم المحمّدي وقت الصّلاة مثير ومؤثّر، وجهه إلى الشّرق، ركبتاه فوق الأرض

[1]-ج. أو. هابنسترايت رحلته إلى الجزائر وتونس طرابلس (1145 هـ /1732 م) ص 37.

[2] . عبد الله الركيبي. الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز. ص 159.

[3] . المرجع نفسه. ص نفسها.

وذراعاه مرفوعتان كأنّما كفّاه كتاب، ويقرأ فيه، وباسم الله يسجد في هذه الهيئة حيث أن سبعة أجزاء من جسمه تمسّ الأرض في وقت واحد."[1]

أمّا مواطنه(**م.د.ستوت**) وعن المسجد ذاته، فيتّجه اتّجاها آخر في وصفه، ومن بناه، وفي أيّ سنة فيقول:" يركّز على منارته، وعلى تاريخ بنائه خلال شهري فيفري، ومارس عام 1323م بينما بناه سلطان تلمسان "ابن اشفين" سنة 409هـ."[2]

إلاّ أنّه حين كلامه عن المسجد الجديد، فإنّه ينسبه إلى مهندس غربيّ مسيحيّ، فيقول عنه: " إنّ الجامع الجديد بني عام 1660م، وقد بناه مهندس غربيّ مسيحيّ كان أسيرا لدى الجزائريّين."[3]

لا ندري إن كان هذا الأمر صحيحا، أو غير ذلك، وإن كانت المعلومة موثوق منها، إلاّ أنّ المهمّ أنّه بيت الله، يعمره المسلمون وليس المسيحيّون، وإن كان ولابدّ من البحث للتّأكد من المعلومة ولابدّ من وجود متخصّصين في الميدان حتّى نعرف الحقيقة.

وعن الجامع نفسه ـ الجامع الجديد ـ يتحدّث الرّحّالة الألماني " **مالتسان**" واصفا إيّاه، ومبديّا إعجابه به، وببنائه، إلاّ أنّه يؤكّد المعلومة السّابقة دون أن ينسب بناءه إلى بناء مسيحيّ، وإنّما قال بني الجامع تحت إشراف بنّاء مسيحيّ، وهو عبد جنديّ، فيروي الرّحّالة قائلا:" فيما عدا الجامع الكبير يوجد شارع البحريّة مسجد آخر هو الجامع الجديد، وله أيضا منارة مربّعة هي تقليد لخيرا لد ا اشبيلية بنى الفرنسيّون فوقها ساعة لإدخال الرّهبة في قلب كلّ مسلم."[4]

ويضيف قائلا:" تكون قبّتها الرّئيسة الشّديدة البياض، وأربع قبب صغيرة."[5]

---

[1] .. عبد الله الركيبي ـ الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز ـ ص 159 ـ عن رحلة (ل.ج.سيقوين) جولات في الجزائر العاصمة وما حولها ـ ص 187.

[2] ـ المرجع نفسه ـ ص 167 ـ عن رحلة(م.د.ستوت) الجزائر على حقيقتها ـ ص 28.

[3] ـ المرجع نفسه ـ ص 166 ـ عن الرحلة نفسها ـ ص 23.

[4] ـ هايزيش فون مالتسان ـ ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ـ ترجمة أبو العيد دودو ـ ص 23.

[5] ـ المرجع نفسه ـ ص نفسها.

وصف الرّحّالة هذا الجامع ومنارته وقببه الأربع المحيطة بالقبّة الرّئيسة بلونها الأبيض، وكأنّها عروس في ثوبها الأبيض ترفل، وتتبختر وسط قريناتها متباهيّة، رافعة رأسها نحو السّماء.

هذا المنظر ترك انطباعا حسنا لدى الرّحّالة، فأبدى إعجابه به اعترافا ذلك بلسانه:" عند النّظر إليها من الميدان الرّئيسي، منظر يفاجئ المرء بجماله."[1]

إلاّ أنّ يد المستعمر لم تتوان عن أيّ معلم أثريّ في المدينة، فقد طالت كلّ شيء، إمّا بالتّدمير وإمّا بالتّحويل إلى كنائس، أو لأيّ غرض من أغراضها الخاصّة.

بالإضافة إلى المساجد هناك بالمدينة بناءات أخرى ذات التّشييد الجيّد، و الجميل هي مفخرة المدينة نالت إعجاب الرّحّالة الألمان وعنها يقول **هابنسترايت** :" حمّامتها مريحة ومزيّنة، والّذين يستعملونها تقدّم لهم خدمات جيّدة"[2].

ولم تغفل كتابات الرّحّالة عن أيّ شيء في مدينة الجزائر العاصمة، إلاّ وخصّصت له جزءا من صفحاتها من مناظر طبيعيّة، وأسواق، وقصور، وبناءات، ومساجد، وأضرحة، بل حتّى الحياة الاجتماعيّة الّتي يعيشها شعبها وخاصّة دار القضاء، أو المحكمة الشّرعيّة الإسلاميّة، فيصفها الرّحّالة الألماني "**فاغنر**" . سبقت الإشارة إليه . :" لا تقلّ منزلتها عن المحاكم الفرنسيّة، والّتي تقع في أحد شوارع باب الواد الجانبيّة، وكان الشّيخ سيّدي أحمد بن جعدون . مفتيها الدّينيّ . رجل يبدو عليه الوقار، ويزيد من رفعه قدره ما يرتديه من ثياب فاخرة."[3]

ويواصل الرّحّالة بعد وصف شيخها، وهندامه، وهيئته، وصف قاعة الحكم:" قاعة بسيطة تغطّي أرضها الزّرابي."[4]

---

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 23.

[2] – ج. أو. هابنسترايت رحلته إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ / 1732 م) . ص 37.

[3] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 108.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

بعد القضاء تطرّق الرّحّالة نفسه إلى نشاط آخر في المدينة تدور أحداثه داخل أسواقها وأنواع المعروضات فيها، فقد كانت الأسواق فقيرة لا تشبه أسواق بغداد، أو طهران، تبعا للوضع الّذي تعيشه الجزائر العاصمة، فالتّجارة أيّام الاحتلال الفرنسيّ لم تكن رائجة، ولا مربحة فيصفها الرّحّالة الألماني "**فاغنر**" قائلا:" كانت الأسواق عبارة عن دور تشبه الدّور العربيّة مع فارق واحد وهو أنّ جانبي الفناء يحتويان على حجرات، الواحدة منها منفصلة عن الأخرى ولكلّ سوق طابقان، أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة."[1]

وعن سلعها المعروضة للبيع يقول:" بضائعها على العموم من الصّناعات المطرّزة بالذّهب مثل الخفاف، والمحافظ، وأدوات الزّينة الخاصّة بالأسلحة وغيرها، وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة الخضراء، ويغطّيها طلاء ذهبيّ كثيف، تبهر العين بفخامتها أكثر ممّا تبهره بجمالها."[2]

أمّا بقيّة البضائع، فيقول:" تكون في أغلب الأحيان من الرّوائح، والعطور المستخرجة من الورد والياسمين، ومن المصنوعات القطنيّة المحلّيّة."[3]

وإن كان الرّحّالة أفرط في وصف تلك الأسواق، ونوع السّلع المعروضة للبيع، وبعد أن أعجب بموقع العاصمة الجغرافيّ، وتنوّع تضاريسها، وجمال طبيعتها الخلّاب، والجذّاب، إلاّ أنّنا نجده في موقع سخريّة من أحوال المجتمع الجزائريّ الاجتماعيّة بصفة عامّة، والمجتمع العاصميّ بصفة خاصّة، فتلك الأسواق لا ترقى إلى مستوى الأسواق الأوروبيّة، ولا تشبهها في ضخامتها، وشساعتها، وتلك المعروضات للبيع لا يمكنها أن تصل إلى منزلة السّلع الأوروبيّة، وحتّى تلك المنسوجات الّتي يبرع أصحابها في إتقانها، وغزل خيوطها من الصّبر حتّى تظهر براقّة لماعة لم تنل إعجاب الرّحّالة، ولم تبهره بجمالها، وتفنّن أيدي صنّاعها، فقال:" توجد في الجزائر أسواق لا تشبه تلك الأسواق الضّخمة الّتي

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 110 . 111.

[1] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

كانت موجودة قديما في بغداد، أو طهران...إن أسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن حتّى بأسواق أزمير أو القسطنطينيّة . فأسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الأسواق."[1]

وعن سلعها يقول ساخرا:"باعتبارها مصنوعات يدويّة لا تضاهي طبعا المنسوجات الأوروبيّة الآلية في جمالها، ولا في أسعارها."[2]

ويلتفت الرّحّالة إلى جانب آخر من الحياة الاجتماعيّة لسكّان المدينة . العاصمة . وهو تلك التّقاليد المتّبعة في شهر رمضان، والّتي بدونها لا يسمّى شهر رمضان، وبها يعرف، فالكلّ يتّبعها، ويطبّقها بحذافيرها، بداية من ليلة الإعلان عنه، إلى أنواع الأطعمة المقدّمة خلال الشّهر الفضيل، إلى إقامة صلاة التّراويح، وهكذا الأمر من بداية الشّهر إلى آخر ليلة فيه، إلى يوم الاحتفال بعيد الفطر المبارك فيقول:" إنّ الإعلان عن بدء شهر الصّيام يتمّ بإطلاق مائة طلقة من مدفع كبير أقيم في الميناء... وبعد هذه الطّلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد، ويرفع العلم الأبيض."[3]

وتدرجا مع أيّام شهر رمضان تعدّ النّسوة أطعمة مختلفة لموعد الإفطار، وشتّى أنواع المأكولات فيصفها الرّحّالة قائلا:" طعام الصّائمين في اللّيل الكسكسى بالزّيت، ويضاف إليه اللّحم المقليّ والفواكه."[4]

ثمّ ينتقل الرّحّالة إلى وصف صلاة الجماعة لأنّه كان يحضرها في هذا الشّهر، فيقول:" في أيام رمضان تضاء عدّة مصابيح بالجامع الكبير، ويؤمّ النّاس شيخ الإسلام." [5]ويسترسل في حديثه:"

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر عي مؤلفات الرحالين الألمان ص110.
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه . ص 114.
[4] . المرجع نفسه . ص 116.
[5] . المرجع نفسه . ص 115.

فالمسلم الفخور، المعتزّ بنفسه ينحني أمام ربّه بخشوع العبد المذنب المرتعد، فالمسلمون يصطفّون خلف الإمام دون أن يقيموا وزنا للأصل، والنّسب."[1]

يبدو أنّ الرّحّالة تأثّر بالمشهد المهيب، فالكلّ في انتظام، والكلّ في خشوع من بداية الشّهر وإن كان الخشوع لا يقتصر على الشّهر الكريم، وإنّما هو واجب في كلّ صلاة سائر الشّهور، ويبدو أنّه كان يحضرها في كلّ ليلة، ويحضر كلّ صلاة جماعة، ربّما دفعه الفضول، والرّغبة في معرفة تفاصيلها وما يقوم به الشّعب الجزائريّ في شهر رمضان، وما هي الخطوات المتّبعة حتّى يكون الصّيام مقبولا عند الله عزّ وجلّ، دون تفريق بينه وبين صفوف المسلمين، لأنّ الجزائر في تلك الفترة كانت تجمع الأجناس الكثيرة فهذا العربيّ، وهذا الغربيّ، المهمّ في الأمر أنّ الدّين الوحيد الّذي يجمع بينهم هو الإسلام.

وتماشيا والحياة الاجتماعيّة، فلابدّ أن يكون بعد شهر رمضان، عيد الفطر المبارك، والّذي يبدو أنّ الرّحّالة نفسه حضر بعد ختام الأيّام الثّلاثين من الصّيام، وحان موعد الإفطار في يوم العيد السّعيد، وهو عيد البهجة والمغفرة، وقد وصفه قائلا:" يستسلم فيه المسلم إلى مسرّاته حتّى في أوقات النّهار، فيستيقظ النّاس في الصّباح على أنغام الموسيقى الصّاخبة الّتي يعزفها السّود، وهم يرتدون أجمل الثّيّاب، وبأيديهم الطّنابير، والصّفائح الحديديّة، وموسيقاهم ذات إيقاع همجيّ، طالبين ثمنا لذلك وهؤلاء يوقظون الدّاي من نومه صبيحة العيد."[2]

هذا عن الزّنوج السّود، وثيابهم وموسيقاهم، أمّا عن الأهالي فيروي الرّحّالة قائلا:" يرتدي الأهالي في أيّام العيد الثّلاثة أجمل ما لديهم من ألبسة، وخاصة الأطفال الّذين يرتدون في هذه الأيّام

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 125.
[2] . المرجع نفسه . ص 118.

الثّيّاب المطرّزة بالذّهب، والفضّة، والسّراويل المصنوعة من الصّوف، والقطن، ممّا يجعل منظرهم في منتهى الرّوعة."[1]

إنّ الملاحظ على الرّحّالة أنّه اشمأزت نفسه عند رؤيته لمنظر الزّنوج السّود الّذين يعزفون الموسيقى صبيحة يوم عيد الفطر، وسخر منها ونعتها بالصّاخبة الهمجيّة، وقال عنهم مظهرهم غريب يستعصي الوصف، فأكّد قائلا:" لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليهم دون أن يضحك."[2]

أمّا منظر الأهالي فقد راقه، ونال إعجابه فشتّان بين قوم سود يعزفون موسيقى همجيّة، تحدث فوضى في الصّباح الباكر، وبين منظر طفولة بريئة تنعم بالحيويّة، والنّشاط وسط أهاليهم يلبسون الثّيّاب البيض، ويتوجّهون نحو المساجد لتأديّة صلاة العيد.

وحتّى لا أطيل في الحديث عن مدينة الجزائر العاصمة، وحتّى لا يكون الكلام مملاّ في رصد ما رواه هؤلاء الرّحّالة عنها أكتفي بهذا القدر. وإن كانوا كثيرين وجهتهم هذه المدينة، وسواء طالت إقامتهم فيها، أو قصرت، فلكلّ مجاله، ولكلّ وجهته، ولكلّ دوافعه، وأسبابه الّتي من أجلها غادر وطنه . بلاد الغرب . قاصدا الجزائر، وبالضبط عاصمتها، سواء لينعم بمناظرها الخلاّبة، ويتمتّع بمشاهدها الطّبيعيّة الّتي قلّما تجد لها مثيلا في بلد آخر، وسواء ليكتشف ويعيش مع أهلها حيثيات وأحوال حياتهم الاجتماعيّة، أو الدّينيّة، ولاسيّما هذه الأخيرة، وبالتّأكيد يكونون غرباء عنها، يمكن أن يشاهدها الرّحّالة لأوّل مرّة فيندمج فيها بدافع الفضول، والرّغبة الملحّة لمعرفة ما يجهله عنها، كما قال أحدهم تلك الصّلاة الغامضة.

[1] . أبو العيد دودو . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . ص 118.

[2] . المرجع نفسه. ص نفسها.

المبحث الثّالث :صورة تلمسان في عيون الرّحّالة

مدينة أخرى كانت ضمن خطّ سير رحلتي، ومحطّتي الأخيرة، أردت أن أعرف كيف صوّرها الرّحّالة وهل كانوا كثرا اتّخذوها وجهة لهم، وأقاموا فيها، وشاهدوا كلّ ما فيها، وصوّروه، ووصفوه فأخرجوا لنا مولودا جديدا في فنّ أدب الرّحلة، سمّوه تلمسان كما يراها الرّحّالة، وأوّل ما أبدأ به عن هذه المدينة تاريخها، وأسماؤها، وجغرافيّتها.

3-1 تاريخها، وأسماؤها، وجغرافيّتها

إنّ تلمسان مدينة العلم، ومهد الحضارة، والفنون كلّها، مدينة تلمسان، هذه التّحفة الفنيّة الجوهرة النّاذرة، جوهرة الغرب الجزائريّ، الّتي تعدّدت ألقابها، و أسماؤها نتيجة تعاقب الحضارات عليها وتوافد الأقوام إليها، فقد أطلق عليها الرّومان اسم" **بوماريا**" وتعني البستان، وسمّيت" **أغادير**"، وتعني الجدار القديم، أو المدينة المحصّنة."[1]

ثمّ سمّيت " تلمسان " وهو اسم مركّب من كلمتين(تلمّ) و(سان)، وقد جاء في نفح الطّيب للمقري أنّ معنى كلمة (تلمّ) هي تجمع أمّا (سان) فمعناها اثنان أي الصّحراء و التّلّ." [2]، كما يذكر أنّ اسمها مركّب من(تلمّ) و(شان)وعنى ذلك أنّ المدينة ذات شأن عظيم."[3]

وقد أطلق عليها المرابطون في القرن الخامس هجري اسم " **تاقرارت**" ومعناها معسكر، وهم من أنشئوا مدينة تلمسان، ومسجدها الجامع في أثناء حصارهم لها."[4]

[1] . محمد بن عمرو الطّمار . تلمسان عبر العصور . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1984 . ص 08

[2] . المقري . نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الأبحاث بدعم من وزارة الثقافة ج 9 2008 . ص 24.

[3] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

[4] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . منشورات بونة للأبحاث . عنابة . الجزائر 2011 . ص 21.

كما أطلق عليها اسم " **المنصورة**"، أو تلمسان الجديدة، بناها المرينيّون من أهل فاس، وشيّدوا مسجدا جامعا، وقصرا وحصنا مسوّرا."[1]

هكذا تعدّدت الأسماء، والألقاب، والبلد واحد ـ تلمسان ـ تلك العروس الّتي تزيّنت لتشرّف القطر الجزائريّ، وحتّى يحلم الكثيرون بزيارتها، وهذه دلالة على مكانة تلمسان العلميّة ذات الفكر والأدب، فهي عريقة عراقة غوصها في أعماق التّاريخ، وهي قديمة قدم الإنسان نفسه، ولذلك توافدت على الجزائر أقوام مختلفة الأنساب،والأعراق، واللّسان، مسلمة وغير ذلك، وحطّت الرّحال بمدينة تلمسان، فكانت الأسماء الّتي أطلقوها عليها دلالة على تواجدهم بها، إمّا بالنّسبة لأشجارها وينابيعها الّتي تسحر الألباب، وإمّا بالنّسبة لحصنها المنيع، وأحجارها القديمة المحيطة بها، وإمّا لموقعها الجغرافيّ الّذي جعلها تتوسّط المغرب العربيّ، وإمّا باعتبارها نقطة فاصلة بين التّلّ، والصّحراء، وإمّا بالنّسبة لشأنها العظيم وقيمتها الرّفيعة بين مختلف البلدان، وإمّا لأنّها مكان تجمّع العلماء، والأدباء ومكان اللّقاءات، والنّدوات، والملتقيات للتّحاور، والتّشاور في أمور تهمّ الفرد، والمجتمع لكونها معسكرا مخصّصا للاجتماع.

الملاحظ أنّها كانت حضارات قديمة توافدت إلى مدينة تلمسان ليأتي دور المسلمين الفاتحين الوافدين إليها من المشرق العربيّ، مهد الدّين الإسلاميّ ، أين ولد وترعرع وآن له أن يتخطّى الحدود تلك ليشمل كلّ البقاع، بما في ذلك بلاد الغرب، وكان أوّل الفاتحين لبلاد المغرب ـ الغرب الإسلاميّ ـ عقبة بن نافع، والدّليل على ذلك ضريحه الكائن بمدينة الزّيبان ـ بسكرة ـ بالشرق الجنوبيّ
وتلمسان هذه الأرض الطّيّبة، طيبة أهلها، الكريمة كرم سكّانها، هذا البلد الواقع شمال القارة الإفريقيّة ذات الموقع الاستراتيجي الهامّ، المطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، حيث تعتبر عقد الشّمال الإفريقيّ والدّرة الوهّاجة في تاجه الثّمين."[2]

[1] . سعد بوفلاقة ـ أوراق تلمسانية ـ ص 22.

[2] . أحمد توفيق المدني ـ هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر ـ دار البصائر ـ الجزائر 2009 ـ ص 216.

وإن كانت الجزائر تلك الدّرة الوهّاجة المتلألئة اللّمّاعة في ذلك التّاج الّذي يعلو رأس القارّة الإفريقيّة السّمراء، فكيف لا يعجب بها من رآها، ويتمنّى لو يصل إليها، ويلمسها ولو بيده، ويمتّع ناظريه بلمعانها، وما إن يصل إليها، حتّى ينطلق لسانه واصفا إيّاها، سابحا خياله في سماء الإبداع ليصوّر بقلمه ما أحسّ به قلبه، وما جاشت به عواطفه، ليخرج لنا مولودا جديدا في فنّ الرّحلة في ربوع الوطن الجزائريّ، وعلى الأخصّ مدينة تلمسان، وعلى هذا الأساس كانت قبلة الكثيرين من الرّحّالة العرب والأجانب ، افتتنوا بسحر الطّبيعة فيها، وجمال البنيان، والعمران، فراحوا يصفون ويصوّرون، بعد أن يتأمّلون مناظرها الخلّابة المتكوّنة من جبال شاهقة في السّماء المكلّلة بالثّلوج النّاصعة البياض، فتبدو تلمسان وكأنّها عروس لبست ثوب زفافها الأبيض لتتصدّر وسط المدن المجاورة لها والمحيطة بها، وعن ذلك يقول توفيق المدني:" فيها من المناظر الطّبيعيّة البديعة ما يسبي العقول ويذهل الأبصار كجبال جرجرة والأوراس والونشريس وتلمسان."[1]

حقّا إنّها مناظر رائعة تستحقّ الوصف، والتّصوير بعد الإعجاب، والاندهاش، فدون شعور ينطلق القلم مدوّنا ما أحسّه القلب، والمشاعر ليترجم ذلك على صفحات كتابات تسمّى أدب الرّحلة، حتّى ولو كان الواقف المتأمّل جمال تلمسان إنسان عاديّ لا علاقة له بفنّ الأدب، فكيف يكون الأمر إن كان هذا الواقف أديبا دفعته الملكة الأدبيّة، والعبارات المعبّرة عن سحر الطّبيعة، وجمال المناظر.

ليس هذا فحسب، بل تحفل تلمسان إضافة إلى الطّبيعة الطّبيعيّة بالطّبيعة المصنوعة، ويشهد على ذلك تلك البنايات المشيّدة لعصور قديمة توالت عليها، فتركها أهلها تشهد على تواجدهم بالمنطقة.

[1] . أحمد توفيق المدني . هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر . ص 218.

وكمثال على ذلك تلك الأسوار المحيطة بالمدينة ذات الارتفاع العالي نحو السّماء، فعندما أسّس المرابطون متاجرهم أحاطوها بأسوار شاهقة كما هو الحال بالنّسبة لأغادير، وحين قامت الزّيانيّة اهتمّ سلاطينها بتصويرها، ومن هؤلاء يغمراسن.[1]

ولعلّ هذه الأسوار وارتفاعها وعظمتها وحسن تشييدها بحيث تشكّل حصنا منيعا يحدّ من بطش العدوّ إذا ما داهم المدينة، جعل الكثيرين ممّن زارها من أمثال العبد ر ي يقول عنها:"بأنّ أسوارها من أوثق الأسوار، إذ هناك سور يفصل بين مدينة أغادير في الجنوب، وتاجرارت في الشّمال وإنّ سورها من أوثق الأسوار وأصحّها."[2]

إلاّ أنّ الأسوار هدّمت خلال عهد السّلطان المريني على المدينة، والاستيلاء عليها، أدّى إلى قتل سلطانها أبو تاشفين الأوّل، وهو يدافع عنها رفقة أبنائها.[3]

ثمّ أعيد بناء السّور من جديد في القرن التّاسع هجري، الخامس عشر ميلادي بعد أن بني بعد مقتل سلطانها جدار يتكوّن من ستّة حصون بعضها في اتّجاه الغرب، والبعض الآخر في اتّجاه الشّرق.[4]

ووصفها اليعقوبي بقوله:" مدينة عظمى مشهورة بالمغرب، يقال لها تلمسان، وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر من حجارة." [5]

كما تشتهر تلمسان بعديد الأبواب موجودة منذ القدم، ولا تزال إلى حدّ الآن، قيل عنها سبعة وقيل عنها خمسة، وكما جاء في تعداد البكري:" تلمسان مسوّرة في سفح جبل شجرة الجوز، ولها

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج4 . مدن الغرب . دار الحكمة . الجزائر 2007 . ص 07.

[2] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 4 . مدن الغرب . ص 7- عن رسالته . الدولة الزيانية من الاضمحلال إلى السقوط . رسالة دكتوراه الدولة . جامعة الجزائر 2000 . ص 203.

[3] . ينظر المرجع السابق . ص 107.

[4] . ينظر المرجع السابق . ص 108.

[5] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . ص 98.

خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة، باب الحمّام، وباب وهب، وباب الخوجة، وفي الشّرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرّة."[1]

أمّا يحي بن خلدون فقد ذكرها على النّحو التّالي، ثلاثة قبليّة، باب الجياد، وشرقا باب العقبة وشمالا باب سيدي الحلوي، وباب القرمدين، وغربا باب كشوطة."[2]

وثاني معلم تتميز به مدينة تلمسان، قلعة المشور، أو القصبة الّتي تقع بالجهة الجنوبيّة من المدينة ولها شكل مستطيل يبلغ طوله 490م، وعرضه 280م، وهو عبارة عن قلعة محصّنة، وكانت المقرّ الرّئيسيّ لإقامة سلاطين الدّولة، وله بابان.

وقد تعرّض **الحسن الوزّان** لوصف المشور:" يقع القصر المالكي جنوب المدينة، وتحيط به أسوار غاية في الارتفاع على غرار القلاع، وهو يحتوي على قصور إحدى حدائقها وكلّها متقنة البناء جدّا مع هندسة رائعة، ولهذا القصر بابان، الأوّل يفتح على الباديّة، والثّاني نحو المدينة حيث يقيم قائد الحرس."[3]

يتّضح من المقتطف، أو من قول **الحسن الوزان** أنّ الاهتمام بالنّشاط العمرانيّ في مدينة تلمسان كان منذ القديم، فإلى جانب قلعة المشور شيّد أهلها قصورا أخرى، وعمروها بالحدائق والبساتين فهي بلا شكّ تبدو للنّاظر في غاية الأبهة والجمال، فقد كان عمرانها يتزايد، فيعطي المدينة مظهرا لا مثيل له، ففيه العمران، والبنيان، والصّروح، والقلاع، والحصون تتخلّلها الأشجار المورقة ذات الثّمار الوارفة، والورود الفواحة، بينها سواقي المياه تطرب بخريرها الجالس بقربها، حتّى قال عن ذلك ابن خلدون:" لم يزل عمرانها يتزايد، وخطّتها تتّسع، والصّروح بها بالآجر، والقرميد تعلو وتشيّد

[1] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . ص 100.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها . ص 08.

[3] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 4 . مدن الغرب . ص 9 . ص 09 . عن الحسن الوزان . وصف إفريقية.

إلى أن نزلها بنو زيّان واتّخذوها درا لملكهم، وكرسيّا لسلطانهم، فاختطّوا بها القصور المؤنّقة، والمنازل الحافلة واغتر سوا الرّياض، والبساتين، وأجروا خلالها المياه، وأصبحت أعظم أمصار المغرب."[1]

ليس هذا فحسب، فهناك بالمدينة بنايات أخرى هي الحمّامات الّتي كان لها الصّدى الكبير في الوسط الاجتماعيّ، وتعدّ إحدى المرافق العامّة الّتي تكتظّ بالسّكّان نظرا لأهميّتها، ومن أهمّها حمّام الصّباغين الموجود بالحيّ الشّماليّ الغربيّ للمدينة، شيّد خلال عهد الدّولة المرابطيّة، يعرف أيضا بحمّام سيدي لحسن ألغماري، وقد أشار الرّحّالة العبد ر ي، لوجود حمّامات أخرى:" بها حمّامات نظيفة أشهرها حمّام العاليّة، قلّ أن يرى له نظير."[2]

لقد أعجب العبد ري بنظافة حمّامات المدينة، فأشاد بها، وأقرّ أنّه لا يمكن أن يوجد مثلها في أيّ منطقة أخرى في العالم، وكما قلنا سابقا أنّ حمّام الصّبّاغين شيّد في عهد الدّولة المرابطيّة، فقد شهدت المدينة عهودا مختلفة مرّت عليها، ولكلّ عهد بصماته، وما يشهد على تواجده بالمدينة فهناك الموحديّة، والزّيانيّة، ولكلّ دولة ما شيّدته، وأهمّ ما تميّزت به هذه الدّول تلك المساجد التي أعطت للمدينة وجها مشرّفا، بتلك الزّخارف المنمّقة، الفريدة من نوعها، وأشهر جامع بتلمسان لعلّه المسجد الأعظم، أقدم مسجد في المدينة، وقد تميّز بوجود صحن في بهوه يستعمل للوضوء قبل الصّلاة وكذلك يصلّون في هذا الصّحن، خاصّة طيلة أيّام الصّيف الجميلة، وفصّلت في التّبليط الّذي يحاذي بيت الصّلاة تقويرة تشير إلى القبلة الّتي يجب أن تتوجّه نحوها تضرع المصلّين.

وقد أسقفت بيت الصّلاة بالقرميد، وفرشت أرضيّتها بالزّرابي، وللجامع أعمدة قويّة، وأقواس في شكل صفيحة حصان تمتدّ من الشّمال إلى الجنوب.[3]

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 4 . مدن الغرب . ص 10 . عن ابن خلدون .كتاب العبر ج7 . ص 163.

[2] . المرجع نفسه . ص 12.

[3] . جورج مارسي . مدن الفن الشهيرة . تلمسان . ترجمة سعيد رحماني . دار النشر التل . الجزائر 2004 . ص 24.

وثاني مسجد بالمدينة مسجد أبي الحسن تمّ تشييده غير بعيد عن المسجد الأعظم بثلاثة بلاطات مغطيّة بهياكل من الأرز تحميها ثلاثة سقوف من قرميد ذات أربعة انحدارات، وثلاثة أقواس حذويّة محمولة من طرف سواري من الجذع الأخضر، وقد كتب على لوحة من المرمر مدموجة في الحائط مقابل الباب سنة إنشائه 696 هـ .[1]

وتبعا لهذه البنايات الضّخمة، وهذه المعالم الأثريّة التّحفة، وهذا العمران الّذي ازدانت به مدينة العلم تلمسان، ولاسيّما المترجم في مساجدها العتيقة، فلا يمكن أن تكون إلاّ معهد تخرّج العديد من الأئمّة العظماء، والعلماء الأجلّاء، والفقهاء الحكماء ومن بينهم:

. المقري: هو محمّد بن محمّد بن أحمد أبي بكر، ولد بتلمسان حوالي 658هـ، نشأ بها ، وتعلّم على يد علمائها، ثم رحل في طلب العلم، ثمّ عاد إلى تلمسان، ومنها انتقل إلى فاس، تخرّج على يديه مجموعة من التّلاميذ كالشّاطبي، وابن الخطيب التّلمساني، وغيرهم، ومن مؤلّفاته:

القواعد الفقهيّة، الحقائق والرّقائق في علم التّصوّف، والتّحف والطّرف، فقد كان المقري عالما جليلا بالرّغم من انشغاله بالقضاء في عهد الدّولة المرينيّة، توفيّ رحمه الله سنة 759 هـ.[2]

ومن العلماء الّذين شغفوا بتلمسان، وانشغلوا بها من أوّل ما خطت قدماهم بها الشّيخ الصّالح القطب أبا مدين شعيب الأنصاري، الّذي ولد باشبيليّة حوالي القرن الثّاني عشر، ثمّ أجاز البحر إلى المغرب، فأخذ العلم بفاس على يد الشّيخ أبي الحسن عليّ، ولبس الخرقة عن الشّيخ أبي عبد الله الدّقّاق.

استوطن ببجاية فاشتهر بها خبره، وغصّ بمكانة يعقوب المنصور بن عبد المؤمن بن عليّ، وأرسل إليه سنة 594 هـ، فشقّ ذلك على تلامذته فقال لهم إنّي لألقاه، ولما بلغ تلمسان أعجبته فمرض

[1] . جورج مارسي . مدن الفن الشهيرة . تلمسان . ترجمة سعيد رحماني . ص 48.

[2] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 4 . مدن الغرب . ص 67.

يومئذ، ومات، ودفن بالعبّاد.[1]

وتروي بعض المراجع أنّ الشيخ أبا مدين شعيب لما أطلّ إلى السّهل الّذي تطلّ عليه تلمسان فرأى على منحدر بالمرتفع البساتين المتناثرة بها قبور ومناسك، فسأل كيف يسمّى هذا المكان الّذي يدعو إلى الرّاحة إنّه "العبّاد" إقامة الورعين المتّقين، فقال:" لا بأس بالنّوم بهذا المكان" ، فاستجيب إلى أمنيّته، ولما توفيّ بالمكان الّذي حلّ به ، حمله رفاقه، والشّعب المتسارع إليه، ودفن "بالعبّاد".[2]

هكذا أصبح ضريح هذا الشّيخ، والعالم الجليل، قطب الأئمّة الكرماء الأتقيّاء حاميّا للمدينة فهو مركز الإشعاع الصّوفي ، الّتي ما ذكرت تلمسان إلّا وذكر هو، فتقريبا أصبحت تلمسان تعرف به منذ أن رقد الشّيخ بأحضانها، يقصده كلّ زائر للمدينة للتّبرك ببركاته.

وقد برزت في تلمسان عدّة علوم، وفنون أشهرها فنّ الأدب بنوعيه النّثر والشّعر، فمن النّثر نجد الرّسائل، ولاسيّما تلك الّتي أرسلت من قبل أمراء الدّولة الزّيانيّة تدلّ على المستوى الأدبيّ الّذي وصلت إليه تلمسان، وكان للأندلسيّين يد في تلك الرّسائل، والدّليل احتواؤها على الخطّ الأندلسيّ عكس الرّسائل الّتي أرسلت من قبل شيوخ القبائل، والّتي احتوت بعض الكلمات العاميّة، وأغلبها كان بالخطّ العربيّ.[3]

أمّا جانب الشّعر فقد تمحورت مواضيعه في المدح ولاسيّما الّتي تتعلّق بالتّصوّف، فعمد الشّعراء إلى مدح كبار المتصوّفة، مثل عبد الرّحمان الثّعالبي، والشّيخ السّنوسيّ، بالإضافة إلى قصائد خصّصت للأذكار، وقواعد اللّغة العربيّة، والفرائض حتّى يسهل على قارئها حفظها.

. علم التّوحيد: وأشهر علمائه محمّد بن يوسف بن عمر شعيب السّنوسيّ فيتعرّض إلى الدّوافع الّتي جعلته يؤلّف في هذا الميدان.

[1] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 4 . مدن الغرب . ص 65.
[2] . جورج مارسي . مدن الفن الشهيرة . تلمسان . ترجمة سعيد رحماني . ص 71.
[3] . مختار حساني . موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج 4 . مدن الغرب . ص 82 .

. علم التّفسير: يتعلّق بتفسير القرآن الكريم، وأشهر المفسّرين بتلمسان أحمد بن عبد الرّحمان الشّهير بابن زاغو المغراوي التّلمساني.

. الفرائض: وأبرزها فرائض ابن التّلمساني.

. العلوم الدّينيّة:

1. الفقه: أبرز من ألّف في هذا الباب أبو العبّاس الونشريسي.

2 . علم الأصول والحديث: وممّن اهتمّوا به أحمد بن محمّد بن يعقوب العسجي، والونشريسي وغيرهما.

3 . علم التّصوّف: ومن أبرز علمائه وطرقه: أحمد زرّوق، ومحمد بن علي الخرّوبي، وطرقه: الشّاذليّة والقادريّة، والعيساويّة.

3 . 2 ما نظمه الشعراء فيها:

ولجمال تلمسان، وقبل أن نرى ما كتب الرّحّالون عنها عربا كانوا أو أجانب، هناك من اهتمّوا بها من جانب آخر، وكانت كتاباتهم فيها شعرا، فكلّ وما رأى، وترجم أحاسيسه بها شعرا، حيث سخّره لتصوير مفاتنها، وأمجادها، فيعكس قيمة تاريخيّة تجعل منها وثيقة هامّة تنبئ عن واقع تلمسان في عصر من عصورها، وإن كان هؤلاء الشّعراء من أبنائها فغالبا ما تكون قصائدهم إبداعا، وتعبيرا عمّا يحسّه هؤلاء تجاه مدينتهم، فهي منبتهم، ومسقط رأسهم، وهم يمدحونها ويمعنون في تصويرها لإبراز محاسنها وفضائلها، ويتشوّقون إلى أرضها، ويحنّون إلى رؤيتها، إن اضطرّتهم الظّروف ليبتعدوا عنها، ومن بينهم "ابن خميس"*[1]الّذي تغنّى بها وهو بعيد عنها فقال:

[1] . *هو محمد بن عمر الحجري أبو عبد الله المعروف بابن خميس، ولد بتلمسان سنة (645هـ / 1247م)، كان شاعرا بارعا، حافظا لأشعار العرب، قال عنه ابن خلدون: " كان لا يجارى في اللغة والشعر".

سَلِ الرِّيحَ إِنْ لَمْ تَسْعَدِ السُّفُنُ أَنْوَاءُ فَعِنْدَ صِبَاهَا مِنْ تِلِمْسَانَ أَبْنَاءُ [1]

وَفِي خَفَقَـــــانِ البَرْقِ مِنْهَا إِشَارَةٌ إِلَيْكَ بِمَا تُنَمِي إِلَيْكَ وَإِيمَـــاءُ

ولابن خميس الشّاعر التّلمساني الصّوفي، كان دائم الحنين والشّوق إليها، تمرّ تلمسان بخياله ويلوح طيفها له كلّما ابتعد عنها، فتراه يناجيها، واصفا جمالها، ومنوّها بمفاتن طبيعتها السّاحرة، ومبديّا حسرته على فراقها، وتأكيدا لذلك قوله:

يَطِيرُ فُؤَادِي كُلَّمَا لاَحَ لاَمِـــعٌ وَيَنْهَلُ دَمْعِي كُلَّمَا نَاحَ صَادِحُ

فَلَمْ لِي عَلَيْهَا مِنْ غُدُوٍّ وَرَوْحَـةٍ تُسَاعِـــدُنِي فِيهَا المنَى وَالمَنَائِحُ

فَطَرْفٌ عَلَى تِلْكَ البَسَاتِينِ سَارِحٌ وَطَرْفٌ إِلَى تِلْكَ المَيَادِينِ جَامِحُ

ظِبَاءٌ مغانيها غُـــواطُ عوَاطِـفٌ وَطَيْـــرٌ مَجَانِيهَا شَوَادُ صَوادِحُ [2]

عَلَى قَرْيَةِ الْعُبَّـــادِ مِنِّي تَحِيَّـةٌ كَمَا فَاحَ مِنْ مِسْكِ اللَّطِيمَةِ فَائِحُ

هذا الوصف لتلمسان من قبل ابنها ابن خميس دليل على أماكنها الجميلة، الّتي تسحر كلّ من رآها، وطبيعتها الخلّابة تذهب بعقل الحكيم، وتردّ عقل المجنون، وتلهب قرائح الشّعراء الغرباء عنها قبل أبنائها، لذلك نجد ابن خميس يجود بأفضل أشعاره ليزيد مدينته جمالا فوق جمالٍ بذلك الوصف لرياضها وجنّاتها، فهو الآن يصف جمال شلّال الوريط * الشّهير بغدرانه الّتي ينصبّ بعضها في بعض، وبحدائقه الزّاهية بعناصرها المختلفة، ومياها وخضر تها، ومناخ ها، وما إلى ذلك من الرّوافد الّتي يستعذبها الشّاعر:

وَجَادَ ثَرَى تَاجُ المعَارِفِ دَيْمَةٌ تَغُصُّ بِهَا تِلْكَ الرُّبَى وَالأَبَاطِحُ

[1] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . ص 38.

[2] - المرجع نفسه . ص41، 42.

*الوريط شلال أو شلالات، وهو منتزه أهل تلمسان، والكلمة قديمة لعلها من الدخيل.

إِلَيْهَا شُعَيْبُ بنُ الحُسَيْنِ قُلُوبُنَـا نوَازِعٌ لَكِنِ الجُسُومُ نَـــوَازِحُ

سَعَيْتُ فمَا قَصَّرْتُ عَنْ نَيْلِ غايةٍ فَسَعْيُكَ مشكورا وَتَرْكُكَ رَابِحُ[1]

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى الْوَرِيطَ وَوَقْفَةُ أَنَافِـــــحٌ فِيهَا رَوْضَةٌ وَأَفَاوِحُ

مُطِلًّا عَلَى ذَاكَ الغَدِيرِ وَقَدْ بَدَتْ لِإِنْسَانِ عَيْنِي مِنْ صَفَاهُ صَفَائِحُ

لا يكاد ابن خميس في حنينه يتجاوز وصف بلاده، ووصف معاناته بسبب مفارقتها ، وهو بذلك يجمع بين الوصفين. الحسّي والنّفسي فقال (من قصيدة بعنوان: لله أيّام بها قضيتها) واصفا مجالس علم كانت تقام في بلاده.

وفي رَوْضَةٍ يُرْضِيكَ مِنْهَا أَنَّهَا مَرْعَى لأَفْكَارِ النُّدَامِ وَمَشْرَعُ

حَتَّى إِذَا حَاكَ الرَّبِيعُ بـُرُودَهَا وَكَسَى رُبَاهَا وَشْيُهَا المتَنوِّعُ

بَدَأَتْ كَمَائِمُ زَهْرِهَا تُبْدِي بِهَا بِدَعًـــا تَفَرَّقُ تَارَةً وَتَجَمَّــعُ

حَيْث ازْدَهَت أَنْوَارُ كُلُّ حَدِيقَة أَدَبًـــا يُنَظَّمُ تَارَةً وَيُسَجَّعُ [2]

فَمُرَجَّل مِـــنْ رَقْمِهَا وَمُهَلَّلٌ وَمُسَمَّطٌ مِنْ نَظْمِـهَا وَمُصَرَّعُ

أَبْدَى البَدِيعُ بِهَا بَدَائِعَ صُنْعِهِ فَمُجَنَّسٌ وَمُبـــدَّلٌ وَمُرَصَّعُ

وَمُـوَشَّحٌ وَمُـرَشَّحٌ وَمُصَدَّرٌ وَمُكَـرَّرٌ وَمُفَـــرَّعٌ وَمُتَبَّــعُ

كُـــلٌّ يَرُوقُ بِهَا بِحُسْنِ روَائِهِ وَإِذَا تُزَيِّنْ بِهِ كَلامَكَ تَبْـــرَعُ

[1] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . ص 41.

[2] . ابن الخطيب محمد بن عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ، ج2، ص382-383.

وهذا حنين ابن خميس يستحيل حنينا إلى أنا الشّباب، وإلى زملاء الدّرس، وإلى المنزل الأوّل وإلى الأماكن التّاريخيّة والدّينيّة والسّياحيّة.

أ – **الحنين إلى أنا الشّباب:** اعتبر بعضهم عاطفة الحنين نوعا من الأنانيّة، يحاول الشّاعر بواسطتها استرجاع مسيرة الزّمن إلى وراء، كالبكاء على مرحلة الشّباب والحنين إليها ، إلّا أن لابن خميس ما يعلّل حنينه إلى عهد الشّباب؛ ذلك أنّه فارق البلد شابّا، والشّباب ربيع العمر، ومرحلة الخصب والقوّة، والنّماء، والغنى بالذّكريّات، قال الشّاعر

وعَهْدي بِهَا والْعُمْرُ فِي عُنْفُوَانِهِ ومَاءُ شَبَابِي لَا أُجَيْنٌ ولَا مَطْخُ

قَرَارَةَ تَهْيَامٍ ومـــغْنَى صَبَابَـــةٍ ومعْهَدَ أُنْسٍ لَا يَلَذُ بِهِ لَطْخُ [1]

تعدّدت معشوقات الشّاعر هنا، فهي تلمسان، وعهد الشّباب، والمغامرات الغراميّة مع الحبيب الأوّل، في الموطن الأوّل، والشّاعر لا يسأل عن صحّة ما يدّعيه، والمتلقي لا يبدو مهتمّا بما إذا كان الشّاعر قد أخبر عن تجربة حقيقيّة له أم خياليّة ، إنّ الشّاعر يشيد بدور مرحلة شبابه عندما كان في تلمسان، حيث الهوى والهواء الطّلق، حيث لم يكن في هذا العمر مباليّا بالرّقابة الاجتماعيّة، الّتي تحول بينه وبين ملذّات الشّباب.

ولعلّنا نستنتج أنّ الشّاعر بالضّرورة قد كتب النّص في خريف العمر في غربته ، ومن هناك كان يرى شبابه منطرحا في تلمسان، بين ريفها وغيدها، ولذلك جاء حنينه مخضبّا بالزّمان عهد الشّباب وبالمكان تلمسان، وبالإنسان الأحبّة.

وإِخْوَانُ صدْقٍ منْ لدَاتِي كَأَنَّهم جَآذِرُ رَمْلٍ لَا عِجَافٌ ولَا بُزْخُ

وُعاةٌ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْهُدَى وعَنْ كُلِّ فَحْشَاءٍ ومُنْكَرَةٍ صُلْخُ

[1] . المقري أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق، مصطفى السقا وآخران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، د ط، 1939، ج2، ص323.

هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ سِيَّانِ فِي الْعُلَا شَبَابُهُمُ الْفُرْعَانُ والشِّيخَةُ السُّلْخُ [1]

مَضَـــوْا ومَضَى ذَاكَ الزَّمَانُ وَأُنْسُهُ ومَرَّ الصِّبَا والْمَالُ والْأَهْلُ وَالْبَذْخُ

والموضوع ذاته أي الحنين والشّوق إلى الدّيار . تلمسان .كان محور قصيدة واحد من الشّعراء الّذين يمتّون لتلمسان بصلة العروبة ، أنشد فيها قصيدة في أثناء حضوره جلسة من جلسات المؤتمر الإسلاميّ المنعقد بها في سنة 1936م، ونشرت في مجلة التّلميذ الّتي كانت تصدر بالجزائر، هو الشّاعر عبد الرّشيد مصطفاي الّذي زار تلمسان عام 1936 م، فقال فيها:

مَا لِي أَحِنّ لَكُمْ شَوْقًا تِلِمْسَانُ كَمَا يَحِنُّ إِلَى الْفِرْدَوْسِ رُهْبَانُ [2]

وَمَا لِقَلْبِي يَهْفُو كُلَّمَـــا طَرَقْتُ أُذُنِي بِذِكْرِكِ وَالْأَشْوَاقُ نِيرَانُ

أمّا شاعر الثّورة الجزائرية مفدي زكرياء، ومبدع النّشيد الوطنيّ "قسّما" لم يفته الأمر، وراح يناجي تلمسان، ويعلي من مكانتها، ويذكر ماضيها المجيد، فيقول في إحدى قصائده الرّائعة:

تِلِمْسَانُ مَهْمَا أَطَلْنَا الطَّوَافَـــا إِلَيْكِ تِلِمْسَـــــــانُ المِطَافَا [3]

يَعْمُرَاسَنُ الشَّهْمُ ضَاقَ اصْطِبَارَا وَغَالَبَ خَمْسِينَ عَامًا عِجَافَا

فَكَانَـتْ تِلِمْسَـــانُ دَارَ سَلامٍ وأَمْرُ الجَزَائِرِ فِيهَـــا ائْتِلاَفَا

فَأَكْرِمْ بِمِشْوَرِهَـــا الوَطَـــنِ يَّ وَزَيَّانُ يَحْسِمُ فِيهِا لِخِلاَفَا

وواحد من رجال، وأبناء الجزائر البررة استهوته مدينة تلمسان، فجعل ينوّه بها في أثناء زيارته لها سنة 1838م، بل ملبيّا نداءها، وهو أمير الجزائر الأمير عبد القادر الجزائريّ فقال:

[1]. المقري أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عيّاض . ص324.

[2] . سعد بوفلّاقة . أوراق تلمسانية . ص 84.

[3] . المرجع نفسه . ص 89.

إِليَّ الصَّوْنُ مَدَّتْ تِلِمْسَانُ يَدَاهَا وَلَبَّتْ فَهَذَا حُسْنُ صَوْتُ نِدَاهَا

وَقَدْ رَفَعَتْ عَنْهَا الإِزَارُ فَلُجْ بِهِوَ بَرِّدْ فُـــؤَادًا مِنْ زُلاَلِ نِدَاهَـــــا [1]

وَذَا رَوْضُ خَدَّيْهَـا تَفَتَّقَ نُـورُهُ فَلاَ تَرْضَ مِنْ زَاهِي الرِّيَاضِ عَدَاهَا

أمّا لسان الدين بن الخطيب، فيتغنّى بمفاتنها وجمال مناظرها وممّا جاء في قصيدته:

حَيَّا تِلِمْسَانُ الحَيَا فَرُبُوعُهَـا صَدَفُ بِجُودِ بَدْرَةِ المِكْنُـــونِ

وَرْدُ النَّسِيمِ لهَاَ بِنَشْرِ حَدِيقَةٍ قَدْ أَزْهَرَتْ أَفْنَانُهَـــا بِفُنُـــونِ [2]

وَإِذَا حَبِيبَةُ أُمِّ يَحْيَ أَنْجَبَـتْ فَلَهَا الشُّفُوفِ عَلىَ عُيُونِ العَيْنِ

إذا كما يلاحظ أنّ الكثير من الشّعراء الّذين تغنّوا بمدينة تلمسان ولم يذكر إلاّ هؤلاء، بل هناك الكثيرون غيرهم لا يتّسع المقام لذكرهم كلّهم، لأنّ المجال غير مخصّص لذلك، وإنّما فهو لؤلئك الرّحّالة الّذين أتيحت لهم الفرصة لزيارة المدينة . تلمسان . بغضّ النّظر عن الدّوافع والأسباب الّتي جعلتهم يقصدونها، فمنهم من أطال إقامته فيها، منهم من كانت إقامته قصيرة ، المهمّ أنّه أتى إليها لتحقيق هدفه، وسنبدأ بالّذين استهواهم جمالها، فكتب عنها يصف مناظرها الطّبيعيّة، وأوّلهم أحد أبنائها الزّعيم مصالي الحاج، فقال:" تظهر لنا المدينة بعيدا متربّعة تربّع الملوك على هضبة قليلة الانحناء وكأنّها تودّ أن تقول لزوّارها بشيء من الدّلال الأنثويّ " سادتي مرحبا بكم".[3]

ويضيق مصالي الحاج:" تبرز للمسافر فجأة بأضوائها السّاطعة، وكأنّها جوهرة تخرج من درجها، إنّ هذه المدينة الّتي أسكرت الشّعراء محاطة بالعديد من العيون وبالكثافة النّباتيّة الّتي تزدان بالأزهار

[1] . مجلة مسالك (تصدر عن مؤسسة الأمير عبد القادر) فيفيري 2012 . عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية . في إطار الملتقى الدولي (عبد القادر عابر للزمن) من 25 فبراير إلى 28 فبراير 2012 بقصر الثقافة . تلمسان.

[2] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . ص 51.

[3] . مصالي الحاج . مذكرات مصالي الحاج 1898م . 1938م . تصدير عبد العزيز بوتفليقة . ترجمة محمد المغراجي . منشورات ANEP ص 11.

والفواكه الّتي تكتسح حدائق الزّيتون." [1] ثمّ يقول:" وفي الجهة الشّرقيّة من تلمسان وصوامعها الكبرى لا يمكن إلاّ أن نرى قريّة صغيرة، قريّة سيدي بومدين حيث دفن وليّ المدينة على ربوة مستندة إلى الغابة."[2]

هي حقّا كما قال ابنها مصالي الحاج مدينة أسكرت العديد من الشّعراء، وذلك بما احتوته من حدائق غنّاء، وجبال شمّاء، ورياض فيحاء، وسهول خضراء، ومعالم أثريّة رائعة بزخارفها الموروثة عن الأجداد، وعاداتها، وتقاليدها الّتي قلّما نجد لها نظير في البلدان المجاورة، ولذلك قلت سابقا تغنّى بها الشّعراء من أبنائها ومن الولايات الجزائريّة الأخرى، بل حتّى من خارج الوطن أي شعراء عرب، وربما قد وصل صيتها إلى الأجانب فتغنّوا بها فمن يدري، فهي مدينة العلم، مدينة الأدب، والفكر، مدينة الفقه والتّفقّه، مدينة الشّعر والشّعراء، وكما أضاف مصالي الحاج:" فهي حقّا جنّة عدن على سطح الأرض."[3]

ولقد توالت على مدينة تلمسان عدّة دويلات، كدولة بني عبد الواد، والمرينيّة، والزّيانيّة وكان زعيمها أبو حمّو موسى الزّيّاني الثّاني المولود بغرناطة سنة 723هـ / 1323م، وهو أبو حمّو يوسف بن عبد الرّحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيّان حين كان والده منفيّا، ثم عاد إلى تلمسان، ونشأ بها أديبا ينظم الشّعر، وشهد أفول دولة بني عبد الوهّاب على يد المرينيّين سنة 737هـ / 1336م فخرجت أسرته إلى ندرومة، واعتزلت النّزاع على الحكم، ثم ارتحلت إلى تونس، إلاّ أنّ قاعدته كانت استرداد ملك آبائه.

كان التّرحال سمة أبي حمّو الزّيّاني، يطلب فيه علما، وفكرا، وأدبا، فتمّ له ذلك، يعرف أحوال المدن الّتي يزورها، ويطلّع إلى طبائع أهلها، فكان خبيرا ببلاد المغرب ومسالكها، وقبائلها، فلما استقرّ له المقام بتونس، وظفر بدعم صاحبها الفحصى، عزم على استرجاع تلمسان عاصمة أجداده، ومرتع

[1] . مصالي الحاج . مذكرات مصالي الحاج 1898م . 1938م . تصدير عبد العزيز بوتفليقة . ص 11 .
[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.
[3] . المرجع نفسه – ص نفسها.

شبابه، ولم يكن أبوه ملكا، بل جدّه يغمراسن، فجمع الجيوش، واستمال القبائل، فبايعه ال ّدواودة وناصروه، وفي ذلك أنشد قائلا:

وَخَضْتُ الفَيَافِي فَدْفَدًا بَعْدَ فَدْفَدٍ لِنَيْلِ العُلَى وَالصَّبْرُ إِذْ ذَاكَ لاَزِمِـــي

وَكَمْ لَيْلَةً بِتْنَا عَلَى الجِدْبِ وَالطَّوَى نُرَاقِبُ نَجْمَ الصُّبْحِ فِي لَيْلٍ عَاتِـــمِ

عَلَى مَتْنِ صُهَالٍ أَغَرُّ مِحْجَـــلٍ مَدِيدِ الخُطَى لَمْ يَخْشَ صَعْبَ الصَّلاَدِمِ

بِهِمَمٍ العُلْيَا سَمَونَا إِلَى العُلَـــى وَكَمْ دُونَ إِدْرَاكِ العُـــلَا مِنْ مَلَاحِمِ

شَدَدْنَا بِهَا أَزْرًا وَشَـــدَنَا بِنَاؤُهَا وَكَمْ مَكَّنَتْ دَهْرًا بِغَيْرِدَعَائِـــمِ[1]

نَظَمْـــنَا شَتِيتَ المِلكِ بَعْدَ افْتِرَاقِهِ وَكَمْ بَاتَ نَهْبًا شَمْلُـــهُ دُونَ نَاظِمِ

وَرَضِنَا جِيَـادَ المِلكِ بَعْدَ جِمَاحِهَا فَذَلَّتْ وَقَدْ كَانَتْ صِعَابُ الشَّكَائِمِ

فتمكّن من دخول تلمسان منتصرا سنة 760هـ / 1359م ليواصل إنشاده فيه قائلا:

دَخَلْتُ تِلِمْسَانَ الِتي كُنْتُ أَرْتَجِي كَمَا ذَكَرْتُ فِي الجَفْرِ أَهْلَ المَلَاحِمِ

فَخَلَّصْتُ مِنْ غُصَّابِهَا دَارَ مُلْكِنَا وَطهَّرْتُهَا مِنْ كُلِّ بَـــاغٍ وَجَارِمِ

لَقَدْ أَسْلَمُوهَا عُنْـــوَةً دُونَ عُدَّةٍ لَقَدْ طَلَّقُوهَـــا بِالقَنَـا وَالصَّوَارِمِ[2]

وهكذا أرسلت له المدن والبوادي بيعتها، إذ كان أكثر أهل المغرب الأوسط موالين للبيت الزّيّاني وقد جعل أبو حمّو من تلمسان منارة بلاد المغرب، فحصّن بناءها، وأكرم أهلها، وجعلها محجّة للعلم والعلماء، وكانت قبلة كلّ من يبتغ علما ليس فقط في المغرب، بل وصل صيتها بلاد الأندلس المهاجرين إلى المغرب.

[1] . محمد حاجيات . أبو حمو موسى الزّيّاني . حياته وآثاره . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط2 . الجزائر 1982 .. ص 86.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

توفي أبو حمّو موسى الزّيّاني سنة 791هـ/1389م بعدما تحالف ابنه أبو تاشفين مع بني مرين ضدّه، وكانت نهاية أكبر رجل من آل زيّان بعد يغمراسن، بعد حياة مليئة بالفروسيّة، والأدب والشّعر والسّياسة، والملاحم، وقد خلّف الكثير من القصائد والمولديّات، ومن آثاره كتاب ضخم قديم يعبّر فيه عن تجربة حياة، ويتجلّى في هذا الكتاب الكثير من علمه الغزير، وأدبه الوفير، وحكمه البليغة ذات التّأثير العميق في نفس من يطّلع عليها، وقد تركه وصيّة لابنه.[1]

وزاد من انتعاش الحركة الثّقافيّة والفكريّة بتلمسان في هذا عصر أبي حمّو موسى الزّيّاني، انتقال كثير من الفنون الأندلسيّة إلى بلاد المغرب عن طريق نزوح مسلمي الأندلس، الّذين اضطرّتهم ظروف الحصار الشّديد إلى الهجرة نحو المغرب الإسلاميّ، فحملوا معهم من العلوم، والمهارات الّتي اكتسبوها هناك. فعلى غرار الأدب والشّعر والموشّحات الّتي تسرّبت من الأندلس إلى المغرب كان لفقهاء الأندلس نصيب وافر من الفتاوى والاجتهادات الفقهيّة، حفظ لنا منها كتاب المعيار لأبي العبّاس الونشريسي مجموعة هامّة من فتاوى فقهاء الأندلس لهذه الفترة، أمثال ابن فتوح الغرناطيّ المتوفّى سنة 867هـ وابن السّرّاج الغرناطيّ المتوفّى سنة 848هـ وأبي عبد اللّه محمّد الحفّار الأنصاريّ الغرناطيّ المتوفّى سنة 811هـ، وأبو عبد اللّه محمّد بن الحدّاد الوادي أشي الّذي استوطن تلمسان وعاش بها يحترف النّسخ وصاهر بني مرزوق، وكان لأبي عبد اللّه محمّد بن الأزرق مؤلّفاته الّتي قال عنها المقري ''تآليف عظيمة وقفت عليها بتلمسان''. وممّن دخل تلمسان في هذه الفترة أبو الحسن القلصادي صاحب الرّحلة الشّهيرة– الّتي حقّقها وقدّم لها فأحسن الدّكتور مشنان– قادما إليها من غرناطة ''وكان يعقد حلقات التّدريس ويتولّى الإقراء فيحضر جمّ غفير من الطّلبة للقراءة عليه والاستفادة منه، وكان يدرس بعض الكتب الّتي صنّفها بنفسه، ودامت مدّة إقامته بها ثمان سنوات وسبعة أشهر.

وأدّى تزاحم النّشاط العلمي والفكري الممتدّ من المساجد ، والمدارس والزوايا بتلمسان، خلال القرن الهجري التّاسع، إلى بروز تيّارات ثقافيّة ، وفكريّة كان لها أثرها الظّاهر أشهرها: تيّار الاجتهاد الفقهيّ وتيّار التّصوّف السّنيّ الّذي أسّس له أبو مدين شعيب الإشبيلي[2].

[1]. محمد حاجيات . أبو حمو موسى الزّيّاني . حياته وآثاره . ص 86.

[2]. موقع الكتروني : salahbrahim72@yahoo.com

صورة تلمسان في عيون الرحالة العرب:

استوقفت تلمسان العديد من الرّحّالة العرب الّذين مرّوا بها، واعتبروها نقطة عبورهم إلى جهات أخرى، نظرا لموقعها، وجمال منظرها وبهائه، فما كان عليهم إلاّ أن خصّصوا لها مكانا ضمن كتاباتهم إمّا بوصف ما وقعت عليه أعينهم، وإمّا لتحديد وجهة نظر، ولتحقيق غاية أو هدف معيّن، فعلى سبل المثال القلصادي خصّص جزءا من رحلته لأولئك العلماء الأجلّاء، والشّيوخ الّذي أخذ العلم على أيديهم طيلة مدّة إقامته فيها، حيث اعترف، وأقرّ بفضلهم عليه، وكيف أنّه اكتسب من ورائهم تجارة مربحة جدّا لا يمكنها أن تكسد أبدا، وأنّ ما حصل عليه من معارف من خلال الجلوس إلى مجالسهم، وحضوره ندواتهم، ودروسهم هو تحصيل مشرّف لا ينفذ حيث قال عن ذلك: " فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان."[1]

ومن هؤلاء العلماء، والشّيوخ:" محمّد بن مرزوق ، عيسى الرّتيمي، محمّد الشّريف، أحمد بن زاغو محمّد بن النّجّار، وغيرهم."[2]

إلاّ أنّ القلصادي لم ينس الاعتراف بجمال مدينة تلمسان لتنوّع أشجارها، وكثرة حدائقها وأنهارها فقال عنها:" تلمسان يا لها من شأن، ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الدّافقة، والرّياض الرّائقة والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة."[3]

يبدو أنّ الرحالة بعد أن نال مراده من العلم، والتّحصيل المعرفيّ، تنبّه إلى أنّ هذه العلوم المتحصّل عليها إنّما تنبتها تلك الأرض الطّيّبة . تلمسان . الّتي أحاطته بفيض من النّضارة والرّاحة الجسميّة والفكريّة.

---

[1] . القلصادي . رحلة القلصادي . دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان . الشركة التونسية للتوزيع . تونس 1978 . ص 94.

[2] . المرجع نفسه . ص 95.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

والموضوع نفسه يؤكّده الرّحّالة أبو الفدا، والإعجاب ذاته يوثّق عليه في تعبيره عن مدينة تلمسان، حيث وصفها من جميع النّواحي، فقال عنها:" تلمسان مدينة مسوّرة مشهورة في سفح جبل، ولها ثلاثة عشر بابا، وماؤها مجلوب من عين على ستّة أميال منها، وفي خارجها أنهار وأشجار، ويستدير النّهر بقبليها وشرقيها، يدخل فيه السّفن اللّطاف حيث يصبّ في البحر، وبقعتها شريفة كثيرة المرافق، وهي قاعدة مملكة، ولها حصون كثيرة."[1]

لقد جمع أبو الفدا بين أركان تلمسان كلّها، ولم يترك ما يصفه غيره من الرّحّالة تاريخها وجغرافيّتها، وطبيعتها، ومرافقها العامّة، أمّا الادريسي فقد عمد إلى وصف تلمسان من النّاحية التّاريخيّة حيث يقول:" وتلمسان أزليّة، ولها سور حصين، ومتقن الوثاقة، وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور، ولها نهر يأتيها من جبلها المسمّى الصّخرتين، ويلي هذا الجبل حصن بناه المصمودي."[2]

ويضيف الادريسي وصف خيرات تلمسان من مزارع، وفواكه، فيقول:" يمرّ وادي في شرقي المدينة، وعليه أرجاء كثيرة، وما جاورها من المزارع كلّها، سقي، وغلّاتها، ومزارعها كثيرة، وفواكهها حميّة، وخيراتها شاملة، ولحومها شحيمة سمينة، وبالجملة إنّها حسنة لخص أسعارها، ونفاق أثقالها ومرابح تجارتها."[3]

إن كانت هذه الخيرات موجودة بمدينة صغيرة فتيّة كتلمسان ،فلابدّ أنّ فيها عمّالا نشيطين يخدمونها بكلّ حب ووفاء وإخلاص حتّى تستطيع هكذا أن تستهوي كلّ زائر لها، وحتّى تفتقد الكلمات للتّعبير عن الإعجاب بها، وتصبح العبارات لا تتّسع محتوياتها، فيتسابق الرّحّالة إلى الوصف بأسمى العبارات، وربّما عجز لسانهم على أن يوفيها حقّها، وتكون في مستوى بهائها وجمالها.

[1] . نقولا زيادة . الجغرافيا والرحلات عند العرب . دار الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت 1980 . ص 70.

[2] . الادريسي . نزهة المشتاق . ص 106.

[3] . المرجع نفسه . ص نفسها.

وهذا صاحب جغرافيا قال عنها:" دار ملك قديمة البناء، طيّبة الهواء، كثيرة الفواكه، والزّرع، ذات عيون غزيرة، وأعمال متعدّدة، باردة المشتى لكثرة ثلجها، وأهلها موسومون بالخير."[1]

أمّ يحي بن خلدون فيقول عنها واصفا:" مدينة عريقة في التّمدّن، لدنة الهوا، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت سفح الجبل، ودين رأسه بسيطها أطول من شرق إلى غرب، عروسا فوق منصّة والمشاريخ مشرقة عليها إشراق التّاج على الجبين تطلمنّه على فحص أفيح معدّ للفلح، تشقّ ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهاري، وتبقر عن بطونه عند تدميث بطون العداوي."[2]

ويضيف قائلا:" بها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصّروح الشّاهقة والبساتين الرّائقة، ممّا زخرفت عروشه، ونمّقت غروسه، ونوسبت أطواله وعروضه، فأزرى بالخور ن ق وأحصل الرّصافة، وعبث بالسّدير."[3]

ووصفها ابن حوقل قائلا:" هي مدينة أزليّة، ولها أنهار جاريّة، وأريحة عليها فواكه، ولها سور من آجرّ حصين منيع، وزرعها سقي، وغلّاتها عظيمة، ومزارعها كثيرة."[4]

ليس هذا فقط عن تلمسان، وهي ليس فقط مناظر طبيعيّة، وطبيعة خلّابة جذّابة، وأرض تاريخ تشهد عليها تلك الأسوار الحصينة، والأبواب الموصدة في وجه العدوّ، وليس فقط وديان وأنهار، ومياه جاريّة، وأشجار، وحدائق، وبساتين، ورياض، بل هي أيضا دار العلم، دار الأدب، دار الفكر والمعارف كلّها، بيوت الرّحمان المشيّدة البنيان، والعمران، ولم يفت ذلك هؤلاء الرّحّالة، ولم يغب عن أذهانهم، ولم يغفلوا عنه في كتاباتهم الرّحلية، فقال عن ذلك ابن خلدون:" هي الآن أكبر، وأشهر من الأوّل، والجامع الأعظم، وقصور الملك، ونفيس العقار بها، والنّاس إليها أميل، وبها أشدّ عناية، ويعمر

[1] . يحي بوعزيز . مدينة تلمسان . عاصمة المغرب الأوسط . دار الغرب للنشر والتوزيع . الجزائر 2003 . ص 29.

[2] . أبو زكرياء يحي بن خلدون . بغية الرواد في ذكر الملزك من بني عبد الواد ج1 . تقديم وتحقيق د / عبد الحميد حاجيات . الجزائر 1980 . ص85.

[3] . المرجع نفسه . ص 92.

[4] . سعد بوفلاقة . أوراق تلمسانية . ص 99.

كلتيها ناس أخيار أولوا حياء ووفاء بالعهد وعفاف، ودين واقتصاد في المعاش واللّباس والسّكن على هدى السّلف الصّالح رضي الله عنه غالب تكسبهم الفلاحة، وحوك الصّوف."[1]

زاد ابن خلدون عن سابقيه الّذين أعجبوا ببهاء تلمسان ورونقها، وصفّ الأهالي، وقال عنهم هم رجال الوفاء والعفاف، يأكلون ممّا يزرعون، ويلبسون ممّا يحيكون، وينسجون.

كما أضاف في وصفهم: " هم معدن العلماء، والأعلام، والأولياء المشاهير نجابة في الدّرس والعبادة، تشهد بذلك المزارات المحبوبة من الأقطار النّائيّة خارج بلدهم، فالأخبار المتواترة على لدن الخاصّ، والعامّ."[2]

وعن تلك المزارات، أو الأضرحة والأوليّاء الصّالحين، والّتي قصّر ابن بطّوطة رحلته إلى تلمسان من أجلها، وفي المرّتين الّتي قام بهما باتّجاه المدينة، فيقول:" ...ثمّ خرجنا عنها، فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس، ثم إلى مازونة، ثم إلى مستغانم، ثمّ إلى تلمسان فقصدت العبّاد، وزرت الشّيخ أبا مدين رضي الله عنه، ونفّع به." [3] ثمّ عاد إليها مرّة أخرى، وكان ذلك سنة خمسين وسبعمائة للهجرة، ولم يكن إلّا مكرّرا زيارة وليّ تلمسان من جديد وقال عنه:" ولما وصلنا إلى تلمسان فقصدت العبّاد وزرت الشّيخ أبا مدين رضي الله عنه، ونفّع به..."[4]

[1] . يحي بوعزيز . مدينة تلمسان عاصمة الغرب الأوسط . ص 29.

[2] . المرجع نفسه . ص 30.

[3] . ابن بطوطة . رحلته . تحقيق محمد المنتصر الكتاني ج1 . ص 756.

[4] . المرجع نفسه . ص نفسها.

صورتها عند الرحالة الأجانب:

لم يكن الاهتمام بمدينة تلمسان من قبل الرّحّالة الأجانب أكيدا مثلما اهتمّ بها الرّحّالة العرب اللّهم إلاّ ذلك الرّحّالة الألمانيّ **هايزيش فون مالتسان** لأنّ رحلته بلغت الثّلاث سنوات شمال غربي إفريقيّا، إذن كان لابد أن كون تلمسان ضمن خط سير رحلته.

وقد أعادنا هذا الرّحّالة إلى تلك الأسماء والألقاب الّتي تحدّثنا عنها سابقا، والّتي أطلقت عليها من قبل أولئك الأقوام الّتي توافدت إليها، واستوطنت بها فتركت بصماتها في المدينة تشهد على تواجدها بها، فمنها بوماربة، وتاجرارت وغيرها، إلاّ أنّه أضاف اسما آخر وهو أنّ تلمسان كلمة "تعني الهدف بلغة الشّلحة."[1]

ثمّ عرّج الرّحّالة على أولئك الزّعماء والمؤسّسين لمدينة تلمسان بعد أن كانت للرّومان والفينيقيّين والوندال، وقال عنها الرّحّالة أنّها لم تصبح مدينة عظيمة ومهمّة إلاّ في العصر الوسيط وكانت في بدايته تسمّى جدّة، ويدّعي العرب أنّ يوسف بن تاشفين أوّل ملوك المرابطين هو من أطلق عليها اسم تلمسان، وجعلها هدفا لحملاته، ولذلك قيل إنّها تعني الهدف، ينتقل الرّحّالة إلى قصورها الّتي بنيت على نمط قصور الحمراء بغرناطة، فقال:" كانت زاويّة تلمسان تفوق في أهميّتها، وفخامتها وغزارة علم مدرّسيها كلّ مراكز التّعليم المشابهة في المغرب."[2]

بعد هذا التّاريخ العريق لمدينة تلمسان، يلفت انتباه الرّحّالة موقعها فوق تلك الهضبة الّتي اتّخذت منها تلمسان عرشا تتربّع عليه الواقعة في سفح جبل لّا لّا ستّي، يمتزج سكّانها بين الأوروبيّين والأهالي ثم يعمد الرّحّالة إلى وصف تلك الأسوار المحيطة بها، وبعدها يتدرّج إلى وصف الأحياء الثّلاثة لمدينة

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 54.

[2] . المرجع نفسه . ص ذاتها.

تلمسان، فيقول:" تقع تلمسان فوق هضبة على ارتفاع 2115 قدما فوق سطح البحر في سفح جبل لّا لّا ستّي، وهو جبل صخري يتفرّع عن جبل تربي العظيم."[1]

بعد ذلك ينتقل إلى شكل تلمسان في تلك الفترة الّتي زارها فيها:" عبارة عن مربّع منتظم تقريبا يحيط بها السّور هناك سور جديد بني عام 1845م يحيط بالمدينة الحديثة الضّيّقة."[2]

ثمّ يواصل تجواله بالمدينة حتّى تقع عينه على جامعها الّذي ينتصب وسط المدينة تحيط به المنازل المطلّة على الشّارع بشرفها الضّيّقة:" تعود بناية الجامع الكبير إلى فترة كان الحسّ الفنيّ العربيّ يقترب من الفساد، إلاّ أنّها لا تزال تحمل آثار العهد الزّاهر، وتنتصب وسطه غابة من الأعمدة المرمريّة، تربط بينها أقواس واسعة، وتصطفّ بصورة متناسقة."[3]

يبدو أنّ الرّحّالة كان نشيطا ، ومتجوّلا في أحياء المدينة شارعا، شارعا، وإن كان وصفه لها يستند فيه إلى المراجع الّتي تختصّ بتاريخ المنطقة، حتّى وإن كان في وصفه لموقعها والجبل الّذي ينتصب عليه إلاّ أنّه يعود بنا إلى العهود الأولى، وكيف كانت المدينة.

يلاحظ بعد ذلك أنّه كان ذا شخصيّة لها وزنها، وأنّه أطال إقامته بالمدينة حتّى استطاع أن يندمج وسط الأهالي، ويكون له دراية بمعظم تفاصيل احتفالاتهم، حتّى أنّنا نجده يحضر حفل المولد النبويّ الشّريف، وقد كان له اتّصال بأبي حمّو موسى الثّاني الّذي كان يعطي المناسبة حقّها، ويحتفل بها فوق سائر المواسم، فيصف الرّحّالة ذلك قائلا:" يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف، والسّوقة فيما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة، وشمع كالأسطوانات، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبيّة الخزّ الملوّن، وبيدهم مباخير، ومرشّات."[4]

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 58.
[2] . المرجع نفسه . ص 58.
[3] . المرجع نفسه . ص 59.
[4] . المرجع نفسه . ص 55.

مناسبة أخرى حضرها هي حفل ختان الأطفال، وما المراسيم الّتي يتمّ إتّباعها من أجل إجراء المناسبة، كما هي العادة في أغلب البيوت الجزائريّة، والتّلمسانيّة على وجه الخصوص آنذاك، فبعد إعداد المأكولات، وأصناف الأطعمة وسط أهازيج النّسوة، والرّاقصة تتبختر أمامهم، ويبدو أنّها لم ترق له، ولم تنل إعجابه، ولم يستحسن رقصها، حيث عمد إلى وصفها، وصف رقصها، فيقول: " شاهدت أوّلا رقص زنجيّة سمينة، شابّة، وكانت هذه الجميلة السّوداء تتحرّك، وهي تهزّ خصرها في إيقاع، وقد بدا لي رقصها وحركاتها الجنسيّة تافها."[1]

ثمّ يواصل الرّحّالة، وأكثر ما أدهشه في الاحتفال إقبال ذلك الحلّاق حاملا موسى الحلاقة ليتوجّه نحو الصّبيّ المعدّ للختان، وهو في رعب، وخوف، يرتعد، ويبكي، بالرّغم من سنّه البالغ عشر سنوات وقد كان صراخه فظيعا، ولا يمكن لأحد أن يشاهده، ويسمعه:" كان الصبيّ البالغ من العمر عشر سنوات يرتعد، ويصرخ بصورة فظيعة، واستعمل الحلّاق الّذي قام بالعمليّة موسى الحلاقة وكان المنظر رهيبا مقرفا، وصرخ الطّفل بشكل خاصّ، وبكى بكاء شديدا عندما صبّ العرق فوق الجرح لإيقاف الدّم."[2]

وككلّ غريب عن تلمسان ، ويميل إلى الفنّ والمعمار، وزيارة الأوليّاء الصّالحين، تمكّن للرّحّالة زيارة ضريح قطبها اللّامع " أبا مدين شعيب"، ليؤكّد ذلك قائلا:" في تلمسان، أمكنني القيام بجولة جميلة في قرية سيدي بومدين الصّغيرة، حيث يوجد قبر هذا الولّي داخل مسجد جميل، ودخلت هذا الضّريح عبر باب قديم يشبه باب الحمراء."[3]

هذا ما أمكنني الحصول عليه عن أولئك الرّحّالة الأجانب الّذين قاموا بزيارات نحو مدينة العلم تلمسان، ربّما لبعدها عن البحر، وكلّهم كانوا يعبرون البحر نحو الجزائر فيجدون العاصمة نصب أعينهم الّتي استهوت الكثيرين وجلبتهم نحوها بمختلف ما احتوته من مناظر طبيعيّة، وتضاريس

[1] . هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا . ترجمة أبو العيد دودو . ص 62.

[2] . المرجع نفسه . ص نفسها.

[3] . المرجع نفسه . ص 63.

جغرافيّة، وأحوال اجتماعيّة ومرافق عامّة الّتي كان الرّحّالون يجدون فيها أغلب مقتنياتهم، وكانوا يحقّقون معظم مآربهم، وأغراضهم، وربّما كانت العاصمة مركزا لتجمّعاتهم، وأنّها كانت القاعدة العامّة لملتقياتهم كرّحّالة، وكأجانب يجدون مصالحهم الخاصّة.

الخاتمـــــــــة

يجمل بنا بعد أن قطعنا أشواطا من هذا العمل، أن نرجع إلى الخلف، وننظر فيما استطعنا الوصول إليه من نتائج دون ادعاء الوصول إلى تحقيق كلّ أهداف البحث المنشودة مسبقا لأنّ الخوض في البحث، أو تتبع مسار الرحالة الكثر الذين قدموا إلى الجزائر بغض النظر عن الأسباب والدوافع التي أدّت بهم إلى اختيار هذا الوطن إحدى محطّاتهم ، ولا يمكن حصرهم، ولأنّ الباحثين والمشاركين في الموضوع كثر أيضا، يصعب الإلمام بهم ، فدراستنا تدخل ضمنه . باب الرحلات . العربية والأجنبية التي دونت عن الجزائر وما حفلت به من مناظر طبيعية، وتضاريس جغرافية، وحياة دينية وعامّة يومية، وأحوال اجتماعية، وعادات وتقاليد، وأعراف وطقوس، ومبان ومعالم أثرية، وآثار عمرانية استوقفت أولئك الرحالة العرب والأجانب، فرسمت بذلك صورة كاملة الجوانب لبعض المدن الجزائرية، والتي وقفنا من ورائها على جملة من النتائج نسردها كالآتي:

. للرحلة أبعاد متشعبة منها الجغرافي، والتاريخي، والاقتصادي، والاجتماعي، والديني، والنفسي... الخ.

. تعدد الرحلات يستلزم تعدد الرحالة على اختلاف الفترات الزمنية، والأغراض التي أنشأت من أجلها.

. ضرورة الاعتماد على ما تحلّى به الرحالة من دقّة، وملاحظة، وصبر، وموضوعية، وملكة أدبية وتدوين ذلك.

. الخيط المشترك بين جميع الرحالة الذين زاروا الجزائر هو الانبهار بالجمال الطبيعي، والذكر الحسن لكرم ونبل أهلها.

. أن يكون أدب كلّ رحالة يمثل نقلة نوعية في مجال الأدب والمصنفات الأدبية فرضته عوامل متغيرة وما جعله ذا قيمة أدبية وعلمية.

. إحساس الرحالة الجزائريين بالشوق والحنين للوطن الأم، مما يفسر ذلك التلاقح العاطفي بين الإنسان والأرض.

. يصور الرحالة الجزائري كل ما رآه في البلدان التي زارها مقارنا ذلك بما يماثله في وطنه، فيتمنى لو يمكنه العودة ليمتّع بنفسه بمباهج أرضه بالقرب من أهله، وذويه.

. تنوعت الرحلات العربية والمسلمة، وتشعبت بالأهداف المنشودة، فهناك من خصّها فقط للمشايخ ودور العلم والمعرفة، وهناك من خصّها لزيارة الأضرحة، والأولياء الصّالحين.

. تميزت الرحلات العربية والمسلمة بالوصف الدّقيق، والإعجاب الكبير، من حيث تقديس الأماكن الخاصّة بالعبادة، وأداء الصّلوات، ونقل تلك الصّورة الجميلة عن تضامن، وتحاب أفراد المجتمع الجزائري آنذاك.

. إنّ الرّحلات العربية و المسلمة لم تكتف بالسرد، بل عمدت إلى رسم تلك الفضاءات هندسيا ومعماريا مضيفة بعض الخيال من خلال المزج بين الألوان، والزخارف الهندسية الرّائعة.

. أكّد الرحالة العرب والمسلمون من خلال أعمالهم الرّحلية على ثوابتهم، واعتزازهم بحضارتهم الإسلامية، وثقتهم في أصالتها وصلاحها في عصر طغت فيه الحضارة الغربية بغية وقوفهم في وجه الإلغاء والتهميش، آملين في إفادة القراء بمعلومات كانت غائبة عنهم.

. كشفت بعض الرحلات عن أسماء لأدباء أهملهم التاريخ الأدبي، ولم يعرفوا إلاّ من خلال كتاباتهم الرحلية.

. استخدم هؤلاء الرحالة الصورة أداة فنية لنقل المشاهد محملين إياها مشاعرهم وعواطفهم أحيانا نثرا وبعضهم عن طريق الشعر، وبالاعتراف أحيانا بعجز اللسان عن يفاء الصورة حقّها.

. أفاد بعض الرحالة متلقي كتاباتهم بالفن القصصي عن طريق الوصف تارة، واستخدام السرد تارة أخرى.

. استخدم بعضهم روح الدعابة بغية التشويق مم يزيد الحوادث متعة فنية رائعة.

. اعتماد الرحالة الأجانب صور بانورامية لرسم حالة الجزائر أيام زيارتها.

. حملت بعض الرحلات الأجنبية المدونة بين طياتها أغراض شخصية حاقدة على الجزائر وأبنائها لتحقيق أطماع توسعية.

. إنّ الرحلات الأجنبية باتجاه الجزائر كانت لنقل المشاهد وصفا حينما تعلق الأمر بالمظاهر الطبيعية والتضاريس الجغرافية.

. أمّا فيما تعلق بالحياة الدينية فكانت بغية الكشف واكتشاف الأشياء التي بدت لهم غامضة.

. كما لاحظنا أنّه حينما تعلق الأمر بالحياة العامة اليومية بالنسبة للرحالة الأجانب كانت نظرتهم استهزائية وساخرة من الأوضاع الاجتماعية السائدة آنذاك.

. وأحيانا كانت للتأسف على ما آلت إليه المنشآت العمرانية جراء التلف وعامل الزمن، واللامبالاة وعدم الاهتمام بسب انشغالهم بأمور أخرى.

. إنّ الرحالة الأجانب عموما قسموا إلى قسمين في رسم صورة الجزائر في كتاباتهم.

. صورة إيجابية تمثلت في وصف المناظر الطبيعية الساحرة التي أسرت لب كل من رآها، وهناك جانب آخر، ووجه آخر لتلك الرحلات الأجنبية التي أسهمت ولو بالشيء القليل في الكشف والبحث عمّا تزخر به أرض الجزائر، وتقديم معلومات جمة يجهلها الكثيرون.

. صورة سلبية تمثلت في السخرية والاستهزاء من أحوال الشعب الجزائري الاجتماعية السائدة آنذاك.

من الملاحظات التي ارتقت إلى درجة التتويج هو ما حظيت به المدن الثلاث: (قسنطينة، والجزائر العاصمة، وتلمسان) من اهتمام الرحالة العرب لما وجدوا فيها من مآثر حضارية، وعلمية، في حين استقطبت مدينة الجزائر العاصمة أنظار الرحالة الأجانب.

.كان الولوج إلى الجزائر عبر البحر حيث شدّت الكل صورة مينائها الساحر، فأجمع على أنّه لا مثيل له في كل بقاع العالم.

.كما نأمل أن يدرج ضمن مقياس الرحلات وأدبه فن أدب الرحلة في الجزائر في مناهج التعليم الجامعي، أي البحث العلمي، لكونه أدبا فنيا شيقا يحمل الكثير من القيم الفكرية، والخصائص الفنية المتميزة، ولكونه أيضا يتميز بأسلوب قصصي يبعث على الإثارة والتشويق والمتعة.

. نأمل أنّ ترجمة ودراسة رحلات الأجانب التي قاموا بها إلى دول المشرق الإسلامي تحظى بعناية بالغة ونرجو الإكثار منها لأنّها بلا شك كثيرة، ولا تزال غامضة.

. نأمل أيضا أن يعطى أدب الرحلة الأجنبية إلى الجزائر حقّه، ويصنّف ضمن بابه ومحتوياته حتى لا يخلط بينه وبين بقية الانتاجات الأدبية.

وفي ختام هذه النتائج التي توصلت إليها أعتقد أنّ الرّحلات باتجاه الجزائر سواء أكانت عربية أو أجنبية أجمعت على أنّها تتميز بمناخ رائع، وجو بديع، ومناظر طبيعية خلابة ساحرة قلّما تجدها في بلد آخر، وموقع استراتيجي هام يجلب كل من تطأ أقدامه عليه، وإنّ الرحلات الأجنبية قدّمت صورة سلبية عن الحياة البسيطة التي يعيشها سكان الجزائر، بالرغم من علمهم بظروف الحرب المخزية وأنّ الوضع الاجتماعي الّذي رأوا أهل الجزائر عليه ليس من إنتاجهم، وإنّما فرض عليهم وأحاطهم به المستعمر الفرنسي، وأظنّ أنّ تلك الرحلات لو كانت في الزمن الحاضر لتغير الأمر، ولتغيرت الكتابات الرّحلية، لأنّهم سوف يرون منظرا مشرفا إن كان بالنسبة للجزائر العاصمة أو باقي ولايات الوطن.

. القرآن الكريم: برواية حفص .

قائمة المصادر والمراجع:

1. . الإدريسي . المغرب العربي في نزهة المشتاق ب ط . الجزائر 1980.
2. الإدريسي . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . حققه ونقله إلى الفرنسية محمد الحاج صادق ب ط . الجزائر 1983.
3. أحمد بن محمد المقري . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق الدكتور إحسان عباس . ج9 . دار الأبحاث بدعم من وزارة الثقافة 2008.
4. أحمد بن محمد المقري . أزهار الرياض في أخبار عياض . ضبط وتحقيق وتعليق مصطفى السقا وآخران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ب ط . مصر 1939.
5. بن حمادوش عبد الرزاق الجزائري . رحلته(لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال . تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله ج1 . المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية . ب ط الجزائر 1983.
6. بن قينة عمر . اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية السورية . ديوان المطبوعات الجامعية . ب ط الجزائر 1995 .
7. بن قينة عمر . رحلات ورحالين في النثر العربي الجزائري . شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ط2 . الجزائر 2009.
8. بن قينة عمر . صورة الجزائر أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي . منشورات تالة . ب ط . الجزائر ب س.
9. بن نبي مالك . شاهد القرن . سلسلة مشكلات الحضارة . ترجمة مروان القنواتي . دار الفكر . ب ط . بيروت 1969.
10. بوعزيز يحي . تاريخ الجزائر(القديمة والوسطية) ديوان المطبوعات الجامعية . ب ط . الجزائر 1995.

11. بوعزيز يحي . مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط . دار الغرب للنشر والتوزيع . ب ط . الجزائر 2003.

12. بوغفالة ودان . التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية وملیانة في العهد العثماني .كتبة الرشاد ط2 . الجزائر 2009.

13. بوفلاقة سعد . أوراق تلمسانية . منشورات بونة للأبحاث . ط 1 الجزائر 2011

14. الجيلالي عبد الرحمان . تاريخ المدن الثلاث(الجزائر . المدية . ملیانة) منشورات وزارة الثقافة ط2 . الجزائر 2005.

15. حاجيات عبد الحميد . أبو موسى الثاني الزياني حياته وآثاره . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط2 . الجزائر 1982.

16. حساني مختار . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج1 مدن الوسط . دار الحكمة . ب ط . الجزائر 2007.

17. حساني مختار . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج2 مدن الشرق . دار الحكمة . ب ط الجزائر 2007.

18. حساني مختار . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج3 مدن الجنوب . دار الحكمة . ب ط . الجزائر 2007.

19. حساني مختار . تاريخ وثقافة المدن الجزائرية . ج4 مدن الغرب . دار الحكمة . ب ط . الجزائر 2007.

20. حسن محمود حسن . أدب الرحلة عند العرب . المكتبة الثقافية . ب ط . القاهرة د س.

21. حسين فهيم . أدب الرحلات . عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ع 138 . الكويت يونيو 1989.

22. حليفي شعيب . الرحلة في الأدب العربي . التجنيس آلية الكتابة . خطاب المتخيل . دار الرؤية للنشر والتوزيع . ب ط . المغرب 2006.

23. داوود توفيق . الجزائر وجوه ومناظر . عن وزارة الثقافة . ب ط . الجزائر . جويلية 2005.

24. دودو أبو العيد . الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان . (1830م/1855م) ب ط . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1989.

25. الركيبي عبد الله . الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز . دار الكتاب العربي . الجزائر 2009.

26. زكرياء بن محمد بن محمود القزويني . آثار البلاد وأخبار العباد . دار بيروت للطباعة والنشر . ب ط بيروت 1979.

27. سعد الله أبو القاسم . تاريخ الجزائر الثقافي . ج1 . دار البصائر ط6 . الجزائر 2006.

28. سعد الله أبو القاسم . تجارب في الأدب والرحلة . المؤسسة الوطنية للكتاب ب ط . الجزائر 1983.

29. السعدوني ناصر الدين . أوراق جزائرية . دراسات وأبحاث في تايخ الجزائر في العهد العثماني . دار الغرب الإسلامي ط1 . بيروت 2000.

30. الطّمار محمد بن عمرو . تلمسان عبر العصور . المؤسسة الوطنية للكتاب . ب ط . الجزائر 1984.

31. الطهطاوي رافع رفاعة . تخليص الإبريز في تلخيص باريز . دار يونيو 1989 .كلمات هنداوي . القاهرة 2012..

32. عبد الرحمان ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . دار الكتب العلمية ط1 بيروت 2004.

33. عبد الرحمان ابن خلدون . المقدمة . دار الكتب العلمية . ط1 . بيروت 1993.

34. العبدري محمد بن محمد . الرحلة العبدرية . دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع . ط2 . سوريا 2005.

35. العبدري محمد بن محمد . الرحلة المغربية . تقديم سعد بوفلاقة . منشورات بونة . ب ط . الجزائر 2007.

36. العربي اسماعيل . ترجمة وتعليق على مذكرات أسير الداي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب . ديوان المطبوعات الجامعية . ب ط . الجزائر 1982.

37. العنتري محمد صالح . تاريخ قسنطينة . مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور يحي بوعزيز . دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع . ط 1 الجزائر 2007.

38. العياشي أبو عبد الله بن محمد . الرحلة العياشية 1661.1663 حققها وقدم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي . بيروت 2010.

39. غانم محمد الصغير . المظاهر الحضارية والتراثية لتاريخ الجزائر القديم . مقالات وآراء في تاريخ الجزائر ج4 . دار الهدى . ب ط . عين مليلة الجزائر 2011.

40. غريب جورج . أدب الرحلة وأعلامه . دار الثقافة . بيروت لبنان.

41. القلصادي . رحلة القلصادي . دراسة وتحقيق محمد أو الأجفان . الشركة التونسية للتوزيع . ب ط تونس 1978.

42. قنديل فؤاد . أدب الرحلة في التراث العربي . مكتبة الدار العربية . ب ط . القاهرة 1993.

43. الكردي علي إبراهيم . أدب الرحل في المغرب والأندلس . مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب . سوريا 2013.

44. مارسي جورج . مدن الفن الشهيرة . تلمسان . ترجمة سعيد رحماني . دار النشر التل . ب ط . الجزائر 2004.

45. محمد بن عبد الله ابن بطوطة . رحلته . تحقيق محمد المنتصر الكتاني ج1 . دار صادر . ب ط . بيروت 1992.

46. محمد بن عبد الله ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة ج2 . دار الكتب العلمية ط1 . لبنان 1424 هـ.

47. محمد بن عبد الوهاب المكناسي . الرحلة المكناسية 1785م . حققها وقدم لها محمد بوكبوط . دار السويدي للنشر والتوزيع . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ط1 . بيروت 2003.

48. المدني أحمد توفيق . حياة كفاح . ج2 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . ب ط . الجزائر 1983.

49. المدني أحمد توفيق . هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر . ب ط . دار البصائر . الجزائر 2009.

50. مصالي الحاج . مذكرات مصالي الحاج (1898/1938) تصدير عبد العزيز بوتفليقة . ترجمة محمد المعراجي . منشورات ANEP .

51. نقولا زيادة . الجغرافيا والرحلات . دار الأهلية للنشر والتوزيع . ب ط . بيروت 1980.

52. هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ج1 . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ب ط . الجزائر بدون سنة.

53. هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ج2 . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ب ط . الجزائر بدون سنة.

54. هايزيش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ج3 . ترجمة أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ب ط . الجزائر بدون سنة.

55. الورتلاني الفضيل . رحلة الورتلاني(عرض ودراسة د مختار بن طاهر فيلالي . دار الشهاب . ط1 باتنة الجزائر 1978.

56. هابنسترايت ج.أو . رحلته إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732 م) ترجمة وتقديم وتعليق أ.د ناصر الدين السعدوني . دار الغرب الإسلامي تونس دتا.

57. يحي أبو زكرياء ابن خلدون . بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج1 . تحقيق عبد الحميد حاجيات ب ط . الجزائر 1980.

الدواوين الشعرية:

1 . أبو مدين شعيب . الديوان من خزينة التراث العربي . نشر مكتبة ابن خلدون . تلمسان 2007.

2 . الأعشى . الديوان . دار بيروت للطباعة والنشر ب ط . بيروت دس.

3 . دريد بن الصمة . الديوان . تحقيق عمر عبد الرسول . دار المعارف . بيروت 1980.

الرسائل الجامعية:

1 . بن آل حمادي عبد الله . رسالة ماجستير . أدب الرحلة في المملكة السعودية . جامعة أم القرى . السعودية 1997.

2 . زردومي اسماعيل . فن الرحلة في المغرب العربي . رسالة دكتوراه . كلية الآداب والعلوم الإنسانية . قسم اللغة العربية . جامعة الحاج لخضر . باتنة 2005.

2. المجلات:

1 . مجلة مسالك (تصدر عن مؤسسة الأمير عبد القادر) فبراير 2012 عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية في إطار الملتقى الدولي عبد القادر عابر للزمن من 25 فبراير إلى 28 فبراير 2012 بقصر الثقافة تلمسان.

2 . مجلة المعالم الأثرية المحكمة لولاية قالمة . العدد 13. 2005.

المقالات:

1 . أنساعد سميرة . مقال بعنوان: صورة الأنديجان في الرحلات الفرسية أثناء التاسع عشر ميلادي.مجلة المعالم الأثرية . العدد 14 . 2005.

2 . القاسمي محمد رضي الرحمان . مقال بعنوان الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية).

3 . مؤذن عبد الرحيم . مقال بعنوان الرحلة المفهوم والجنس.

الملتقيات:

1 . حمزة قونة . محاضرة وادي ريغ ودوره في القوافل التجارية في إطار الملتقى الوطني الأول حول وادي ريغ في عيون الرحالة . تقرت الجزائر أيام 15 و 16 ربيع الثاني 1435هـ / 15 و 16 فبراير 2014م.

المعاجم باللغة العربية:

1 . ابن منظور أبو الفضل جمال الدين . لسان العرب . دار صادر . بيروت . المجلد 10 .

2 . أبو الحسن أحمد بن فارس الرازي . مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام بن هارون . دار الجيل . بيروت بدون سنة .
3 . الفيروز أبادي محمد بن يعقوب . القاموس المحيط . دار الجيل ط 3 بدون سنة . ص 309
4 . إدريس سهيل . قاموس عربي . دار الآداب ط1 . بيروت .2007.
5 .. محمد بن عثمان المكناسي . الأكسير في فكاك الأسير . تحقيق وتعليق علي الفاسي . المركز الجامعي للبحث العلمي د ط . الرباط 1965.
6 . ياقوت الحموي . معجم البلدان . دار صادر . بيروت 1984.

المعاجم بالفرنسية:

Larousse : Le dictionnaire de francais _ omega international _ . 1
sarl Ed specialeAlgerie 2001 (Voyager)
iblot le dictionnaire olfaraid arabe / . 2
francaisedoriotalbibliothequecathroliquevt 21 beyrouth.

مواقع الانترنت:

http:// hadisussion .com. 1

mawdoo3.com. 2

islamstory.com3

www.carabiaya.net4

http://cirtaawardspace.com .5

6 موقع معالم وآثارhttp://awardspace cinacirt.com

7 . عزيز اسماعيل بحث حول الرحالة العرب في المغرب العربي http://www.ahrab.com

8 . موقع الكتروني salalbrahim72@yahoo.com

مقدمة.....أ . هـ

مدخل: الرحلة مفهومها.....1-7

أبعادها.....8-13

الرحلة والمفهوم الأدبي:.....14-24

الفصل الأول:صورة الجزائر في عيون الرحالة العرب:

المبحث الأول: الرحالة الجزائريون الحنين والشوق:.....25-61

المبحث الثاني الرّحّالة العرب: الإعجاب والاندهاش:.....62-78

المبحث الثالث الرّحالة المسلمون: الإعجاب والوصف:.....79-82

الفصل الثاني: صورة الجزائر في عيون الرحالة الأجانب

المبحث الأول: صورة الجزائر في عيون الرحالة الفرنسيين:.....83-116

المبحث الثاني: صورة الجزائر في عيون الرحالة الألمان:.....117-130

المبحث الثالث:صورة الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز:.....131-139

المبحث الرابع:صورة الجزائر في عيون الرحالة الأمريكيين:.....139-141

الفصل الثالث: مدن جزائرية في عيون الرحالة

المبحث الأول: قسنطينة في عيون الرحالة

1.2 تاريخها وموقعها الجغرافي.....142ـ146

2.1 الحياة الدينية..... .147 ـ 148

3.1 الحياة الاجتماعية.....149

4.1 العادات و التقاليد.....149-150

5.1 صورتها في عيون الرحالة:

أ الرحالة العرب.....151-154

ب الرحالة الأجانب.....155-162

المبحث الثاني : الجزائر العاصمة في عيون الرحالة

1.2 تاريخها و أسماؤها.....163-165

2.2 موقعها

الجغرافي.....165

3.2 الحياة الدينية.....166-168

4.2 الحياة الاجتماعية.....169-170

5.2 صورتها في عيون الرحالة

أ الرحالة العرب:.....171 _ 177

ب الرحالة الأجانب:.....177 _187

المبحث الثالث: صورة تلمسان في عيون الرحالة

3 . 1 تاريخها و أسماؤها وجغرافيتها :.....188-197

3 . 2 ما نظمه الشعراء فيها :.....198-204

3 . 3 صورتها في عيون الرحالة

أ . الرحالة العرب:.....205-208

ب . الرحالة الأجانب:.....209_212

الخاتمة.....213_217

قائمة المصادر والمراجع:.....218-224

فهرست الموضوعات

الملخص:

يتناول موضوع دراستي صورة الجزائر في عيون الرّحّالة، وهو موضوع شيّق ما عرفت ذلك إلّا بعد أن غصت في أعماقه، وما ذقت حلاوة البحث فيه إلّا بعد أن أبحرت عبر أمواجه، وقد تناولت فيه ثلاثة فصول بعد مدخل، ومقدمة ، فكان الفصل الأوّل عن هذه البلاد السّاحرة، وكيف صوّرها ووصفها أبناؤها، والعرب الرّحّالة الّذين أبهرتهم بجمالها الخلّاب، وبعد ذلك كان الفصل الثّاني عن أولئك الرّحّالة الغرب أي الأجانب، وكيف أنّهم رأوها إمّا من جانب ايجابي وإمّا آخر سلبي، وكان الفصل الأخير الثّالث عن ثلاث مدن جزائرية:(قسنطينة، والعاصمة، وتلمسان) في توصيف، وتصوير رحّالة عرب، وآخرون أجانب .

الكلمات المفتاحية: صورة، الرحالة العرب، الرحالة الأجانب، المدن الثلاث (قسنطينة، الجزائر العاصمة، تلمسان) ، توصيف وتصوير.

Résumé

Le sujet de l'étude de l'image de l'Algérie dans les yeux des voyageurs est un sujet intéressant connu seulement après avoir été profond dans les profondeurs et goûté la douceur de la recherche seulement après avoir traversé Amoujah et traité trois chapitres après l'entrée et l'introduction. Comment a-t-il été décrit et décrit par ses fils et les Arabes qui l'ont impressionné par sa beauté et puis le premier chapitre sur les voyageurs occidentaux, c'est-à-dire les étrangers et comment je l'ai compris, et le troisième chapitre de trois villes (Constantin, la capitale et Tlemcen) Photographie du voyageur des Arabes et autres étrangers.

Les mots clés : photo _ les voyageurs des arabes _ les voyageurs des étrangers _ les trois viles (Constantine_ la capitale et Tlemcen).

Summary

The subject of the study of the image of Algeria in the writings of travelers is an interesting subject known only after having been deep in the depths and tasted the sweetness of the search only after having gone through Abuja and treated three chapters after the entry and introduction. How was it described and described by his sons and the Arabs who impressed him with his beauty, and then the first chapter on Western travelers, that is, foreigners, and how I understood it , and the third chapter of three cities (Constantine, the capital and Tlemcen) Photograph of the traveler of the Arabs and other foreigners.

Keywords: image_ travelers_ Arabs_ foreigners_ the three cities_(Constantine_ Algiers_ Tlemcen) desertion _ depiction.